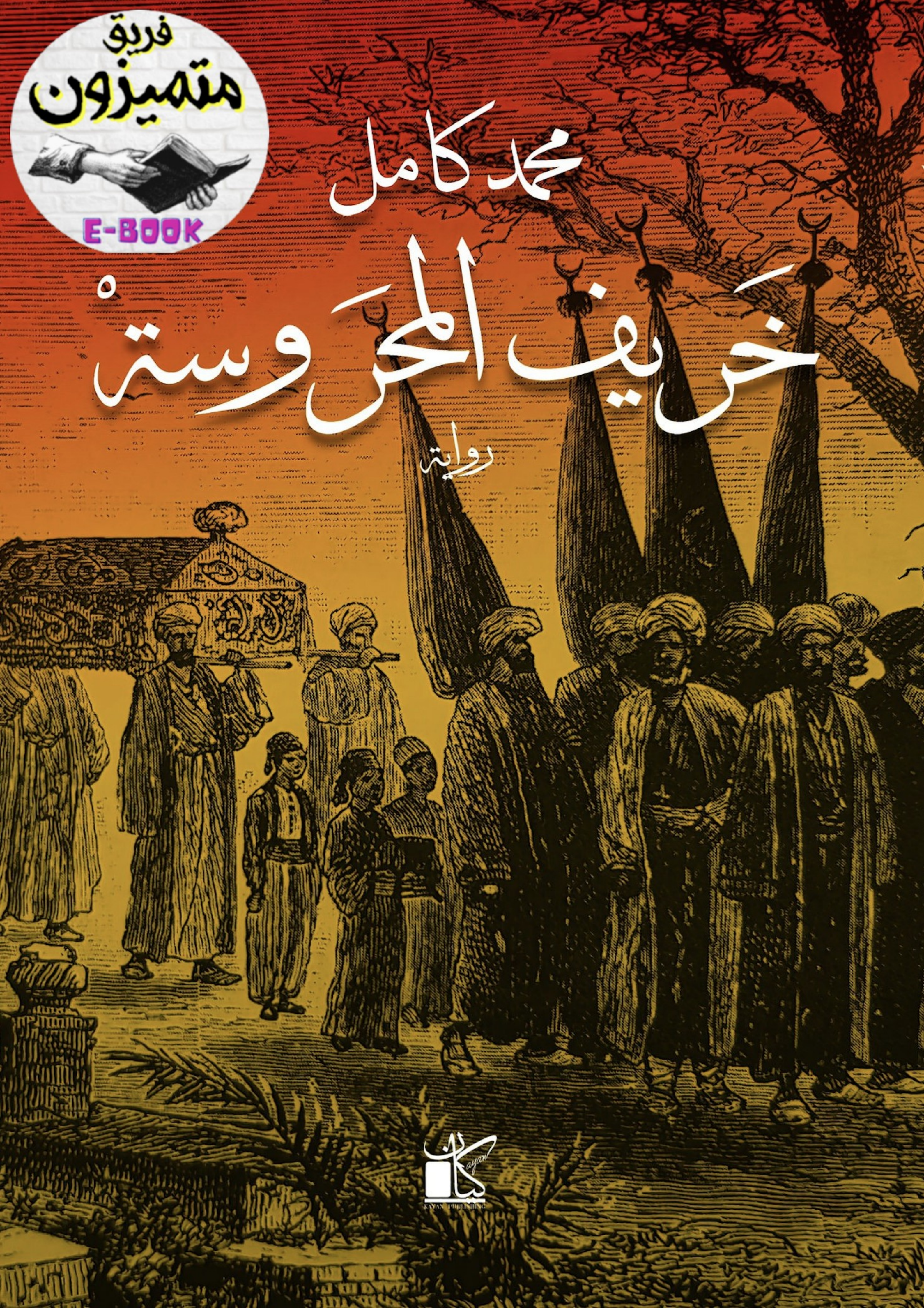

فريق
متميزون
E-BOOK
محمد كامل
خَريف المحَروسة
رواية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

خريف المحروسة

رواية..

الكاتب: محمد كامل.

خريف المحروسة..

أشياء حدثت، وأشياء لم تحدث..

وبين ما حدث وما لم يكن مقدرًا له الحدوث..

وجدنا أنفسنا تائهين..

محمد كامل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك شخصيات تمر في التاريـخ دون أن تترك أثرًا..

وهناك شخصيات يقف لها التاريـخ..

-١-

القاهرة ١٨٣٥

لم يكن الذين تجمعوا من بسطاء أهل المحروسة وعليةِ قومها منفضين حتى تأتيهم البشارة بحلول شهر رمضان المبارك، الجميع في انتظار هلاله، الرجال قبل النساء، وكبار السن قبل الأطفال، الكل متأهب للاحتفال، حنينهم إلى لحظات الذِّكر والفرح بالشهر الكريم التي تفوح بالخير والبركات تظل معلقة في أذهانهم من العام للعام، لا تكاد تنطفئ جذوتها حتى تشتعل مرة أخرى بحلول شهر العام الجديد الذي لا يكاد يبدأ حتى تقام الولائم وتعلق الزينات، وتضاء الشوارع بالمصابيح، وتعلو أصوات المصلين في صلاة التراويح.

يحمل على عنقه طفلته الصغيرة «هند» التي ترى الدنيا من أعلى وكأنها فراشة ترفرف بجناحيها الصغيرين فوق رؤوس العباد، تصفق بكفيها الصغيرين الرقيقين، بجانبه ولداه «علي» و«حسن»، أعينهم تتحرك في سرعة بين الزحام تشاهد ما يحدث، وقف السيد «محمود الورداني» يتابع مظاهر استطلاع هلال الشهر الكريم كعادته مع أبنائه كل عام، لا.. بل منذ أن كان هو نفسه صغيرًا يحمله أبوه بنفس الطريقة التي يحمل بها هندَ الآن، كان يشعر أن يديه تطول السحاب، كأن الله قد فضَّله على العالمين واختاره ليقترب من السماء ويرى الناس من علٍ، كان يمسك بكفيه عمامة أبيه يخشى أن يتركها فيسقط أو يهبط إلى الأرض ويعود كسائر البشر يخطو بقدميه عليها، بعد أن كان محلقًا بين السماء والأرض.

صفقت هندُ بكفيها جذلًا وهي تصرخ من فرط سعادتها وانبهارها في ليلة الرؤية وهي ترى طوائف الشعب من الأنحاء كافة بين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس في موكب لأرباب الحرف من الطحانين، والخبازين، والزياتين، والجزارين، والفكهانية، وصانعي الفوانيس، وحاملي الشموع، على عربات مزدانة بالزهور والأوراق الملونة، وموكب الطرق الصوفية بالشارات والبيارق يمرون من أمامهم.

اتسعت ابتسامتها لما رأت الفرق الرمزية من الجيش والشرطة بموسيقتها المميزة متجهة في موكب الرؤية إلى المحكمة الشرعية تتقدمهم الموسيقى والطبول، الموكب من القلعة ضم المحتسب وشيوخ التجار، تحيط بهم فرق الإنشاد الديني ودراويش الصوفية، وتتقدم المواكب فرقة من الجنود، الكل في انتظار البشارة، هتفت هندُ ليعلو صوتها فوق أصوات الجمع الغفير من الناس:

- هل وصل رمضان يا أبي؟

ابتسم الأب وهو يُحكِم جلستها فوق عنقه ويمسك بكفيه ساقيها المتتدليتين على صدره:

- سنعرف بعد قليل يا صغيرتي.

ردت متسائلة في سرعة:

- وهل سنراه حين يصل؟

ابتسم وأجاب:

- بل سنرى هلاله فوقنا، أو سيخبرونا أن هلاله قد ظهر، وغدًا إن شاء الله ربما نرى الهلال واضحًا من سطح البيت عندنا.

جذب حسنُ السيد محمود من ملابسه وهو يشير لأعلى:

- انظر هناك يا أبي.

التفت الأب وأخته وأخاه والناس أجمعون على الصواريخ والألعاب النارية والمدافع التي أُطلقت في الهواء، فقال «علي» أكبر الأبناء:

- لقد ثبتت رؤية الهلال.

أضيئت في الحال الأنوار وأُوقدت الشموع على الدكاكين وفي المآذن وأُضيئت المساجد، بينما بعض الممثلين عن أصحاب حرف التجارات والصناعات على العربات في مواكبهم المزينة كالتي تحدث في الربيع، من كان يتفنن في إطلاق النكات والأغاني بصوت عالٍ احتفالًا وابتهاجًا. مشى أمامهم السقاءون بالقِرب، والناس من حولهم يشاهدون، عُلِّقت المواقد والقناديل المضيئة على طول الطريق لتنير للناس الدروب، كأن رمضان قد أتى وأتى معه نورٌ على الأرض ونور الهلال فيفي السموات.

تذكر السيد محمود الورداني ذات يوم، وهو صغير جوار أبيه أيام الحملة الفرنسية، في ليلة الرؤية، وكان قاضي القضاة والمحتسِب ومشايخ الديوان مجتمعين ببيت القاضي، عند ثبوت الرؤية خرجوا في الموكب وأحاط بهم مشايخ الحرف وجملة من العساكر الفرنساوية، وأطلقت المدافع والصواريخ من القلعة والأزبكية، حينها كانت كسوة الكعبة مودعة بمشهد الإمام الحسين حتى موعد دوران المحمل في الأسبوع الثالث من شهر شوال.

في هذا اليوم توجه الوكيل الجنرال فورييه ومشايخ الديوان إلى المشهد الحسيني في انتظار حضور نابليون بونابرت للكشف عن

الكسوة، ازدحم الناس زيادة على عادتهم في رمضان، حينها رأى بعينيه الصغيرتين نابليون وقد حضر ونزل عن فرسه عند الباب وأراد العبور للمسجد، فلما رأى ذلك الازدحام، هاب الدخول وخاف العبور وسأل من معه عن سبب هذا الازدحام، فقالوا:

- هذه عادة الناس في نهار رمضان يزدحمون دائمًا على هذه الصورة في المسجد، ولو حصل منكم تنبيه كنا أخرجناهم قبل حضوركم.

فركب فرسه وفرَّ راجعًا وأناب.

أهالي المحروسة من غير المسلمين سواء أكانوا أقباط مصريين، أو أرمن، أو حتى من جنسيات أخرى، تنتظر هذا الشهر؛ لأنه يملأ المحروسة بالبهجة والسرور، ويضيء لياليها بألوان الاحتفالات المختلفة، ويكثر فيه البيع والشراء، فيأتي الخير مع الشهر لكل الناس كافة وليس للمسلمين خاصة.

كالعادة مأمورون من الوالي، أُغلقت جميع قاعات الخمَّارين بالقاهرة، وتم حظر بيع الخمر من آخر شهر جمادى الآخرة.

عِلية القوم اعتادوا قلب نهارهم ليلًا وليلهم نهارًا في رمضان، ينامون من مطلع الفجر حتى أذان العصر، أو قُبيل ساعة المغرب بقليل، ومنهم من يفطر في الخفاء، لكن عامة الشعب لم يكن يسلك نفس المسلك حتى وإن سَهر كثيرًا بعد العشاء، البعض يصلي التراويح ويحضر حلقات الذكر في المسجد، ثم ينام لبضع ساعات قبل السحور، ومنهم من يبدأ يومه من بعد صلاة الفجر، البعض يكمل نومه لساعتين أو يزيد، ثم يستيقظ ليبدأ عمله من قبل ساعة الضحى بساعتين أو أكثر، ونادرًا ما

يُفطر منهم أحدٌ، إلا من كان منهم مريضًا أو على سفرٍ أو قد أصيب بعذر يمنعه عن الصيام.

الجو كان شديد الحرارة حتى في تلك الساعة من الليل، فقد مر على بداية أغسطس ستة أيام، معظم الأهالي من متوسطي العمر عاصروا أغلب شهور رمضانهم في برد الشتاء؛ إذ كان نهاره قصيرًا، لا يشعرون معه بجوع أو عطش نتيجة الامتناع لفترة ليست بالطويلة عن الماء، وليله طويلًا يسمح لهم بقليل من السهر والاكتفاء من النوم معًا، أما في عامنا هذا فهم يحملون عبء الصوم مع قيظ الحر والعرق، وإحساسهم بالعطش كما حدث معهم في عامهم الذي مضى، وربما أكثر.

انتقلت مسؤولية استطلاع هلال شهر رمضان المبارك من القضاة إلى المحكمة الشرعية في عهد محمد علي باشا، فقد كان الناس من قبل يخرجون إلى سفح المقطم لرؤية الهلال، وكانت هناك دكة موضوعة على مكان مرتفع عُرفت بدكة القضاة، أُعدت ليشاهدوا الهلال عندها، استمرت هذه الدكة حتى عهد القائد الفاطمي بدر الجمالي الذي أمر ببناء مسجدٍ مكانها واتُخذت مئذنته مرصدًا لرؤية هلال شهر رمضان، فكان قاضي القضاة يخرج لرؤية الهلال ومعه القضاة الأربعة كشهود ومعهم الشموع والفوانيس، ويشترك معهم المحتسب وكبار تجار القاهرة ورؤساء الطوائف والصناعات والحرف.

من منتصف شعبان والسيد محمود يحكى لأبنائه يوميًا الحكايات التي سمعها صغيرًا من والده، ومن الشيوخ، عن احتفالات أهل المحروسة قديمًا برؤية هلال رمضان، كان الأطفال وربما الكبار معهم ينتظرون موكب رؤية الهلال والاحتفالات، أكثر مما ينتظرون الشهر نفسه، حكى عمًّا عَلِمَهُ

من الشيخ عبد الفتاح مُعلمه في الأزهر، أنه في العصر الفاطمي كان يُعهد للقضاة بالطواف بالمساجد في القاهرة وباقي الأقاليم، لتَفقُّد ما تم إجراؤه فيها من إصلاح وفرش وتعليق المسارج والقناديل، حكى عن «الثُّريا» التي أهداها الخليفة الحاكم بأمر الله إلى مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط التي كان وزنها سبعة قناطير من الفضة الخالصة، وكان يوقد بها في ليالي المواسم والأعياد أكثر من سبعمائة قنديل، ويفرش المسجد بعشر طبقات من الحصير الملون بعضها فوق بعض، وما أن ينتهي شهر رمضان حتى تُعاد تلك الثريا والقناديل إلى مكان أُعد لحفظها فيه داخل المسجد. وقد كانت الدولة في ذلك الوقت تخصص مبلغًا من المال لشراء البخور الهندي والكافور والمسك الذي يصرف لتلك المساجد في شهر الصوم. تلك الفترة كان سوق الشماعين بالنحاسين من أهم الأسواق في المحروسة، فشهر رمضان موسم عظيم لشراء الشموع الموكبية التي تزن الواحدة عشرة أرطال أو أقل، الأطفال كانوا يلتفون حول إحدى الشموع وبأيديهم الفوانيس يغنون ويتضاحكون ويمضون بموكبهم المنير في الحواري من بعد الإفطار حتى صلاة التراويح.

سوق السمكرية داخل باب زويلة، كان يعجُّ بأنواع الياميش وقمر الدين، وكانت وكالة «قوصون» التي ترجع إلى القرن الثامن الهجري وهي مقر تجار الشام، يُنزل فيها ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخروب، ولما خربت الوكالة في القرن التاسع انتقلت تجارة المكسرات إلى وكالة مطبخ العمل بالجمالية، حيث خُصصت لبيع أصناف الجوز واللوز وما شابهما.

علم من والده أيضًا أن قديمًا، تَعوَّد الخليفة الخروج إلى عامة الشعب في مهرجان إعلان حلول شهر رمضان من باب الذهب وهو أحد أبواب القصر الفاطمي، متحليًا بملابسه الفخمة وحوله الوزراء بملابسهم المزركشة وخيولهم بسروجها المذهبة، وفي أيديهم الرماح والأسلحة المطعمة بالذهب والفضة والأعلام الحريرية الملونة، وأمامهم الجند تتقدمهم الموسيقى، كان يسير معه في هذا الاحتفال التجار، وصانعو المعادن، والصاغة، وغيرهم، الذين كانوا يتبارون في إقامة مختلف أنواع الزينة على حوانيتهم فتبدو الشوارع والطرقات في أبهى زينة.

موكب الخليفة السلطان كان يبدأ من شارع بين القصرين، حيث قبر الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقبر شجرة الدر، ومساجد الدولة المملوكية مثل مسجد السلطان قنصوة الغوري ومسجد الأشرف برساي، ويسير في منطقة الجمالية حتى يخرج من باب الفتوح، وهو أحد أبواب سور القاهرة الشمالية، ثم يدخل من باب النصر عائدًا إلى باب الذهب بالقصر، وفي أثناء الطريق توزع الصدقات على الفقراء والمساكين، وحينما يعود الخليفة إلى القصر يستقبله المقرؤون بتلاوة القرآن الكريم في مدخل القصر ودهاليزه، حتى يصل إلى خزانة الكسوة الخاصة، فيغيِّر ملابسه ويرسل إلى كل أمير في دولته بطبق من الفضة مملوء بالحلوى، تتوسطه صرة من الدنانير الذهبية وتوزع الكسوة والصدقات والبخور وأعواد المسك على الموظفين والفقراء، ثم يتوجه لزيارة قبور آبائه حسب عادته، فإذا ما انتهى من ذلك أمر بأن يكتب إلى الولاة والنواب بحلول شهر رمضان.

أما في أيام المماليك، في صباح أول أيام رمضان يصعد المحتسب والقضاة الأربعة إلى القلعة لتهنئة الوالي المملوكي، فيخلع عليهم

قفاطين كما جرت العادة. وفي بيوت الأعيان كانت المآدب تُمدُّ للناس ولا يُمنع من يريد الدخول، وكانت لهم عادات وصدقات في ليالي رمضان يطبخون فيها الأرز باللبن، يملئون من ذلك قصاعًا كثيرة، ويوزعون منها على المحتاجين، يجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء فيوزعون عليهم الخبز ويأكلون، يعطونهم بعد ذلك دراهم، خلاف ما يوزع من الكعك المحشو بالسكر والعجمية وسائر الحلوى.

وفي مستهل الشهر يجلس السلطان في ميدان القلعة ويتقدم إليه الخليفة والقضاة الأربعة بالتهنئة، ثم يستعرض كميات الدقيق والخبز والسكر والغنم والبقر المخصصة لصدقات رمضان، يعرضها عليه المحتسب بعد أن يكون قد استعرضها في أنحاء القاهرة تتقدمها الموسيقى، فينعم على المحتسب وعلى كبار رجال الدولة.

سلاطين المماليك اهتموا بالتوسع في البِر والإحسان طوال الشهر المبارك، فالسلطان برقوق اعتاد طوال أيام ملكه أن يذبح في كل يوم من أيام رمضان خمسة وعشرين بقرة يتصدق بلحومها، بالإضافة إلى الخبز والأطعمة على أهل المساجد والروابط والسجون، وسار على سنته من أتى بعده من السلاطين فأكثروا من ذبح الأبقار وتوزيع لحومها، كما رتب سلاطين السلطان بيبرس ذبح خمسة آلاف رأس في كل يوم من أيام شهر رمضان.

تذكر السيد محمود الفترة بعد خروج الفرنساوية من البلاد، عانت خلالها البلاد من اضطرابات وقلاقل كثيرة، وامتنع الناس عن الاحتفال باستطلاع الهلال أو حلول شهر رمضان، أو حتى المولد النبوي الذي تقام له الاحتفالات والزينة، لما كان في

المدينة من دماء وقتلى وأعمال سلب ونهب، كان الكل يختبئ في بيته أغلب الليالي، يغلقون أبواب حاراتهم ويسهر جوارها البعض للحراسة.

في الأعوام القليلة الماضية من بدايات حكم الوالي محمد علي باشا، استحدثت الأواني النحاسية الكبيرة والصواني في صناعة الكنافة التي كان لها موضع مساجلات بين الشعراء قديمًا، كما كان هناك اهتمام بالغ بالقطايف وأنواع الحلوى كافة، وكالعادة تم تحذير الباعة من رفع أسعار الحلوى خلال شهر رمضان وإلا فسيضربون في ساحة القضاء في حال رفعها، وفي حال ارتفاعها ترفع شكوى إلى المحتسب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢-

وقف محمد علي باشا والي مصر، بلحيته البيضاء الكثة، وكرشه الضخم، وهو يضع يديه في حزامه القماشي، الذي يحيط بخصره، شارد النظرات في شرفة القلعة، إلى ما يعدَّه أكثر المناظر روعة وجمالًا، وأحبهم إلى نظره، القاهرة وضواحيها، بمآذنها العالية وقبابها العديدة، بمنازلها ومشربياتها الخشبية، وأشجار النخيل منتشرة بين بيوتها، ومجرى نيلها يخترق سهلًا ناضر الخضرة في ضواحي بولاق ومصر العتيقة والجيزة، والأهرامات الثلاثة يلمحها رغم بعدها شامخة عالية تتحدى الزمان والقِدم الذي طالها، يتابع المواكب السائرة المليئة بالأضواء والأصوات والمفرقعات التي انطلقت احتفالًا بحلول شهر رمضان الكريم، احتفالات مختلفة عما تعود عليها في صباه، في مدينة صغيرة على صخرة فارسية، أسماها الإسكندر المقدوني «جالبسو»، وأبدل اسمها فينيقيو العصر الأوسط إلى «لاكافالا»، وحرفها الأتراك حين آل إليهم حكمُها وجعلوها «قولة».

في تلك البقعة البعيدة عن أراضي مصر والمحروسة، وُلد محمد علي باشا المسعود بن إبراهيم أغا القوللي، والي مصر والسودان وبلاد الحجاز وأطراف شبه الجزيرة العربية واليمن والشام وأعالي العراق وأجزاء من بلاد اليونان.

دارت ذكريات طفولته بعقله، فلم يكن يتوقع محمد علي الطفل الوحيد لأبوين قصف الموت زهرة كل أولادهما في صباهما، فلم يبق لهما إلا هو، وهو يجلس في حجر أمه تقص عليه المنام الذي رأته وهي تحمله في أحشائها، وفسره لها بعض العرافين وأكدوا أنه يبشر بمستقبل عظيم لثمرة بطنها، سوف يأتي يوم ويتحقق له، فيملك الأرض شرقًا وغربًا بجنوده وعتاده وقواته،

يجلس على عرش مصر السَّنِي، ويحكم المحروسة وشعبها والبلاد من حولها، ويسكن قلعتها فوق سفح الجبل.

القلعة هي مقر حكم سلاطين مصر من حينها، المتجه إليها يلاقي مشقة طلوع سفح جبلها الحاد، تقع في الجنوب الشرقي للقاهرة المحروسة، فوق مسطح واسع لربوة صخرية بالقرب من جبل المقطم، أمامها ساحة فسيحة تسمى الرُّميلة يقام بها سوق يتسكع فيه بعض الناس والبعض يلتفون في مجموعات حول مجموعة من الحواة والآلاتية ورواة القصص، شيدها صلاح الدين الأيوبي منذ عام ١١٧٦م، لكن بناءها لم يتم إلا بعد اثنين وثلاثين عامًا، في عهد السلطان الكامل بن العادل، ليكون أول من يسكنها ويتخذها مقرًا للحكم، أبواب القلعة باب الحديد وباب المقطم وباب القلعة والباب الوسطاني، جميعها تم بناؤها باتجاهات مختلفة لتكون منفذ القوات للحماية والسيطرة على مدينتي القاهرة والفسطاط، لم تنته مهمة القلعة على الحماية فقط بل احتوت على أهم المقتنيات الأثرية بالقاهرة التي تم تقسيمها في عدة مناطق مختلفة بها ومنها دار الضرب، وسراي العدل، وقصر الجوهرة، وجامع الناصر محمد بن قلاوون، وبئر يوسف، وقصر الحرم، ومدرسة القلعة الحربية، وثكنات الجيش المصري، ومسجد سليمان باشا الخادم، وسارية الجبل وجامع أحمد كتخدا عزبان، وجامع العزب، ودار صناعة القلعة، وورش باب العزب، كل هذا بجانب ثلاثة عشر برجًا مختلفة وموزعة على جميع أطراف واتجاهات القلعة.

في الضلع الغربي للقلعة، يوجد الباب المدرج وفوقه كتابة تشير إلى بناء هذه القلعة، نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، المجاورة لمحروسة القاهرة التي

جمعت نفعًا وتحسينًا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينًا، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده، الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته، ومعين دولته، قراقوش بن عبد الله الملكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسمائة».

القلعة لها عدة أبواب، باب العزب الذي شهد واحدة من أبشع المذابح التي حدثت على مر التاريخ، هو مدخل القلعة الرئيسي الذي يفضي منها إلى ميدان الرُّميلة، يقود إلى ممر ضيق شديد الميل، نُحت جزء منه في الصخر، ونحتت في بعض الأماكن درجات لتسهيل طلوع ونزول الجمال والخيول، تعلوه أبراج ضخمة.

باب المقطم هو الباب المجاور لبرج المقطم، والباب الوسطاني سمي بذلك لأنه يتوسط الديوانين الكبيرين بالحوش السلطاني، ديوان قايتباي وديوان الغوري، الباب الجديد أنشأه محمد علي بديلًا عن الباب المدرج، لما رأى أن كلًّا من الباب المدرج وباب الإنكشارية لا يصلحان لمرور العربات والمدافع ذات العجل، مهد للباب الجديد طريقًا منحدرة لتسهيل الصعود إلى القلعة والنزول منها، وأخيرًا الباب الداخلي للقلعة المعروف بباب برج القلعة، يفصل بين قلعة الجبل أو المدينة العسكرية المحصنة في الشمال وبين القلعة والمدينة السلطانية في الجنوب.

القلعة بها مسجد بناه السلطان ابن قلاوون في بداية القرن الرابع عشر، لم يعد يستخدم للعبادة، رغم بنائه العظيم، فقد أصبح متداعيًا حتى أن قبته الكبيرة قد هوت منذ فترة بعيدة، فيه أروقة ذات أعمدة تحيط بصحن مربع، في شمال غرب هذا المسجد

أنقاض لقصر قديم يعرف بقصر يوسف أو ديوان يوسف نُسب خطأً إلى يوسف صلاح الدين، لكن السلطان قلاوون هو من بناه على حسب قول المقريزي، يُمكن للواقف من ناحية أنقاض بيت يوسف رؤية القاهرة المحروسة وضواحيها وبيوتها، كما يمكنه من هناك رؤية كثير من القصور والمنازل الفخمة؛ منها قصر إبراهيم باشا على ضفاف النهر بين بولاق ومصر العتيقة، وتكية الدراويش، وجنوب هذه الأبنية يقع فم الخليج وفوقه يبدأ جسر العيون الذي ينقل المياه من النيل إلى القلعة، أما السواقي التي ترفع الماء إلى قناة جسر العيون فمقامة داخل مبنى كبير سداسي الأضلاع يبلغ ارتفاعه تسعة عشر مترًا أو أكثر، وطول الجسر حوالي ثلاثة كيلومترات ويزيد، مبني من الحجر، عبارة عن سلسلة من القناطر الضيقة، يقل ارتفاعها تدريجيًا مع صعود الأرض التدريجي، عندما يصل الماء إلى نهاية مجراه يدخل في قناة تحت الأرض ويرفع من بئر داخل القلعة، محفور في الصخر بعمق ٩٠ مترًا من مستوى أرض القلعة.

لم تكن الحياة هينة أو لينة مع محمد علي، فمنذ طفولته وهو يعاني فقر المعيشة وجفاء الدنيا وتقلباتها، لاقى ويلاتها، وذاق مُر طعمها، صعوده إلى عرش مصر لم يكن بالأمر السهل، فقد لاقى معاناة وخاض معارك، سفك الدماء وعلق الرؤوس على الأبواب من أجل نيلها، حتى نال مراده ووصل إلى ما وصل إليه هنا في القلعة ينظر من نافذتها إلى المحروسة التي تغير شكلها في عهده.

لا يذكر الباشا الوالي الكثير عن طفولته، ولا يعرف حتى في أي الشهور وُلد، لكنه يذكر أنه ولد عام ١٧٦٩، يذكر أمه التي خطفها منه الموت وهو بعد في مقتبل العمر، وهي تحكي له

باستمرار منذ وَعَى عن الحلم الذي رأته، حتى حُفر في قلبه ووعيه منذ الصغر.

والده إبراهيم أغا كان رئيس خفر الطرق، دخلُ وظيفته ضئيلًا، يكاد يكفي معيشته إن حصل عليه كاملًا، فغالبًا ما يحصل عليه منقوصًا شأن أغلب موظفي الدولة العثمانية في تلك الأيام، ربما لو لم يرحمه القدر وحصد الموت أبناءه في صباهم، لماتوا جوعًا في داره من شدة فقره، ولما وجد ما يطعمهم به، فلم يبق له إلا ولدٌ واحد، أولاه كل اهتمامه ورعايته، وتركه يشب على هواه، لم يرسله لنيل حظه من التعليم، ولم يهتم حتى بتلقينه القراءة والكتابة، أو اكتشاف ميوله وتوجيهه نحو تعلم غرض معين يكون له معينًا في شبابه ومصدرَ رزق في مستقبله. لم يمهله القدر كثيرًا، فقد حصد الموت أم محمد علي وهو في أول مراهقته، وقبل أن تجف دموعه أطاح بوالده خارج الحياة، ليمشي وراء نعشي أمه ثم أبيه في فترة قصيرة.

أصبح محمد علي بين عشية وضحاها، يتيمًا وحيدًا، لا عائل له، وأصبحت الدنيا من حوله مقفرة لا يدري لنفسه مصيرًا، عاش في كنف عمه طوسن أغا، فداهمه الموت، كأن الموت أصبح رفيقًا لمحمد علي يصاحبه في سيره، يأخذ كل من يعيش معه، ويجبره على الحياة فردًا، أشفق عليه السيد إسماعيل أغا شوربجي المدينة - حاكمها -، وكان قريبًا له من ناحية أمه، فضمه إلى بيته وآواه تحت سقفه.

في يوم سمع أحد جيرانه بعد وفاة والده، يتحسر عليه قائلًا:

- ماذا عسى أن يكون نصيب هذا الغلام تعيس الحظ من الحياة، بعد أن أفقده الدهر والديه وجعله لا حول له ولا قوة، فقيرًا،

معدمًا، لا علم عنده، ولا صنعة لديه؟!

أثر ذلك في محمد علي أثرًا شديدًا، وأوقد فيه جذوة نار، قال عنها فيما بعد: «إني منذ سمعت ذلك القول، عزمت ذلك الحين عزمًا أكيدًا على تغيير ما بي، وترويض نفسي على امتلاك زمام أهوائي، فقد حدث لي، بعد ذلك، أني استمررت، أحيانًا، على الجري يومين كاملين لا أتناول فيهم من الطعام إلا القليل، ولا أنام إلا اليسير، لأقوى عضلاتي، وأتمرن على خشونة المعيشة، ولم يعد يهدأ لي بال حتى فقت جميع أقراني في جميع التمارين الرياضية، وإني لأذكر سباقًا بالمجداف قمنا به في بحر عجاج متلاطم الأمواج، كان الغرض منه البلوغ بالقوارب إلى جزيرة قريبة من الشاطئ، ما لبث أقراني أن كلوا، وخارت عزائمهم، أما أنا، بالرغم من تسلخ جلد راحتي، وقد كان ما يزال ناعمًا، ما فتئت أجدف، مقاومًا الموج والريح، حتى أدركت جزيرة طشيوز، وهي اليوم ملكي»!

في بيت حاكم المدينة، تعرف محمد على الكثيرين من الناس، كان يجلس معه وهو يقابل ضيوفه، فتعرف على رجل فرنسي اسمه مسيو ليون، كان له محل في المدينة، أُعجب بذكاء الفتى، وانتباهة عقله، فجالسه فترات كثيرة، يحكي له أخبار البلاد، وما يحدث حولهم، أنار له عقله الذي لم يكن يعي من علوم الدنيا شيئًا، فتفتحت بصيرة الفتى، ونما عقله، منحه من خبرته وزوده بالإرشادات والنصائح، وبشره بمستقبل مشرق، أحبه محمد علي وأحب الفرنساوية كلهم لأجله. في بداية شبابه تعرف على شيخ في السبعين من عمره، مشهور بمعرفته عن الأحلام وتفسيرها، وقد كان حلم أمه الذي قصته عليه وهو صغير يتردد كثيرًا على مخيلته، ويوقظ في داخله أحلامًا مستقبلية وآمالًا عريضة،

فحلم في ليلة أنه ظمئ ظمأ شديدًا وشرب ماء النيل كله ولم يرتو، استيقظ يومها بحلق جاف كرجل يسير تحت شمس الصحراء منذ أيام لا يجد ما يروي به عطشه، كان أول ما فعله في الصباح أن ذهب للشيخ وقص عليه منامه، نظر إليه طويلًا في صمت لا يبدو على ملامحه شيء، ثم ابتسم وهمس إليه:

- أبشر يا بني، فإن منامك يعني أنك ستملك وادي النيل بأسره، ولن تكتف به، بل ستسعى إلى امتلاك أقطار غيره.

تعجب محمد علي من التفسير الذي قيل له وسخر منه، واستبعد حدوثه، فما له وما للنيل وواديه، لكنه بالرغم من ذلك أخذت مخيلته تزدحم بالأفكار وأحلامه تتسع.

في أحد الأيام بعد أن أتم الثامنة عشر من عمره، دخل على شوربجي قولة، وقد كان معتادًا على الدخول عليه في مقره، والحديث معه في أمور البلاد وشئونها، والاستماع إلى الأخبار التي ترده من العامة أو من حرسه أحيانًا، أو من بصاصيه أحيانًا أخرى، لاحظ على وجهه علامات تفكير، فسأله في تردد بعد ما لاحظ الاضطراب البادي على قسمات وجهه، أخبره بعد أن زفر من فيهِ زفرة ضيق أن أهالي قرية براوستا - وهي قرية تقع في دائرة حكمه، اتفقوا على رفض دفع أموال الضرائب المفروضة عليهم، ولا يدري ما العمل ولا كيف السبيل إلى ردعهم وقوته العسكرية ليست بالقوية، وأعداد جنوده غير كافية لإجبارهم وإرغامهم على دفع الضرائب عنوة، ظل محمد علي صامتًا بعض الوقت يفكر في طريقة يساعد بها الشوربجي، ويُظهر بها ذكاءه أمامه، ثم قال عارضًا خدماته:

- دعني أتولى الأمر وسأتكفل بإجبار أهل براوستا على دفع ما عليهم من أموال الضرائب، فقط أعطني عشرة رجال مدججين بكامل أسلحتهم.

وافق الشوربجى بعد لحظات غلبته فيها نظرات الثقة والقوة والدهاء في عيني الفتى، وأرسل معه الرجال بعد ما أمرهم بطاعته.

وصل محمد علي إلى براوستا مع جنوده العشرة، دخل مسجدها وسط أهلها، وأدى الصلاة على مرأى منهم وبين صفوفهم، فرغ منها ثم أرسل في طلب أربعة من أعيان القرية، مُدعيًا أنه يحمل رسالة لها أهمية بالغة مكلفٌ بتبليغها، حضر الأربعة أعيان مسرعين متلهفين لمعرفة الرسالة أو الخبر المهم الذي جاء به الفتى الرسول، ما ان عبروا عتبة المسجد حتى انقض محمد علي ورجاله عليهم كبلوهم وشدوا وثاقهم، ارتفع صراخ الأربعة رجال يستغيثون بأهل قريتهم، فتجمع الأهالي مُهتاجين في غضب بعد سماعهم أصوات الاستغاثة، وزاد غضبهم بعد أن رأو أعيانهم مقيدة بالحبال، وقف محمد علي أمام العشرة رجال والأربعة أسرى الموثقين، هدد الأهالي بذبحهم أمام أعينهم على مرأى ومسمع منهم، إذا حاولوا التعرض له ورجاله لإنقاذ أعيانهم، أو إذا استمروا في الامتناع عن دفع الضرائب، سار بالأسرى إلى قولة وسط أهالي براوستا الذي نزل الرعب في قلوبهم وسلمهم لشوربجيها، في اليوم التالي مباشرة حضر بعض من أهالي براوستا يحملون الأموال الضريبية، دفعوها وافتدوا أعيانهم وقدموا اعتذاراتهم.

ارتفعت منزلة محمد علي عند الشوربجي لما رأى فيه من إقدام وعزم وشجاعة ودهاء في تصريف الأمور، فمنحه رتبة بلوك

باشي، وقربه منه أكثر، وزوجه من إحدى قريباته من النساء، وكانت مطلقة وذات ثروة، عاش معها سنوات تخلص فيها من هموم المعيشة المادية وعنائها، عمل بمالها في تجارة التبغ ونجح فيها، زادت الأموال وكبرت تجارته وازدادت أرباحه، أنجب منها ثلاثة أولاد إبراهيم وطوسن وإسماعيل وبنتين، ونسي أحلام صباه وحلم أمه في رغد عيشته الجديدة.

مرت السنوات ومحمد على في عيشة هانئة هادئة، حتى أتى يومٌ وجاء أمر لإسماعيل أغا من الباب العالي في الأستانة، بتجنيد ثلاثمائة رجل، للمشاركة في الحملة المرسلة لإخراج الفرنساوية من مصر، جمعهم الشوربجي بعد جهد، ووضعها تحت قيادة ولده علي أغا، وطلب من محمد علي الانضمام له والسير معه لإخراج الفرنساوية الكفار من مصر.

فرفض.. بل رفض في شدة..!!

حتى أنه خرج من عند إسماعيل أغا يعلن تمرده على طاعة الشوربجي الذي رباه واعتنى به منذ يتمه وتلطمه في هذه الدنيا، نابذًا إياها بعد سنوات قضاها في تقديمها إليه، ترك الشوربجي غاضبًا عليه، وناقمًا، عاد إلى محل تجارته يجلس فيها ويدخن التبغ في توتر، رأى الشيخ الذي فسر له حلمه قديمًا يسير في طريقه المعتاد أمام دكانته فدعاه، وكان معتادًا على الجلوس والتحدث معه، جلسا يدخنان معًا، وعلى وجه محمد علي علامات الضيق، فسأله متفرسًا في ملامحه عما به بعد ما رآه مضطربًا، فأجاب في ضيق وغضب:

- السيد إسماعيل أغا يريد أن يُرسلني إلى مصر لقتال الكفار الفرنساوية الذين دخلوها، فما شأني وشأن الحرب مع

الفرنساوية في بلاد أخرى، أنا لا أريد، الوطن هنا، وهو خير وأبقى، أيضًا أهلي وأولادي وتجارتي هنا، رفاقي الذين كبرت وسطهم، وعيشتي هنا هنيئة، فلم الرحيل والحرب؟!

أجاب الشيخ في جدية وحزم وهو ينفث دخانه:

- أخطأت يا بني، فما قلته لن يصل بك إلى شيء، ربما تعيش هنا وتموت ولا يبقى من سيرتك إلا أبناء وأحفاد يترحمون عليك فترة، ثم ينسونك وينساك التاريخ، إن الطريق لطويلة، ولكنها توصل إلى العُلا.

كلمات موحية ترددت في عقل محمد علي، وأنارت له بصيرته، حتى إنه قال فيما بعد: «إن كلام ذلك الشيخ الذي كنت أثق به وثوقًا كبيرًا أقنعني، فعدت إلى الشوربجي، ووضعت نفسي تحت تصرفه».

وكان للقدر تصاريفه الخاصة، فقد أنهكت الرحلة البحرية والسفر علي أغا بن الشوربجي، فما أن وصل إلى الشواطئ المصرية، حتى تخلى عن فرقته لمحمد علي وعاد إلى بلاده، ورُقي محمد علي وأصبح بمباشيًا.

التحم محمد علي في المعارك ضد الفرنساويين، أطلق الرصاص وطعن بالسيف، ظهرت بسالته في القتال، ودهائه في تنفيذ معاركه، عُرف اسمه بين قيادته، تقرب من الرؤساء لينال الرضا والتقدم، ذات مرة طلب من حسن أغا أحد الضباط الأخصاء عند القبطان باشا أن يتوسط له عنده، فألحقه القبطان باشا بخدمة خسرو باشا الذي كان قد تعين واليًا على القطر المصري حينها، وأوصاه به، في أقل من سنتين، ظهر ولمع اسمه بين أقرانه، ارتقى في الجيش إلى رتبة قبي بلوك باشى أي رئيس حرس

السراي، أَعجب به خسرو باشا وقربه إليه أكثر، وأهداه يومًا فرسًا من أربعة جياد كانت قد أُهديت إليه، ورفعه إلى رتبة ساري ششمة - أي جنرال.

كانت أمور البلد حينها في فوضى عارمة، فالإنجليز ما زالوا موجودين بقواتهم، مترددون ما بين البقاء والرحيل، وبين مساندة الباب العالي ضد المماليك، أو مناصرة المماليك على الباب العالي، والعثمانيون رغم الصراع الذي كان بين يوسف باشا الصدر الأعظم وقجك حسين باشا أمير البحر، الذي استخدم نفوذه وجعل الباب العالي يولي خسرو باشا - التابع له - ولاية مصر، وكانت لديهما أوامرهما بالقضاء على المماليك بعد أن غادر الفرنساويين أرض المحروسة، ما زالوا يريدون السيطرة الكاملة على مصر واستقرار تبعيتها لهم، أما المماليك بعد هزائمهم المتتالية أمام القوات الفرنسية، كادوا أن يفنوا، أصبحت أعدادهم لا تزيد عن خمسة الآف مملوك، والباب العالي حال بينهم وبين تجنيد مماليك جدد بعد أن حظر بيع الشباب في إقليمي الكرج والشركس، وانقسموا فيما بينهم بين أتباع عثمان بك البرديسي وأتباع محمد بك الألفي، اللذان نزعا إلى المنافسة والعداء الذي صار صريحًا بينهما.

ظل محمد علي في موقعه، بعيدًا عن كل الأطراف، يتابع كل الأمور بعقلٍ واعٍ، يجمع أطراف الصراعات كلها أمامه، يقيس نسب خطورة وأهمية الأشخاص، يدرس شخصياتهم وينتبه إلى تصرفاتهم، أدرك من اللحظة الأولى أن الدولة العثمانية محقة في القضاء على المماليك، فهم سبب ضعف المحروسة وضياع البلاد من قبل، وبقاؤهم في السلطة معناه استمرار ضعف البلاد وضياعها من جديد أمر محتمل، فالبرديسي يفتقر إلى الحكمة

ويترك تقدير الأمور إلى انفعالاته وأهوائه، ويتطير بأقل الأشياء التي يسمعها أو تحدث أمامه، والألفي شديد الغرور بنفسه، يجري وراء شهواته وملذاته، يطارد النساء خصوصًا البدويات منهن أينما ذهب، يتزوج المرأة منهن ثم يتركها بعد أيام، لا يهمه إلا نعيمه وعيشته الرغدة والتنعم بأموال البلاد وخيراتها، لكن خسرو باشا أيضًا غير جدير بحكم القطر المصري، فهو رجل دموي يسيء تقدير الأمور وتدبيرها، صبر محمد علي وانتظر في تبعيته لخسرو، حتى اجتاح المماليك دلتا مصر ومنعوا الأموال عن الحكومة، بعد أن انكشف لهم المخطط وتبينت لهم نية الباب العالي المبيتة ضدهم، استغل خسرو باشا الصراع القائم بين البرديسي والألفي، وحرك لقتالهما فرقتين من الجند، إحداهما تحت قيادة يوسف بك أحد المقربين إليه، والأخرى تحت قيادة محمد علي، سارت الفرقتان ناحية دمنهور؛ حيث اتخذها ثمانمائة مملوك تحت قيادة عثمان بك البرديسي موقعًا حصينًا يهددون منه المحروسة، ويتمكنون فيه في نفس الوقت من الاتصال بالإنجليز الذي ما زالت جيوشهم موجودة في الإسكندرية لم تغادر بعد، تباطأ محمد علي عن عمد في سيره بقواته، كي يترك يوسف بك يسبقه بجنوده التي تزيد عن السبعة آلاف جندي، ويلتحم مع المماليك في معركة دامية.

كلفت المعركة يوسف بك أكثر من خمسة آلاف جندي، وكاد أن يفقد حياته فيها، لكنه نجا بنفسه بالكاد، بعد أن إنقض فرسان البرديسي على جانب قواته من ناحية اليسار واخترقوهم، وداسوا الجنود تحت حوافر جيادهم وأعملوا فيهم السيوف طعنًا وهم يفرون أمامهم مذعورين.

عاد يوسف بك يجر بقايا أشلاء جنوده، وألقى أمام خسرو باشا اللوم في خسارته على محمد علي، فأوقد في نفسه الغضب تجاهه، دخل عليه في مقر الحكم ساخطًا وقد تملكة الغضب والغيظ قائلًا:

- لقد باعنا محمد علي وتركنا لقمة سائغة لخصومنا، وتركني أواجه القتل والقتال وحدي مع جنودي، أقطع كامل ذراعي أن محمد علي تأخر عن المواجهة عن عمد.

شعر خسرو باشا مع استمرار وسوسة يوسف بك والمحيطين به في أذنه، أن محمد علي يضمر شيئًا ما في نفسه ضده، بل ربما يكون بلغ به الطيش ويكون طامعًا في خلعه من حكم الولاية والاستيلاء عليها، فأرسل يستدعيه في يوم بعد صلاة العشاء بعد عودتهم بأيام، بعد أن أوغل المحيطون به زرع الشر في قلبه ورَيِّه حتى أنبتت ثمراته وأينعت زهوره، ادعى أنه يريد المناقشة معه في بعض الأمور وكان قد بيت له نية الإيقاع به والتخلص منه، لم ينطل الفخ المنصوب على محمد علي الذي عرف وفهم من البدايات كيف تُحاك الدسائس من قِبل المماليك، وكيف يتم الإيقاع بالرجال والتخلص منهم، فأرسل الرد مع أحدهم بأنه سيأتي لمقابلة الوالي نهار اليوم التالي وسط جنوده.

في تلك الأثناء انضم البرديسي إلى مماليك إبراهيم باشا الكبير في الصعيد، بعد رحيل الإنجليز عن الإسكندرية ورحيل الألفي معهم عن البلاد، واستولوا معًا على المنيا وقطعوا الاتصال بين المحروسة والصعيد، وصل خورشيد باشا نبأ استيلائهم على المنيا فأحس أنه وقع بين شقي الرحى، ما بين شكه في محمد علي وبين احتياجه له، أصيب بحيرة شديدة، لكن رغبته في التخلص من سيطرة المماليك على الوجه القبلي اضطرته أن يطلب من

محمد علي التحرك بعساكره مع قائد آخر يدعى طاهر باشا ناحية المنيا، محمد علي لما أحس بالمكيدة التي دبرها خسرو باشا من قبل للتخلص منه، بدأ هو أيضًا في التخطيط بل والتنفيذ لمكيدة يزيح بها خسرو باشا من كرسيه، أو على الأقل يؤرقه في مضجعه، قَلَّب العساكر في الخفاء على خسرو باشا، فتمردوا وامتنعوا عن الزحف إلا بعد حصولهم على مستحقاتهم المالية، أحالهم خسرو باشا إلى الدفتردار الذي أحالهم بدوره إلى محمد علي، فأخبرهم أنه لم يصله شيء من المال لصرف مرتباتهم، غضب الجنود وحاصروا بيت الدفتردار مطالبين بمستحقاتهم، بلغ الخبر خسرو باشا فأصابه غضب جامح أعماه عن اتخاذ القرار المناسب، وأمر بإطلاق المدافع من القلعة صوب الجنود، فازداد غضبهم وهاجموا سراي الوالي.

لم يكن هذا كل مخطط محمد علي، فهو يلعب على كل أطراف الخيوط المتاحة أمامه، ولا يترك حجرًا أمامه إلا قلبه، فأوحى إلى طاهر باشا في أحد جلساتهما أن يتوسط للجنود عند خسرو باشا، مُبديًا قلقه على الطرفين، ورغبته في حل التوتر والاضطراب الحاصل في صفوف الجنود والقلعة، وهو يعلم أن غضب وسخط خسرو باشا سيمنعه من تقدير الأمور بحِكمة، وبالفعل رفض خسرو مقابلة طاهر باشا الذي أحس بالتعمد في إهانته برفض مقابلته، فانحاز لصف الجنود ضده، وسار مع فرقة من العساكر إلى القلعة.

أُغلقت الأبواب في وجههم، لكنه نجح بفضل بعض جنوده من العبور داخل سورها الأول، وانضم لهم بعض الحرس هناك بعد أن نجح في استمالتهم معه ضد الوالي. شعر الخازندار المتولي حراسة خسرو باشا أنه لم يعد بمقدوره المقاومة أكثر من ذلك،

بعد انقلاب بعض الحرس التابع له ضدهم، فأمر بفتح أبواب القلعة أمام طاهر باشا وعساكره، تقدم طاهر باشا للداخل وسط عساكره وأطلقوا القنابل من القلعة على سراي الوالي، الذي جمع حرسه النوبي ومائة جندي عثماني تابعين له مع نسائه، وفرَّ تجاه المنصورة، بعد أن أيقن أنه سقط بعد سقوط القلعة في أيدي المتمردين، ونادى قاضي الديار طاهر باشا قائمقام الولاية، حتى تصل إليهم أوامر من الأستانة، طاهر باشا لم يكن في نواياه خوض معارك، ولا قتل، وربما لم يكن في الأصل طامحًا في سلطة أو منصب، بعث طاهر باشا رسولًا إلى المماليك في المنيا واستدعاهم للتفاوض بشأن الصلح، فنزلوا وتصالح معهم وأقاموا معسكرهم في الجيزة، وأرسل من يطارد خسرو باشا الذي هرب مبتعدًا حتى لجأ إلى دمياط.

الوالي الجديد كان رجلًا يميل إلى الدراويش والمجاذيب، أنشأ لنفسه خلوة في الشيخونية، يبيت فيها معظم لياليه، يذاكر فيها طوال الليل مع الشيخ عبدالله الكردي على سطحها، وكثيرًا ما كان يذاكر مع أُناس آخرين من مختلفي الصور والهيئات، كانوا يلبسون الطراطير والمرقعات، ويعلقون جلاجل، وبهرجانات، وعصيًا مصبوغة، فيها شخاشيخ وشراشيب، ويدقون على الطبل ويتمايلون برؤوسهم معها طوال الليل، اتَّبعهم كثيرٌ من الناس حتى أن الجبرتي قال عنه: «لو طال عمر طاهر باشا هذا لأهلك الحرث والنسل»، فقد كادت المحروسة أن تصبح مكانًا للمجاذيب والدراويش.

كما أن طاهر باشا ماطل الجنود في صرف مرتباتهم، ثم أخبرهم أنه غير مسئول عنها إلا منذ توليه مقاليد الأمور فقط، وما سبقه لا شأن له به.

لم يقتنع الجنود بقوله وزاد عصيانهم وتمردهم، توجه إليه ضابطان عثمانيان في سراياه، فرفض النظر مرة أخرى في صرف المرتبات، وأصر على رأيه الذي أبلغهم به من قبل، احتد في الكلام وعلت تهديداته بالقضاء عليهم والتخلص من المجموعات التي تتمرد وتريد أن تنقلب عليه، فطعناه الضابطان بيطقاناتهما (خنجرهما)، ثم قطعا رأسه وألقوها من النافذة التي كان يجلس جوارها، سقطت الرأس والدم يسيل منها ساخنًا بين الجنود الألبانية، فانتابهم غضب شديد جمح بعقولهم بعد رؤيتهم رأس قائدهم مقطوعة وملقاة أمامهم، اشتبك الطرفان ودارت معركة حامية بين الألبانيين والعثمانيين، جرت فيها الدماء بينهما أنهارًا وأغرقت الأرض، وانتهت المعركة باشتعال النيران في السرايا بحريق هائل.

بعد مقتل طاهر باشا انضم جنوده إلى قوات محمد علي، فزادت قوته وقويت شوكته بين الفرق، ومع اعتداله في التصرف في الأمور، مال إليه الناس والجنود من العثمانيين والألبانيين، عرض عليه زعماء العثمانيين تولية رجلٍ كان مارًا بالقطر المصري في طريقه إلى جدة يسمى أحمد باشا، فرفض، وأبرم اتفاقًا مع البرديسي الذي يعسكر في الجيزة، وأرسلوا رسالة إلى أحمد باشا يأمرونه بمغادرة القطر كله، وافق الرجل على مطلبهم، مقابل أن يمدوه بما يُمَكنه من السفر إلى جدة، وتحصن مع جماعته في حصن سولكفسكي الذي كان مسجد الظاهر قبل الحملة الفرنسية، وصلت الأخبار إلى خسرو باشا في دمياط بالثورة الواقعة ضد طاهر باشا متأخرة، فغادر مكمنه وسار إلى القاهرة، وبينما هو في الطريق أرسل المتحالفون - محمد علي والبرديسي- ألفي جندي ألباني اقتحموا الحصن

وسيطروا عليه، وأخذوا أحمد باشا أسيرًا، وألقوا به في السجن، فارتد خسرو باشا متراجعًا بعد ما علم بالأنباء، وعاد إلى مخبئه الذي لم يهنأ فيه كثيرًا، بعد أن أرسل إليه محمد علي والبرديسي عشرة الآف مقاتل استولوا على دمياط، نجح في الهرب مع بعض عساكره وجنوده، قبل أن يصل إليه جنود الحلفاء، وتحصن بأحد الحصون على مصب النيل، لكن لم يصمد طويلًا أمام هذا العدد من الجنود، ووقع في الأسر وأعيد إلى القاهرة وأقاموا عليه حارسًا.

انتبه محمد علي باشا من ذكرياته التي شرد وسبح فيها، وأفاق على صوت فتح الباب بعد الدق عليه مرات عدة، ودخول أحد الحراس يخبره أن المشايخ وكبار المسئولين وكبارات البلد قدموا ليقدموا التهاني بحلول شهر رمضان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣-

لما أُطلق المدفع من القلعة معلنًا نهاية صوم أول أيام رمضان، لم يكن هناك صوت يضاهي روعه النداء للصلاة من المآذن العديدة، فساكنو المحروسة باستطاعتهم سماع وقع ما يقرب من مائة صوت رخيم في وفاق تام وقور للمؤذنين على المدائن بين السماء والأرض، ينادون البشر لعبادة رب الكون، حتى إن الأقباط كانوا يشعرون بمسحة دينية تتنزل عليهم مع ذلك الصوت الذي يدفع المرء للخشوع، فكان البعض منهم يهمس بصلاة صامتة ترتفع إلى الملكوت الأعلى طالبة الرحمه والهداية للمسيحيين الأوربيين المقيمين بينهم الذين يسيئون بتصرفاتهم واستهتارهم إلى سمعتهم أمام المسلمين.

التف السيد محمود الورداني مع زوجته السيدة مريم وأبناؤهما، حول طبلية عليها ما أعدته ربة البيت من إفطار من الأشياء المقدسة التي لا يتخلى عنها السيد محمود أبدًا أول يوم، البطة المحمرة وجوارها طبق الملوخية التي انتشرت في المحروسة بعد أن كانت محرمة على العامة قديمًا بأمر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. تساءلت هند بعد أن رج صوت المدفع البيت قائلة:

- لماذا يطلقون هذا المدفع قبل المغرب؟

رد حسن متعجبًا من السؤال وفمه مملوء بالطعام:

- مدفع الإفطار لماذا يطلقونه في غير موعد الإفطار؟!!

نطق الأب في حزم:

- لا تتحدث وفمك مملوء بالطعام.

ثم التفت إلى هند وهو يفسخ البطة بأصابعه وصوت قفصها يطقطق أن حان موعد التهامها قائلًا:

- القاهرة كانت أول مدينة ينطلق فيها مدفع رمضان، ذات يوم عند غروب أول يوم من رمضان، أراد السلطان المملوكي خشقدم أن يجرب مدفعًا جديدًا وصل إليه، وقد صادف إطلاق المدفع وقت المغرب بالضبط، فظن الناس أن السلطان تعمد إطلاق المدفع لتنبيه الصائمين إلى أن موعد الإفطار قد حان، فخرجت جموع الأهالي إلى مقر الحاكم تشكر السلطان على هذه البدعة الحسنة التي استحدثها، وعندما رأى السلطان سرورهم، قرر المضي في إطلاق المدفع كل يوم إيذانًا بالإفطار، ومع الوقت بدأ الناس في إطلاق المدفع قبل الفجر أيضًا إيذانًا بالامتناع عن الطعام.

تناول علي نصيبه من البطة وهو يتحدث:

- صوت المدفع يعطي طعمًا لهذا الشهر فبدونه لا يكون هناك صيام.

نطقت مريم في حزم:

- يكفي كلام أثناء الطعام، دعوا الحكايات والحواديت لوقتها.

امتنع الثلاثة عن الحديث، وانهمكوا جميعًا في تناول الطعام، نهضت هند تجري تعلن وهي ترفع يديها الاثنتين لأعلى كجندي يُسلم نفسه لأعدائه، أنها اكتفت من الطعام، وأسرعت تحضر القطائف التي أعدتها أمها تتناول منها في لهفة، والسيد محمود يبتسم فرحًا بها.

في فترة طفولة السيد محمود قام الفرنسيون في فتره إقامتهم واحتلالهم البلاد بمحاولات عدة لتطوير المحروسة، التي اتخذوا

منها مركزًا لقيادة حملتهم بحيث تتناسب مع احتياجاتهم من ناحية وليحكموا عليها السيطرة من ناحية أخرى، فقد أحدثوا تعديلات عدة على تخطيطها العمرانى في بداية دخولهم للقاهرة، فهدموا جوامع عدة ومباني في بركة الأزبكية لتوسيع الطرقات، سدوا القنطرة هناك ومنعوا دخول الماء إلى بركة الأزبكية وقت الفيضان لتجفيف البركة وجعلها ميدانًا وأماكن للجيش ومعداته، ولتكون إلى جانب مقر القيادة ببيت الألفي المطل على البركة، أدى هذا إلى رشح المياه في أرض البركة وسقوط بوابة النصب التذكاري التي بنوها للاحتفال بأعيادهم الوطنية.

طردوا ما تبقى من سكان بركة الأزبكية حتى يسكن قادتهم في بيوتهم، ويجتمع الفرنسيون في السكن بمكان واحد، كما ردموا عدة جهات من البركة، ثم هدموا المباني المحيطة ببيت الألفي الذي سكنه نابليون وأنشأوا ميدانًا متسعًا، فأصبح هناك طريق ممتدٌ من بولاق إلى النيل عند موردة التبن في خط مستقيم، حفروا هناك على جانبيه خندقين وغرسوا حوله الأشجار، وهدموا المباني ناحية جامع المقس وجعلوا الأرض مستوية إلى الأزبكية إلى قرافة المماليك، وحولوا جامع الظاهر بيبرس الذي يقع في المنتصف إلى قلعة، واتخذوا من مئذنته برجًا، وبنوا بداخله مسكنًا لاقامة الجنود.

كما منعوا الدفن في المقابر القريبة من المساكن كمقابر الأزبكية والرويعي خوفًا من انتشار الطاعون، لكن كان سببهم الحقيقي هو استخدام هذه الأرض في إعاد تخطيط الأزبكية، فقاموا بتدمير مقابرها وتمهيد الأرض، لكنهم توقفوا لثورة الأهالي وأصحاب المقابر، ولم يَسلم الأقباط من أذاهم، فبعد أن عينوا يعقوب القبطي ساري عسكر القبطة، قام بهدم الأماكن

المجاورة لبيته بحارة النصارى بالدرب الواسع جهة الرويعي خلف الجامع الأحمر، وبنى قلعة لها سورٌ عالٍ وأبراجٌ وبابٌ كبيرٌ، وبنى أبراجًا أخرى بظاهر الحارة من جهة الأزبكية.

بهذا كونوا شبكة من الطرق المتسعة عن ذي قبل تربط منطقه الأزبكية مقر القيادة بغرب القاهرة حيث الميناء النهري ببولاق وبشمالها الشرقي حيث الطريق إلى شرق الدلتا والشام، وبشرق القاهرة حيث مركز المدينة القديمة ومنبع الثورات الشعبية التي أعاقت مشروعاتهم التي بدأوها مع المحاولات المستمرة من الدولة العثمانية وبريطانيا لطردهم من مصر، كما أنهم تدخلوا لتغيير معالم القاهرة رغم شعورهم بنفور أهالي المحروسة منهم، فأمروا سائر حكام الخُطط بخلع الأبواب المركبة على الدُروب والعُطف والحارات، حتى من على الدروب غير النافذة بالقاهرة وضواحيها، فخلعت وجُمعت عند رصيف الخشاب على بركة الأزبكية وأُحرقت.

تغير شكل المحروسة مرة أخرى في السنوات التي تلت خروج الفرنساوية، فقد أعاد المصريون من أهالي المحروسة وغيرها ما هدمته الحملة، وما تخرب أثناء حرب العثمانيين وحلفائهم من الإنجليز من جهة، والفرنسيين من جهة أخرى، وأثناء الاضطرابات التي حدثت في المحروسة من صراعات بين المماليك والجنود الأرناؤوط والألبان.

في البداية جددوا المباني التي خُربت وشرعوا في إعادة تعمير الدُّور التي خربها الفرنساوية، واعتمدوا في كلفتها على الدور والحوانيت والرِّبَاع والوكالات، وأحدثوا على الشوارع السالكة دروبًا كثيرة لم تكن موجودة قبل ذلك، وكطبيعة الحال بين أهالي مصر والمحروسة قام أهالي الأخطاط بتقليد بعضهم في

كل شيء، فأقاموا في الخطة الواحدة دربين وأحيانًا ثلاثة، وأنشأوا بدنات وأكتافًا من أحجار منحوتة وبوابات عظيمة، لزم لبعضها هدم حوانيت اشتروها من أصحابها، وتكفل بأثمانها أهل الخُطة.

حي الموسكي ممتلئ بالكثير من المساجد الأثرية ذات التاريخ العريق والكنائس ذات الطراز الفريد والمعابد اليهودية، ومن المساجد الأثرية مسجد العزباني ومسجد الرويعي والجامع الأحمر وجامع البكري والكنائس المسيحية، ولكل مذهب نجد كنيسة، كنيسة الأقباط الأرثوذكس وكنيسة الأرمن الجرجوري وكنيسة الإفرنج الكاثوليك وكنيسة الأرمن الكاثوليك، ومن المعابد نجد المعبد اليهودى القابع في الشارع شمال ميدان العتبة الخضراء والذي يخترق حي باب الشعرية متوسطًا المسافة بينه وبين شارع الموسكي.

يبدأ شارع الرويعي من أول شارع البكريَّة، وينتهي عند شارع وش البركة، ويبلُغ طوله 140 مترًا تقريبًا، ويقع في أوله جامع الرويعي بالقرب من جامع البكري، والذي أنشأه السيد أحمد الرويعي شهبندر التُّجار في مصر بالقرن التاسع، وبداخلِه صهريج وفي مقابلته مدفن الرويعي، فهو يبدأ من جهة الجبل شرقي القاهرة.

شارع الرويعي ذُكر أكثر من ثلاثمائة مرة في كتب الجبرتي، ففي أيام الحملة الفرنسية كان قادة الحملة يسكنون في منطقة الأزبكية، بينما هناك حيث الأزهر والمنطقة الفاطمية ومن خلفها المقطم وأماكن أخرى يكمن مصدر الخطر والإزعاج على الحملة الفرنسية وجيشها، يخرج من نواحيهم الثوار ضد الحملة وأحيانًا بعض فلول المماليك؛ لذلك وجب على الحملة الفرنسية

أن تتحرك وكان طريقها هو شارع الرويعي، حيث سُفكت الدماء أنهارًا.

من بين البيوت العامرة بأهلها وناسها في حي الرويعي، بيت السيد محمود الورداني الحداد، والحداد نسبة إلى أنه يعمل حدادًا في دكانته الخاصة في حى النحاسين - في نهاية شارع المعز لدين الله الفاطمي- الذي سمي هكذا لأن تجار النحاس منذ العصر الفاطمي كانوا يتمركزون فيه لبيع وتصنيع أواني المطبخ، والنجف، وقِدر الفول، وصواني الطعام، وأباريق المياه، ومستلزمات المقاهي، والكثير من قطع الديكور المتنوعة ذات الاستخدامات المتعددة في القصور، والبيوت، ودور العبادة. يعود تاريخه إلى عام 969، أي منذ إنشاء القاهرة الفاطمية التي يحدها باب النصر وباب الفتوح شمالًا، وشارع باب الوزير نجم الدين محمد قلاوون جنوبًا، وشارع الدراسة وأسوار القاهرة شرقًا.

حرفة الحدادة التي ورثها السيد محمود عن أبيه، قليلة الانتشار في المحروسة وفي مصر كلها، وذلك لقلة الفحم، كما أن المصريين كانوا يستخدمون الأقفال الخشبية التي صنعت بعناية فائقة.

السيد محمود الورداني كان معلمًا في مهنته، ملمًّا بدقائق الحرفة، لديه عدد من الصبية، يُعرفهم ويعلمهم أصول المهنة وأسرارها، ولم تكن الأمور بين المعلمين تُترك سبهللًا، فكان لكل معلم عدد من الصبية محدود لا يمكنه التجاوز عنه، ولا يمكن لصبي منهم أن يترك عمله إلا بإذن معلمه الخاص، ولو حدث خلاف بين الصبي ومعلمه لأسباب مادية أو خلافها، فإن شيخ

الحرفة يتدخل ويصلح بينهما ويفض الخلاف أو يُلحق الصبي بخدمة معلم آخر.

وشيخ الحرفة هو الذي ينتخبه المعلمون من بينهم ليكون شيخ الطائفة، لكن العملية الانتخابية كانت صورية بالطبع، فقد كانت وراثية في الواقع داخل نطاق أسرة معينة، ولم يحدث إطلاقًا أن انتُخب الشيخ حسب أغلبيه الأصوات، وإن حدث خلاف بين الرؤساء ولم يتفقوا معًا على اسم ليكون شيخًا للطائفة، يقوم شيخ المشايخ بتعيين أحد الأسماء المرشحة، ثم يقام احتفال لتأكيده، يحلف فيه الشيخ يمينًا، ثم ينتخب من بعد شيخ الطائفة الجاويش ليقوم بدور مندوب الشيخ ومبعوثه، ولكن لم تكن له أي سلطه قضائية.

السيدمحمود الورداني يساعده عامل واحد في الورشة خلاف الصِّبية واسمه طاهر، يبدو على ملامحه البؤس إلى حد ما، دائمًا ما يرتدي قميصًا أزرق اللون من الصوف ويحزمه بحبل عند وسطه لا يُغيرهم أبدًا، يغطي رأسه بلبدة بيضاء أو تبدو أنها كانت بيضاء في يوم ما، لم يكن متزوجًا ولم يكن ليقدر لأن دخله يكاد يكفي معيشته.

على غير العادة لم يسكن السيد محمود الورداني حي النحاسين جوار عمله، بل اتخذ بيتًا في الرويعي بناه لنفسه، استخدم بنائين أقاموه من الطوب الأحمر والطوب اللبن، لكنهم أحيانًا ما كانوا يستخدمون أحجار النحت والمصيص في البناء، أغلب البيوت في تلك الفترة لم تكن لها نفس متانة أو إتقان المباني التي شيدت في عهد قدماء المصريين، فكانت البيوت تبنى من مواد رديئة النوع، ودبش صغير، ويدخلون في تسميك الجدران حوائط

خشبية لتمكينها، لتمنع أجزاء الجدران من التلاحم والتراكن وتأليف كتلة واحدة.

أما السقف فالمسئولون عن بنائه مختصون لا يمارسون سوى هذه الصنعة، وطريقتهم في ذلك أنهم كانوا يربطون عروق السقف الخشبية بالبوص منضمًا بعضه فوق بعض ثم يفرشون عليه طبقة حصيرة من المونة، فتزين الأسقف وتعطي جوًا رطبًا.

النوافذ والمشربيات اختصاص خراطي الأخشاب القاطنين في حي الشعراوي؛ حيث يستخدمون قوسًا يحركونه بيد وباليد الأخرى الآلة القاطعة على الشيء الذي يريدون تشكيله.

البيت كان متسعًا له باب كبير ذو ضلفتين ضخمتين من الخشب، به حوش داخلي مفتوح للسماء مباشرة تدخل منه الشمس لتنير البيت وغرفِهِ.

غُرفة الجلوس متسعة بها أريكة عريضة عليها وسادات مربعة مغطاة بقماش مُقلم خيطته بنفسها سيدة الدار، جوارها ثلاث كراسي عليها نفس النوعية من الوسائد والغطاء، بينهم منضدة خشبية منقوشة، ومزخرفة زخرفة عربية، باب غرفة الجلوس مطل على الحوش في مواجهة باب الدخول، وهي نفسها غرفة الطعام كذلك، ففي أحد جانبيها طبلية كبيرة الحجم حولها بعض الوسائد للاتكاء والجلوس، موضوع عليها دائمًا إبريق الماء وكوبان من النحاس على صينية نحاسية بنفسجية اللون، هناك حجرة أخرى كبيره مُعدة كمندرة يدخلها الضيوف الزائرون من الرجال مباشرة، فلا يستطيعون الاطلاع على نساء الدار في دخولهم أو أثناء جلوسهم فيها، ثلاثة أرباع المندرة مرتفعة بعدة

سنتيمترات، الجزء المنخفض مرصوف بالرخام، يُترك فيه الخف فيظل الجزء الأعلى المغطى بالسجاد والحصير طاهرًا، جوارها غرفتان أخريان أيضًا للضيوف، إذا ما قرروا المبيت عندهم، وذلك كان أمرٌ نادرَ الحدوث، فاستخدمت السيدة مريم إحداهما لتُخزن فيها أجولة الدقيق والقمح والغلة وخلافه من احتياجات البيت.

بالدور الأرضي فرن على يمين الداخل إلى البيت، جواره مجور متوسط الحجم مصنوع من الفخار، يُعجن فيه العجين الخاص بخبيز الدار من عيش، وقُرَصْ، أو حتى كحك العيد، الذي هو من مظاهر الفرح والاحتفال تعده السيدة مريم زوجة السيد محمود الورداني على أشكال دائرية تقدِّمها لضيوفهم في العيد، أو في قوالب منقوشة عليها «كل واشكر» كما كان يحدث أيام الدولة الطولونية، وهي خارجة به لزيارة الموتى في القبور، هناك نملية متوسطة الحجم، تستند إلى جدار البيت جوار الفرن ممتلئة بالأواني النحاسية والأباريق والأكواب، تلك المنطقة هي مطبخ السيدة مريم.

البيت له دور علوى بسلم خشبي على يسار باب البيت يسمى مدخل الحريم، بالدور العلوي غرفة النوم الخاصة بالسيد محمود الورداني وزوجته، وغرف نوم أبنائهما، علي وحسن في غرفة واحدة كبيرة، وغرفه أخرى لهند التي لم تتجاوز الخامسة من عمرها بعد، لكنها تخشى النوم بمفردها في الغرفة، وتصر على النوم مع والديها رافضة كل محاولات أمها أن تنام بمفردها في غرفتها. من أجل ذلك نَوَتْ الأم أن تُأَخيها بأختٍ جديدة، فحملت آملة في أن يرزقها الله ببنت أخرى. هناك مساحة

مفتوحة بالدور العلوى بها أريكة عريضة تعلوها مشربية تطل على الشارع الكائن أمام الباب.

«علي» الأخ الأكبر في الثانية عشرة من عمره، بدأ زغب الشنب يظهر أعلى شفتيه، مع بوادر رجولة مخلوطة بالمراهقة، يحاول أن يفرض سيطرته على أخويه خصوصًا حسن الأصغر منه مباشرة، وهو في التاسعة من عمره، أما هند فهي شديده التعلق بأخيها الأكبر، تنصاع لأوامره وطلباته بحب دون نقاش، رغم أنها كانت دائمة التشاجر والمناحرة مع أخيها الأوسط حسن، لا تنفذ له طلبًا أو أمرًا إلا إذا طلب عليٌّ منها ذلك.

حسن كان يحاول التمرد دائمًا على هذا الوضع، يداوم على محاولات التملص من سلطة أخيه الأكبر ومحاولات فرض السيطرة على أخته الصغرى، لكن المحاولات كلها تبوء بالفشل، ليس لعجزِهِ عن التمرد على سيطرة أخيه، لكن لأنه كان يحب مصاحبته دائمًا، ولا يبتعد عنه، مُفاضلًا ومُفضلًا إياه عن مرافقة من هم في نفس سنه، أما أخته يفشل معها لأنها نجحت في تمردها على محاولاته الدائمة في السيطرة عليها.

هند رغم أنها فتاة صغيرة لكنها على غير عادة من هم في نفس عمرها، تخرج للشارع لتلعب مع أخويها الذكرين، وتسعد حين ترافقهما مع صاحبهم وجارهم أبانوب في لعبهم بعيدًا عن البيت، أو مصاحبتهم في الفرجة على القرداتي بتأديتة ألعاب القرد والحمار والكلب والجدي، تضحك في سعادة وتصفق بيديها حين ترى القرد يلبس بطريقة فُكاهية كالعروس، أو في هيئة امرأة محجبة، يضعه القُرداتي فوق الحمار، ويستعرضه داخل حلقة من المشاهدين، يدق الدف ويرقص القرد مع دقاته المتناغمة ويؤدي الأفعال المضحكة، وذات مرة حين طلب

القرداتي من القرد أن يختار أجمل فتاة في الحلقة، اختارها، ووضع أنفه في اتجاه وجهها فاحتضنته وحملته دون خوف رغم فزع أخويها وأبانوب وابتعادهم عنها فور اقترابه منها، أما الكلب فكان يمتثل لأوامر صاحبه ويقلد حركاته بالزحف على بطنه.

أكثر الألعاب مرحًا لها تلك التي يؤديها الجدي حيث يقف أثناءها على قطعة صغيرة من الخشب على شكل صندوق وتكون أقدامه الأربعة متقاربة، ترفع قطعة الخشب هذه والجدي واقف عليها في اتزان، ثم توضع قطعة مماثلة تحتها، وبالطريقة نفسها تضاف قطعة ثالتة ورابعة وخامسة، وبعد أن ينتهوا من الفرجة على الألعاب يدفعون لهم مع باقي المتفرجين، الذين يدفعون كلٌّ على قدر استطاعته.

صديقهم أبانوب طفل وحيد لوالديه، السيد إبراهيم مرقص، والسيدة إليصابات، التي سميت بهذا الاسم تيمنًا باليصابات زوجة زكريا، وأم يوحنا المعمدان يحيى بن زكريا، التي حسب التقاليد الكنسيَّة هي أيضًا ابنة خالة مريم العذراء. إليصابات اسم لم تعتاده الآذان فكانت دائمًا تُسأل عن معناه فتشرح أنه الصيغة اليونانية لاسم لفظة في اللغة العبرية إليشيبا أو اليشبع ومعناه المكرسة للرب، وهو اسم امرأة تقية من سبط لاوى ومن بيت هارون.

أمها هي التي أطلقت عليها هذا الاسم كما فعلت جدتها مع أمها، التي سُميت بفيرينا تيمنًا بالقديسة فيرينا، التي نشأت في مدينة جراجوس بالقرب من مدينة طيبة قديمًا - الأقصر - ويعني باللغة القبطية الثمرة أو البذرة الطيبة؛ لذلك أصرت إليصابات على تسمية ابنها تيمنًا باسم أحد القديسين بعد أن توفي لها

ثلاثة أولاد من قبل بعد مرض ومعاناة، فكان اسم أبانوب، الذي هو أحد قديسي الكنيسة القبطية الأرثوذوكسية.

السيد إبراهيم مرقص يعيش مع زوجته في البيت الملاصق للسيد محمود الورداني ويعمل صانعًا للأواني الفخارية كالبرام والقدور، وقد ورث هذه المهنة عن والده الذي كان يمتهن نفس العمل في أسوان في جنوب الصعيد؛ حيث التربة الجيرية والأحجار والخامات الصلبة في المحاجر، ذلك قبل أن يترك أسوان ويعيش فترة في أسيوط، تزوج من أهلها ثم انتقل مع زوجته إلى المحروسة واستقر فيها، ومن يوم أن سكن فيها لم يزره أحد من أقاربه أبدًا طوال السنين الماضية، حتى ظن الناس أنه هاربٌ من شيء ما، أو من ثأر عليه أو على أحد أقاربه، السيد إبراهيم مرقص لم يتحدث عن هذا من قبل، لكنه على علاقه طيبة بجيرانه وزبائنه في العمل ولم يظهر منه ما ينفرهم منه أو يجعلهم يبتعدون عنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٤-

القاهرة ١٨٠٤

كانت الأنباء تصل إلى الأستانة بعد حدوثها بفترة، فانغرس في شعور الباب العالي أن مصر تنفلت من بين أصابعهم، خصوصًا مع سكوتهم عن التحالف الذي قام بين محمد علي وجنوده الألبان وبين المماليك، فأرسلت علي باشا الجزايرلي واليًا من لدنها، ولم يكن ذا سمعة طيبة، فقد ضُبط منذ فترة ليست بالبعيدة متلبسًا بالفاحشة مع غلامين في دائرة الحرم، وحُكم عليه بالضرب بالسياط حتى الموت، ثم خُفف بالوساطة من بعض الأمراء المصريين، فاكتفوا بحلق لحيته عقابًا له..!!!!!

أرسل الباب العالي مع الجزايرلي ألفًا من الجنود دعمًا له، نزل بهم إلى الإسكندرية، وأرسل أخاه سعيدًا للاستيلاء على رشيد، ولم يكد يسيطر عليها ويبسط يده فوقها حتى وصل محمد علي والبرديسي بقواتهما واسترداها منه، واتخذا سعيدًا أسيرًا، بلغت أخبار الهزيمة والأسر علي باشا الجزايرلي فتحصن بالإسكندرية، واستعد البرديسي للذهاب إلى الإسكندرية وعزم على محاصرته، وبينما هو جالس في خيمته، أتاه شيخٌ طاعنٌ في السن جاوز المائة للزيارة وإلقاء السلام، كان يعرفه من قبل، ويتبرك به، استقبله مهللًا وفرحًا بحضوره ولُقياه، وأثناء حديثهما قال له الشيخ:

- خذ حذرك من الآن فستقع فتنة في عيد الأضحى، وستجري الدماء فيها.

أصاب البرديسي الخوف وهو يسأل مستفسرًا ليطمئن:

- دماء من؟

أجاب الشيخ بشيء من الغموض:

- الذئاب ستفترس الأجانب.

لم يكن يخفى على البرديسي أن المصريين يسمون المماليك بالأجانب، فخاف على نفسه وعلى رجاله، وزاد خوفه لما تراجع محمد علي بجنوده إلى القاهرة، بعد انخفاض النيل في البلاد، وأصبح تموين القوات أمرًا عسيرًا بعد غلاء الأسعار وقلة الموارد والتموين، فتقهقر إلى القاهرة مع مماليكه متراجعًا وعدل عن مهاجمة الجزايرلي، الذي حاول أن يفرق بين المتحالفين، فأرسل من يفاوض محمد علي سرًّا إذا ما تخلى عن المماليك، وأرسل من يفاوض البرديسي سرًّا، وأطمعه في عودة أموره وأمور مماليكه كما كانت قبل الحملة الفرنساوية فيما لو تخلى عن محمد علي وألبانيه، لكن المكيدة كانت واضحة لمحمد علي الذي تعود على تدبير المكائد بنفسه لخداع أعدائه والإيقاع بهم، فأرسل من يخبر البرديسي بما حدث معه، فازدادت ثقة الرجل فيه، واطمأن لجانبه، بعد ذلك وضع محمد علي خطة أقنع بها البرديسي لإخراج الجزايرلي من تحصنه بالإسكندرية.

فأوحى لمشايخ العلماء الذين استمالهم بمظاهر تقواه، واعتداله، وتقربه الدائم منهم، بإرسال دعوة لعلي باشا الجزايرلي يدعونه للقدوم إلى القاهرة، مُدَّعين أن أغلبية مشايخ العلماء يرغبون في حضوره للمحروسة لإنهاء المعارك الدائرة في البلاد، لكنهم يخشون الإجهار بالموضوع، فإن حضر، زال كل مستور، وجهر الكل بمبايعته واليًا على مصر.

انطلت عليه الخديعة، حتى إنه بعث يخبر أمراء المماليك بذلك، فأرسلوا إليه ردًّا يخبروه ألا يصطحب معه أكثر من ألف

جندي، بعد أن علموا أن الباب العالي أرسل إليه إمدادًا بضع مرات من الجنود والعساكر، وأن قواته ربما بلغت عدة آلاف الآن، أخبروه أن يسير بجنوده من دمنهور إلى المحروسة على شاطئ النيل الأيسر، لكنه خرج في زهو وخيلاء بألفين وخمسمائة جندي من المشاة، وما يقرب من خمسمائة من الفرسان على خيولهم. في الطريق زين له غروره رغبته في الاستيلاء على رشيد، لكنه وجد الحامية التي تركها محمد علي والبرديسي يقظة، فتراجع بقواته بعد أن صدوا محاولته الساذجة في الهجوم.

حاول أن يُصلح من موقفه، ويبرر فعلته بالهجوم، فأرسل اعتذارًا يخبرهم فيه أنه لم يكن ينوي سوءًا، وتعلل بأنه أراد تقصير المسافة، بعد إرسالهم رسول يستفسرون منه عما فعل، بعد أن وجدوه خالف الطريق المرسوم له، في مساء نفس اليوم ألقى خفراء المدينة القبض على جنديين من جنود الجزايرلي، وقادوهما أمام يحيى بك قائد مماليك حامية رشيد، فسألهما عما يريدان، فقال أحدهما:

- نحمل رسالة من علي باشا الجزايرلي إلى عمر بك قائد الألبانيين في رشيد.

فض يحيى بك الرسالة المكتوبة علانية في وجود عمر بك، واتضح أنها تحتوى على وعودًا يعدها علي باشا للألبانيين إذا انقلبوا على المماليك، استشاط الحضور غيظًا، واستعدوا لقتال الجزايرلي باشا، الذي اقترب بقواته من أطراف المدينة، وهو يعتقد أن رسالته أتمت مفعولها واشتعلت الوقيعة بين الحلفاء، لكنه صُدم لمَّا وجد القوات صفًّا واحدًا متربصين له خارج الأسوار، فلم يجسر على مهاجمتهم أو حتى الاقتراب منهم، واضطر للتراجع صاغرًا مرة أخرى إلى طريقه الأول التي رُسمت

له، وفي طريقه نهب جنوده وفرسانه أغلب القرى في طريقهم. انتظره محمد علي والبرديسي بجنودهما في معسكر نصبوه بين شلقان وشبرا، وفي الليل هاجموا معسكره وأرغموا بعض جنوده على الفرار دون قتال، ولما تعجب الجزايرلي من هجومهم عليه، أخبروه في رسالة:

- أنت من خالف التعليمات وأتى بقوات كبيرة من العساكر فوجب لقائه كعدو.

اجتمع الجزايرلي مع قواده للتشاور وحاول أن يقنعهم بدخول معركة ضد الألبان والمماليك، لكن عسكره أخبروه أن الباب العالي لم يأمرهم بالقتال أو الدخول في معركة، وقواتهم ليست بالعدد الكافي للالتحام، فعلم أنه قد أُوقِع به، فسلم نفسه إلى البرديسي في خيمته، وجُردت عساكره من أسلحتهم، ورُحلوا إلى التخوم السورية، بعد أن أطاح برؤوس ستة من رؤسائهم، معروف عنهم أنهم من أصحاب السوابق في المشاغبات والاضطرابات. رغم كونه مقيد الحركة، اعتقد الجزايرلي بعد المعاملة الحسنة التي لقيها من البرديسي، أنه يستطيع أن يدبر خطة جديدة يخرج بها منتصرًا، ويتخلص ممن نصبوا له الكمين، فكتب رسالتين وأرسلهم سرًّا، الأولى إلى عثمان بك حسن أحد كبار أمراء المماليك، وعده فيها بأن يجعله وكيله إذا انشق عن المماليك وانضم إليه، والأخرى إلى الشيخ السادات يشرح له فيها كيف يمكنه إثارة الشعب على المماليك.

وقعت الرسالتان في يد عثمان بك البرديسي، وواجه غريمه بهما، فلم يجد الجزايرلي ما يدافع به عن نفسه.

أقبل المساء وفوجئ الجزايرلي أن البرديسي أرسل من قِبله رجلًا يخبره أن الخيل معدة في انتظاره للرحيل ومغادرة القطر المصري إلى سوريا، كان الرجل يقف أمامه ويده على مقبض سيفه وفي الخارج الخيل والجنود مع بنادقهم، وقع الرعب في قلب الجزايرلي لما سمع الرجل يقول في حزم وغلظة:

- عثمان بك البرديسي يخبرك أن تصرفك أظهر خيانتك، وأصبحت لا تؤتمن على بقائك هنا في وسطنا.

جمع الجزايرلي متاعه، ودس كفنه الذي لم يكن يفارقه أبدًا بينه، ركب مع ابن أخته وأتباعه، وأحاط بهم جمع قوي من المماليك طوال الطريق حتى وصل بهم السير ناحية القرين، فعسكروا بها وجلسوا يستريحون، وبينما هم جالسون، أخرج المماليك بنادقهم وصوبوها ناحيتهم وأفرغوا فيهم طلقاتهم، اخترقت طلقتان منها جسد الجزايرلي باشا، خر على الأرض مدرجًا في دمائه، لكنه لم يمت على الفور، ظل يزحف على الرمال حتى وصل إلى متاعه، أخرج منها قطعة قماش أبيض مطوية في عناية، رفعها ناحية قاتليه، وقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- هذا كفني، لا تحرموني من التكريم بالدفن بعد مماتي..

نطق في وهن من بين دموعه:

- أرجوكم.. لا تتركوا جسدي لوحوش الصحراء.

لم يكن هناك من شيء يحدث إلا بعلم وربما بأمر من محمد علي، كل الأمور كان يديرها بدهاء من خلف الستار، كل المكائد والمعارك والقتل، كان يحركها بأصابعه دون أن يلوث طرف ثوبه ولو بقطرة دماء.

الباب العالي كعادته تصله الأخبار متأخرة ويرسل أيضًا أوامره المترددة متأخرة، فقد وصل فرمان مع رسول مخصوص، يؤيد علي باشا الجزايرلي على ولاية مصر، بعد أن مات ودفن ولاقى ربه.

في تلك الفترة عاد الألفي من بريطانيا بعد أن رأت الحكومة هناك أن الوقت قد حان ليتدخلوا عسكريًا، ويدعموا الألفي للوصول إلى مقاليد الحكم في البلاد، فعاد الألفي ومعه من التحف والأموال الكثير اللازمة لشراء الذمم والقلوب.

وقع خبر وصول الألفي على مسامع عثمان بك البرديسي كما تنزل الصاعقة تضرب الأرض وتزلزلها؛ لأنه يعلم أن أتباع الألفي ومريدوه من المماليك كثيرون، ولم يكونوا يطيعوه إلا متذمرين في ضيق؛ لأنهم لم يجدوا حلًّا آخر، أو ربما اتبعوه كوضع مؤقت. نما إلى علمه في نفس الوقت أن الألفي الصغير - الذي تركه الألفي الكبير على رأس حزبه لما غادر الديار - استدعى رجاله وأمرهم بالاستعداد للانضمام إلى سيدهم فازداد هلعه وخوفه.

توقع محمد علي أن البرديسي سيقصده ليستنجد به ويشاوره في تصريف أموره، وبالطبع لم يكن يَخفى عليه أن وصول الألفي ما هو إلا ستار يخفي من خلفه تدخل الإنجليز لفرض نفوذهم وسيطرتهم على البلاد بمساعدة المماليك، وأن الألفي إذا حاول إقناع البرديسي بالانضمام إليه ونجح، حينها سيخسر كل ما عمل من أجله وخطط إليه طوال الفترة السابقة، فلما أتاه البرديسي فعلًا يطلب مشورته، أشار عليه بقوله:

- لا بد من القضاء على الألفي، قبل أن يتمكن من القضاء علينا بمساعدة الإنجليز.

اقتنع البرديسي بما أشاره عليه محمد علي، وأعماه خوفه وكرهه للألفي من موازنة الأمر ومراجعة ما هو في صالحه وصالح جماعته من المماليك، فانتقل إلى بر الجيزة بالاتفاق مع محمد علي وباغت الألفي الصغير في معسكره هناك، حيث تخلى مدفعيو الألفي الصغير عنه، وفروا هاربين بعد الهجوم عليهم، ولم يبق معه إلا بضعة رجال هرب معهم، في نفس الليلة تحرك محمد علي ناحية فريق من مماليك الألفي الصغير كانوا راقدين في إمبابة وداهمهم في نومهم، وقتلهم عن آخرهم.

امتلأ قلب الألفي الكبير بالأحلام والأمنيات، يتخيل لحظة جلوسه على عرش مصر وهو يمخر عباب النيل في مركب القنصل البريطاني، والراية البريطانية تخفق فوقه، تتبعه مجموعة من القوارب، تحمل الأموال التي أتى بها من بلاد الإنجليز، وصل بها حتى منوف، وهناك رأى مراكب عدة عليها عساكر ألبانية تتقدم لمقابلته، ظن أن المعركة ستبدأ ضده الأن، وأمر رجاله بالاستعداد، لكن الألبانيين لم يتعرضوا له، بل هاجموا القوارب التي تحمل التحف والأموال ونهبوها، فر الألفي وسط الفوضى التي حدثت من الهجوم ومحاولة جنوده الدفاع عن الأموال والتحف التي غرق بعضها في النيل، نجح في النزول إلى الشاطئ، واتجه ناحية قبيلة بدوية كانت تضرب خيامها هناك، فاستقبلته امرأة منها، وأعطته حصانًا ودليلين، ابتعد بهما وتبعه مماليكه سيرًا على الأقدام، حتى بلغوا «خانقاة» وهي مكان ينقطع فيه المتصوفون للعبادة، فهاجمه فيها جمع من

العربان، نجا منهم الألفي بصعوبة بفضل سرعة حصانه واختبأ عند شيخ من مشايخ عرب الشرقية.

عاد البرديسي للقاهرة بعد ذلك فوجد أن مجموعة كبيرة من مماليكه غادرته غاضبة مما فعل، ومجموعة أخرى غادرته للانضمام للألفي، والجنود الألبانيون يطالبونه بمراتبات متأخرة مستحقة لهم لديه عن الأشهر الثمانية المنصرمة، حاول أن يماطلهم، بعدها وصل محمد علي على رأس فرقته، دخل عليه في هدوء ووفاء الصديق المخلص وهو يقول مُدعيًا:

- جئت في سرعة بعدما علمت ما يحدث، لا تبتئس بما يفعلون، هذا حال الجنود دومًا، سأحاول التوفيق بينك وبين الجنود الألبان حتى تستقر الأمور وتهدأ.

مع ذلك كان جمع المال في سرعة أمر حتمي، اضطر معه البرديسي لفرض جبايات كبيرة على كل الشراقوة والفرنج المقيمين في القاهرة، لتجميع أي مبالغ يسد بها أفواه الجنود، احتج القناصل، لكن البرديسي أمر بجمع الضريبة عنوة منهم.

مع ذلك لم يكف ما جمع مرتبات الجند، فقرر فرض ضريبة أخرى على أهل المحروسة كانت فادحة فقصمت ظهور العباد، ولم يقدروا على دفعها، خرجوا في الطرقات ثائرين، وهاجت الأهالي في شوارع المحروسة وقتلوا أنفارًا عدة من المحصلين، تجمهروا في ساحة الأزهر - ملاذهم الدائم - وحوله، حتى النساء خرجن من بيوتهن يتظاهرن، وقد سبغن وجوههن بالنيلة يهتفن:

- إش تاخد من تفليسي يا برديسي.

وجد محمد علي الفرصة سانحة أمامة يتقرب فيها أكثر إلى الأهالي ومشايخهم، فذهب بمفرده إلى الناس الثائرة المحتجة في مكان تجمعهم ووعد العلماء بأن الضريبة المفروضة لن تُجبى، فصدقه الناس وهدأت الأمور وعادوا إلى منازلهم، وهم يدعون له، أصبح محمد علي لحظتها مضطرًا إلى منع البرديسي من جباية تلك الضريبة، فقرر أن الوقت قد حان لاقتلاعه والتخلص منه، خصوصًا بعد شعوره أن بعض المماليك على رأسهم إبراهيم بك الكبير يَشكُّون في خالص نواياه تجاههم.

يومها أرسل رسالة إلى عثمان بك حسن ومماليكه الناقمين على البرديسي يستميلهم ناحيته، ونجح في ذلك.

في ظهر اليوم الثاني عشر من شهر مارس سنة ١٨٠٤، أمرهم بالسير للإحاطة بمنزل إبراهيم بك الكبير، ووجه جنوده للإحاطة بدار البرديسي بعد أن استمال الأتراك المكلفين بحمايته بالرشاوي التي يبدو أنها كانت ثمينة؛ لأنهم أداروا فوهة مدافعهم صوب جدران دار البرديسي ودكوها دكًّا، وجعلوا البرديسي يفر مع بعضٍ من رجالاته على الخيول بعد حمله ما خف وغلا على ظهور هجن، اخترق بهم صفوف الألبانيين المحيطة بداره، ونجح في فتح ثغرة في الحصار له ولمن معه ونفذ منها هاربًا، فر برجاله وأمتعته نحو البساتين، أما إبراهيم بك الكبير فقد تمكن من الهرب عند الفجر من منزله إلى ساحة الرُّميلة، وفر منها إلى الصحراء، في نفس اليوم انقض المدفعيون المقيمون في القلعة على دار السكة فنهبوها وسرقوا كل ما فيها، ثم ولوا هاربين من باب الجبل كما فعل أسيادهم من الأمراء.

لم يبق في القاهرة من قوة أو سلطة سوى محمد علي وجنوده، لكنه رغم ذلك لم يرى أن الوقت قد حان ليتقلد مفاتيح القلعة

ويمسك زمام أمور المحروسة والبلاد، ولم يُظهر لأحد رغبته في ذلك بعد.

صعد محمد علي من تلقاء نفسه إلى القلعة في نفس اليوم الذي طُرد المماليك فيه من القاهرة، وأنزل منها خسرو باشا المسجون فيها، ليعيده إلى كرسي الولاية، لم يصدق خسرو باشا ما يحدث، كونه سيعود إلى كرسي الحكم من السجن، كما حدث مع يوسف الصديق، لكنه لم يهنأ بها ساعات؛ لأن الزعماء الألبانيين من زملاء محمد علي بتحريض من ولدي أخي طاهر باشا، رفضوا تعيين خسرو باشا، وأنزلوه من القلعة مقيدًا، وأرسلوه مع حرس إلى رشيد ليُحبس فيها، لم يمانع محمد علي ولم يعترض، ولم يبد أي نية طمع في الحكم، أو حتى أشار عليهم بشخص آخر، كل ما كان يهمه حينها أن تبقى مقاصده مخفية عن بصيرتهم، وأن يُؤمن الباب العالي بولائه لهم، ويضمن تعلق العلماء به.

انضم إلى زعماء المشايخ والبلاد في اجتماعهم الذي عقدوه لاختيار من يصلح لتولي الحكم، فاجتمعت الآراء على تعيين خورشيد باشا محافظ الإسكندرية المولَّى عليها منذ أن كان خسرو باشا واليًا على مصر، خورشيد كان والده راهبًا مسيحيًّا، لكنه أسلم في شبابه بعد أن أصبح من الإنكشاريين، وكان من حرس السلطان محمود الثاني قبل أن يوليه خسرو الإسكندرية.

وقع في نفس محمد علي حينها أن خورشيد آخر من تبقى في مصر ممن يمكن أن تتجه إليهم الأبصار ليتولى الحكم، فإذا لم يفلح هو أيضًا، أصبح من السهل حمل القوم على انتخابه. بعد الاتفاق تحركت فرقة ألبانية وأتت بخورشيد باشا من الإسكندرية في الثاني من أبريل، ولأول مرة لم يأت فرمان الأستانة

متأخرًا كعادته، فقد وصل فرمان التثبيت في الثامن والعشرين من نفس الشهر.

لم يكن يخفى على خورشيد باشا سيطرة محمد علي الخفية على الأمور؛ لذلك حاول من البداية أن يخرج من قبضته بعد أن باتت ظاهرة له سيطرتها على كثير من الأمور في البلاد، حاول أن يتجنب مكائده ويتحاشى مواجهته حتى يقدر على مجابهته.

خزائن مصر كانت خاوية على عروشها، ومع حاجة خورشيد باشا الشديدة للمال اضطر أن يأمر بتحصيل الميري عن السنة كلها مقدمًا، استغل محمد علي ذلك ليُقَلِّب عليه نفوس المشايخ والأهالي، ويثير عليه الضغائن، زاد خورشيد باشا على ذلك بأن شرع يبحث عن كل من له علاقة بالمماليك ويصادره، رد المماليك عليه بأن منعوا الوارد من غلال وأقوات عن القاهرة، بعد أن سيطروا على مداخلها ومخارجها، جاع الأهالي وزاد جوعهم من نقمهم على خورشيد باشا ونفورهم منه، كل الأموال التي يجبيها من الخلائق من كل النواحي بالقوة لم تكن تكفيه أو تفي احتياجاته، ازدادت صعوبة الحصول على المال مع الوقت أمام خورشيد باشا، حتى جاء يوم اعتقل فيه السيدة نفيسة المرادية أم المماليك مع بعض نساء المماليك، وأمر رئيس الشرطة بإحضارها للقلعة، واتهمها بأن جارية لها تحرض الجند على التمرد ضده بالاتفاق مع المماليك، شاع الخبر بين العامة واتجه القاضي والسيد عمر أفندي مكرم والشيخ محمد السادات، والشيخ محمد الأمير، للقلعة وتحدثوا مع خورشيد باشا مستفسرين عن حقيقة اتهامه لأم المماليك، قال مدعيًا:

- لقد جائتني الأخبار أنها وعدت كبار رؤساء الجند بدفع رواتبهم، إذا تمردوا عليَّ، وما دامت تقدر أن تدفع رواتب

للجنود لينقلبوا عليَّ، فلتدفعها إذن لخزانة الحكومة.

فلما خاطبوا السيدة نفيسة أنكرت التهم وقالت:

- إن كان يريد مصادرة أموالي فلم يبق عندي شيء، لا أب، ولا زوج، ولا أخ، فبأي داع أخدم مصلحتهم؟ إني أرى أن كل هذا تحايل لابتزاز أموال مني ليس لديَّ منها ظلها؛ لأني قد أصبحت في حال لا تمكني من القيام بواجبي والتزاماتي نحو نفس من خدمني ويخدمني.

وقفت السيدة نفيسة في شموخ كعادتها في كل الصعاب والمواقف التي واجهتها طوال حياتها أمام الباشا وطالبته في شجاعة بدليل على ما نسبه إليها وإلى جاريتها، فلوح في وجههم بورقة ولم يرهم إياها، وقال:

- لقد وقعت رسالتكم في يدي.

صوبت السيدة نفيسة نحوه سهام كلماتها قائلة:

- عشتُ بمصر وقدري معلوم عند الأكابر وخلافهم، والسلطان ورجال الدولة، وحريمهم يعرفوني أكثر من معرفتك بي، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس فما رأيت منهم إلا التكريم، وكذلك من محمد باشا خسرو الذي كان يعرفني ويعرف قدري، ولم نر منه إلا المعروف، أما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم.

بعد سوء الوضع الذي وجد نفسه فيه، تراجع عن القبض عليها وحبسها، لكنه أمر بأن تتوجه لبيت الشيخ السحيمي بالقلعة، وأجلسها هناك تحت حراسة مجموعة من العسكر، حاول العلماء والمشايخ خلال الأيام التي تلت حبسها إقناع خورشيد باشا لإطلاق سراحها وألحوا في طلبهم، فأبى بالرغم من إلحاحهم

وتوسلهم، فنفروا منه أكثر، ثم تدخل بعض كبار المرتبة من ذوي الشأن لديه، وانتهى الأمر بتصريح خورشيد باشا للسيدة نفيسة أن تقيم في بيت الشيخ السادات، وكانت عديلة هانم، بنت إبراهيم بك الكبير، قد لجأت إليه، أول ما بلغها ما أصاب نفيسة هانم، خشية أن تصاب بمثله.

لم يجد خورشيد باشا أمامه بعد ذلك، سوى أن جمع الوجاقلية - وهي وحدة عسكرية عثمانية - وفرض عليهم ألف كيس وأبقى بعضهم لديه رهائن حتى يدفعوا، ثم فرض بعد ذلك خمسمائة كيس على الأقباط، ومائة وخمسين كيسًا على المسيحيين السوريين المقيمين في مصر، ومع أن ضريبة الميري للسنة الجارية لم يستطع تحصيلها، إلا أنه أمر بتحصيل السنة التي تليها، كما زاد الضرائب على أرباب الحرف والصنائع في القاهرة، فثاروا واحتشدوا من جديد في ساحة الأزهر، وجاهروا بالتمرد والعصيان.

حاول أن يتراجع عما فعل دون أن يبدو أنه خاف وتراجع نتيجة ثورة الناس عليه، فأرسل منادٍ في المدينة ينادي بأن الفقراء يعفون من دفع الضريبة، رغم أن كل أرباب الحرف والصنائع باتوا وأصبحوا من الفقراء مع سوء الحال المنتشر في البلاد.

في النهاية مع كل ما فرض وجمع لم يستطيع خورشيد باشا جمع ما يلزمه لدفع رواتب الجند، فانطلقوا معتدين على الأهالي والتجار وقاموا بأعمال السلب والنهب، حتى أغلق الجميع حوانيتهم ودكاكينهم، وفرغت الأسواق، وأغلق الناس على أنفسهم أبواب بيوتهم، وباتت المدينة شبه مهجورة لا يتجول في شوارعها سوى الجنود.

أمر بعد ذلك أن يصادر نساء المماليك، وابتز منهن ألفًا ومائتى كيس، بعد أيام عقد ديوانًا كبيرًا، جمع فيه الناس، وألقى عليهم فرمانًا وصل إليه من الأستانة يشكر فيه الباب العالي من ساعدهم على المماليك، ثم استدعى العلماء من المشايخ وألبسهم فرو من سمور كما هي العادة، وألبس معهم مدير دار السكة، ومراقب عموم المالية واثنين وعشرين وجيهًا من الأقباط، ثم طلب منهم في اليوم التالى - مقابل كل ما نالوا من إكرام - أن يدفعوا ألف كيس على سبيل الإعارة الجبرية.

قبل تلك الأيام عندما علم الألفي ما حدث للبرديسي خرج من مخبئه، وأتى على رأس قوة من رجاله، وأقام في قرية على ضفة النيل اليمنى على مسيرة يومين من القاهرة، وبدأ في محاولات التقرب من البرديسي من ناحية، ومراسلة خورشيد باشا نفسه من ناحية أخرى، للوصول إلى أى اتفاق معهما، استقبل خورشيد باشا رسول الألفي بحفاوة، ولم يتغيب محمد علي عن الموقف فأهدى رسول الألفي جوادًا مطهمًا، كلاهما كان يحاول بطريقته تحييد الألفي عن الموقف الحالي وإبعاده عن الصورة بقدر الإمكان أو نهائيًا، قلده خورشيد باشا ولاية جرجا ليبعده عن المحروسة، وبذلك يكون أمن شره، في نفس الوقت كان محمد علي يرسل بعضًا من عساكره لمقاتلة مماليك البرديسي في المعتمدية، والإيقاع بهم والرجوع يوميًا إلى القاهرة برءوس بعضهم على رءوس الحراب، حتى انسحبوا وتراجعوا نحو تخوم القليوبية، ولم يكتف بهذا، بل طاردهم إلى المنوفية، لكنه لم يستمر في تعقبهم بل عاد للمحروسة لاحتياجه إلى أموال لدفع مرتبات جنوده، كان يُدرك أن مطالبة خورشيد باشا لن تمنحه شيئًا، فألقى القبض على اثنين من أغنى وجهاء المدينة من

محسوبي الوالي، ولم يخل سبيلهما حتى دفعَا بين يديه خمسمائة كيس.

لما بلغ الألفي في جرجا أنباء مصادرة نساء المماليك في القاهرة، غضب وأعلن عداءه للوالي صراحة بأن انضم في قتاله إلى باقي المماليك، وأرسل إلى خورشيد باشا رسالة يعلن فيها عداءه وحربه عليه، استشاط الوالي في قلعته غضبًا وأصدر أمرًا بقطع رأس الرجل الرومى الذي حمل الرسالة إليه.

زحف المماليك من كل جهة، ناحية المحروسة دون اتفاق أو تخطيط بينهم، فخرج محمد علي إلى مقابلتهم، والتقى بهم في مناوشات عدة، وفي يوم وقع مع ثمانمائة من جنوده في كمين نصب له جهة البساتين، نجا منه بأعجوبة، أرسل بعدها رسالة إلى عثمان بك حسن والألفي أنه اكتفى من أمر القتال الذي لا طائل منه ولا نهاية له، وأنه إذا أبى خورشيد باشا مصالحة المماليك، فإنه سينضم إليهما، فصدقا مكيدته، في ظلام الليل سار محمد علي بألف رجل إلى طُرة وهاجمهما وهما نائمان، وأثخن فيهم الجراح، ولولا أن الألبانيين خالفوا أوامره وأطلقوا الرصاص قبل إتمام الإحاطة بالقرية لما نجا أحد من المماليك هناك، ابتعد المماليك بعد إصابتهم عن القاهرة، وعادت الأقوات لدخول القاهرة مع الفلاحين، وزالت بدايات المجاعة - التي كادت أن تقع - وزال ضيق الحال الذي ألم بالمحروسة، ونسب أهلها الفضل في ذلك إلى محمد علي.

تلك الفترة شهدت بدء معاناة الباب العالي من الوهابيين، وبداية جمعهم القوات من جميع أنحاء الولايات لمحاربتهم في جزيرة العرب، فأرسلوا إلى خورشيد باشا أمرًا بإرسال خمسمائة رجل إلى ينبع لدفع الوهابيين عنها، لكنه لم يقدر على ذلك، فلا توجد

أموال في خزانة الدولة تكفي لتعبئة القوات وجمعها، وتموينها، ولا القوات المتاحة سترضى بالرحيل دون الحصول على مستحقاتهم المتأخرة.

بدأ من ناحية أخرى محاولاته للتخلص من الجنود الألبانيين فاستصدر فرمان يأذن لزعماء الألبانيين للعودة بجنودهم إلى بلادهم، فرضي الزعماء لكن الجند رفضوا مغادرة البلاد إلا بعد حصولهم على مرتباتهم المتأخرة، فاضطر خورشيد باشا أن يدفع من ماله الخاص جميع المتأخرات، ليتخلص من الزعماء الألبان وعسكرهم لكن الزعماء عدلوا بعدها عن الرحيل، ولم يجنِ خورشيد من تسرعه سوى خسارة المال الذي دفعه.

في عصر أحد الأيام تجمع الناس على شجار حدث بين جنديين من الأرناؤوط ورجل فرنسي يدعى روجيه، كان يعمل رئيسًا للصيادلة في الحملة الفرنساوية، أحب البلاد وأهلها وقرر البقاء فيها ولم يرحل مع الفرنساوية، الجنديان أرادا قتله، فدافع الرجل عن حياته وضرب الأول بضربة أودت بحياته، لحق به خادمه يساعده بعدما سمع أصوات الشجار، ووصل إلى مسامعه صوت سيده يستغيث ويستنجد به، أطلق الخادم الرصاص على الجندي الثاني فجرُح جرحًا خطيرًا، اجتمع العساكر على أثر الشجار في الحارة، كثر الهرج والمرج وشاعت الفوضى في المنطقة بعد هجوم العساكر الغاضب عليها وأرادوا نهبها، وصل الخبر إلى محمد علي، فأسرع التحرك وذهب للحارة مكان الشجار على قدميه دون فرس، ومعه بضع عساكر لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة، وأمر بصوته القوي أن يفتح باب الحارة، وإلا حطمه هو وجنوده، ففُتح الباب ووَضع خفراء عليه للحراسة والتأمين، كانت هيبته بين الجنود والعساكر قوية،

فامتثلوا لأوامره لما طالبهم بالتوقف والتراجع عما يفعلونه، وحتى يرضي الجنود ويزيل غضبتهم اتجه للقنصل الفرنسي وحمله على دفع أربعة الآف قرش لأخ المقتول، ديةً له، وأمر أخاه بقبولها، وأمر الجنود بالاكتفاء بها عن الثأر.

ذلك الموقف رفع من وضعه ومكانته بين عامة الناس وقدره، خصوصًا لما منع العسكر الهائج من ارتكاب أفعالهم الغاضبة بكلمته فقط، وليظهر هذا الولاء أمام زعماء الجنود الألبانيين وغيرهم وأمام خورشيد باشا نفسه، ذهب ذات صباح مصطحبًا أحمد بك - الذي كان يقاسمه الإمرة على الأرناؤوط - إلى الوالي، قابلهم خورشيد باشا بجفاء، يُخفي به ضيقه منه، ومن وجوده في البلاد، ومن قدرته على التحكم في أمور القطر ومقدراته في الخفاء، فلم يكن من الغباء ليخفَى عليه طمع شخص مثل محمد علي في ولاية القطر المصري، فاجأه محمد علي بقوله:

- لقد قررت أنا وأحمد بك بعد أن جمعتنا رغبتنا في الرحيل عن مصر والرجوع إلى بلادنا.

كاد أن يطير عقل خورشيد باشا من الفرح، ولولا قدرته على كتم ما بداخله لتدلت فكه السفلى في بلاهة ثم وقف يرقص في سعادة من أثر هذا الخبر، الذي نزل عليه كما ينزل الماء البارد في جوف رجل ظمآن يسير في الصحراء في عز القيظ، فتخلصه من شخص محمد علي غنيمة كبرى لا تعوض، بل ستكون أكبر غنائمه منذ تولي عرش القطر، كان قد عين محمد علي قبل هذا اليوم بفترة حاكمًا على جرجا، فأصدر أمر بإقالته ليتمكن من الرحيل، وعين بدلًا منه سلحداره، ذاع الخبر بين الجنود ووصل إلى عامة الشعب بعد ما بدأ محمد علي في بيع أملاكه التي كان قد اشتراها من قبل. اضطربت المدينة بعد انتشار الخبر، أُقفلت

الأسواق والدكاكين، وتجمع الناس في الشوارع والدروب تعلو وجوههم أمارات الحزن على رحيل الرجل الوحيد تقريبًا الذي يحميهم من تعدي الجنود عليهم ونهبهم لدكاكينهم وحوانيتهم، انتشر بعض الجنود في الشوارع والحارات بعدما أيقنوا من رحيل رادعهم، وتجددت أعمالهم من سلب ونهب وزادت السرقات وكثر التعدي على الناس، وأراقوا دماء من حاول صدهم والوقوف في وجههم.

أسرع نفر من الناس يشكون ويرجون محمد علي الذي استجاب لهم على الفور، فنزل وطاف في أرجاء المدينة على قدميه في الشوارع، فهدأت مخاوف الناس وقل رعبهم بعد ما رأوا محمد علي بينهم من جديد، أطلق قواته تقبض على الجند الذين اعتدوا على الناس، وعاقب بالقتل كل من تجاوز منهم، ولإبراز قوته وسطوته بين الجنود، وليذيع الخوف بين خصومه وأعدائه، وحتى تصل الصورة كاملة لدى خورشيد باشا، أبقى الرءوس المقطوعة عدة أيام معلقة على الأبواب، بعدها أعلن على عامة الناس تراجعه عن قرار رحيله، بعدما أوصل رسالته كما أراد، وانتهى الأمر بسفر مائتي ألباني ومعهم أحمد بك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٥-

السيد محمود كان الابن الوحيد لوالده السيد علي أحمد الورداني، سمَّى ولده البِكري «علي» تيمنًا وترحمًا على والده الذي لم يسعفه حظه بلقاء أول أحفاده، السيد علي الورداني تزوج في سن متأخرة من أم محمود، كان متزوجًا قبلها بالسيدة رُقية، ولم يرزق منها بأولاد أو بنات طيلة عشرين عامًا، تزوج عليها من أم محمود وهو في سن الخمسين، ورزقه الله منها بولده الوحيد.

السيد علي الورداني كانت له ذكرى حسنة بين جيرانه وأهل المحروسة كلهم، ليس فقط لدماسة وحسن خلقه وسمعته الحسنة، لكن لبطولاته أيام الحملة الفرنسية وجهاده ضد الفرنساوية، ومقاومته مع أهل رشيد لحملة فريزر التي استشهد فيها ومحمود في عامه الثامنة عشر تقريبًا.

السيد علي أحمد الورداني يعود أصله إلى مدينة المنصورة، له أخ وأخت ظلوا يعيشون فيها حتى بعد وفاة والدهم، نزح إلى القاهرة في حياة والده وأنشأ فيها ورشة للحدادة، بما أخذه من والده من مال، مساعدة له في غربته، بعد عدة سنوات لم ينقطع فيها عن الوصال مع أبيه تزوج من فتاة قاهرية – رُقية - وهي بنت الشيخ محمد السوسي أحد شيوخ الأزهر، ورغم أنها لم تنجب له ولدًا أو بنتًا، لم يقرر الزواج من أخرى إلا بعد سنوات طويلة من بعد وفاة والدها الشيخ، ليس خشية منه، ولكن توقيرًا واحترامًا لوجوده.

فكر في أن يتزوج من أصل موطنه المنصورة، شجعه على ذلك والده الذي طعن في السن وبلغ من العمر أرذله، وأصبح يتمنى لو

يرى حفيدًا له من علي، اختار له فتاه صغيرة في السن - لم تتجاوز الخامسة عشر حينها - اسمها جميلة، وكانت حقًّا جميلة، جميلة الملامح وجميلة الخلق وجميلة الأصل، شعرها أسود كليل شتاء طويل، عيناها سوداوين كحيلتين كالمها، وجهها أبيض كوجه القمر ليلة تمامه، وخدودها وردية كالرمان، من أسرة طيبة لها صلة قرابة من ناحية أمها بالسيد أحمد الورداني، أما أبوها فهو السيد عثمان الخطاط أحد أعيان المنصورة، وواحد من أحفاد الشيخ الخطاط الكبير الذي حارب جوار بيبرس - المملوك الشاب حينها - في معركة المنصورة ضد الحملة الصليبية بقيادة القديس لويس الذي كان يرغب في تأديب الملك الصالح نجم الدين أيوب، وإعادة مفاتيح أورشليم إلى بابا روما، واستطاعوا في هذه المعركة أن يوقعوا بهم، بعد أن دبروا عدة كمائن داخل المدينة، سهلت عليهم اصطيادهم، وقتل قائدهم الأخ الأصغر للملك، والتي على أثرها اعتقلوا القديس لويس التاسع، وشقيقيه شارل وألفونس داخل دار قاضي القضاة.

كانت «جميلة» ابنة وحيدة لأبيها وأمها لم ينجبا غيرها، تزوجها السيد علي الورداني وأقام عُرسه في المنصورة، ودخل عليها في بيت أبيه، ثم عاد بها إلى المحروسة بعد أيام عسل قضاها مع جميلة في سعادة، لم يشهدها من قبل مع زوجته الأولى رُقية، رغم حبه لها وتقديره لها، استقبلتهم رُقية بحفاوة لم يتوقعها السيد علي، لكن سرعان ما فكر أن هذا لم يكن غريبًا على امرأة تربت على يد عالم أزهري جليل كالشيخ محمد السوسي، ورغم معاملته الطيبة والحسنة للزوجة الأولى، إلا أن القلب له أحكامه، فكانت جميلة لها الجزء الأعظم من قلبه، وزاد ذلك بعد

أن أنجبت ابنه البِكري الذي حمله لحظة ولادته ورفعه إلى أعلى ملفوفًا في قماشة بيضاء، وهو ينطق اسمه بصوت عال من بين دموع فرحته التي سالت على خده:

- محمود علي أحمد الورداني.

رغم أن محمود كان صغيرًا إلا أنه يذكر حكايات أبيه التي كان يقصها عليه بعد عودته كل يوم عن المحروسة وأحوالها، عن الفرنسيين وحملتهم، وعن أخبارهم وأفعالهم، كان أكثر ما يضايقه من الفرنسيين رائحتهم، كانت كريهة، ومنهم من كانت رائحته نتنة وأنفاسه متعفنة، وللبعض رائحة الجبنة العتيقة والحليب الحامض خصوصًا كبار السن منهم.

علم منه أن بعضًا من الجنود الفرنسيين دخل الإسلام، وبعد أن أسلم منهم أحد الجنود وزالت رائحته العطنة وغير اسمه من جان رينو إلى عبد الرحمن جان، أخبره أن باريس - قبل ثورتهم العظيمة - وهي أكبر مدن فرنسا كانت تمتلئ بأشد الروائح كراهية، ربما لم تزل حتى الآن لكنها أصبحت أقل بكثير، الشوارع وباحات المنازل كانت تنضح برائحة الغائط والبول وشحم الخرفان وبقايا الأكل الذي تعفن وأصبحت رائحته نتنة، حتى غرف النوم غير المهواه تنبعث منها رائحة الغبار الرطب، ورائحة الستائر والمفارش القذرة المتربة، واللحف والمراتب الرطبة المحشوة بالريش، وبالرائحة النفاذة المنبعثة من المباول أو حتى في الشوارع حيث كان البعض يتبول دون حياء، رائحة الكبريت من المدافئ تكاد تخنق من يبغي التنفس بعمق، كانت الروائح النتنة العفنة تنبعث وتفوح من كل مكان حتى من الأنهار والساحات، من الكنائس ومن تحت الجسور حتى من الملوك

والأمراء أنفسهم، كانت تنبعث منهم رائحة الحيوانات المفترسة ومن الملكه رائحة العنزات.

بالطبع لم ينس أن يحدثه السيد علي عن نقيب الأشراف السيد عمر أفندي مكرم الذي قام بدعوة الشعب إلى الجهاد والتلاحم مع صفوف المماليك في القتال، صعد يومها إلى القلعة وأنزل منها بيرقًا كبيرًا أطلق عليه العامة البيرق النبوي، ونشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من الناس، وكان هو في طليعة المتطوعين للقتال، وعندما سقطت القاهرة بين أيدي الفرنسيين، عرضوا عليه عضوية الديوان إلا أنه رفض ذلك، وفضل الهروب من مصر كلها حتى لا يظل تحت رحمة الفرنسيين.

يذكر أنه في أحد الأيام وكان صغيرًا لم يزل، جاءهم الشيخ إسماعيل البراوي في ورشة الحدادة، يخبر أباه أن أتون الثورة يشتد وأن الناس قد جمعوا للفرنسيين بعد أن فرضوا وزادوا عليهم الضرائب، حينها عبر إليهم أصوات المؤذنين وهم يؤذنون لصلاة الظهر يتبعونها بدعوات مشتعلة ومجلجلة إلى الثورة والجهاد، أغلق السيد علي الورشة وأعاده إلى البيت، حكى له فيما بعد أنه سار إلى الصلاة والمسجد كان يدوي بمن فيه من حشد كبير، جلس إلى جانب رأس القِبلة مع الشيخ إسماعيل البراوي، إلى جوارهم الشيخ السادات، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ عبدالوهاب الشبراوي، والشيخ سليمان الجوسقي، والشيخ أحمد الشرقاوي، ثم وقف الشيخ أحمد المصيلحي بطليق لسانه ولهيب وطنيته يؤجج مساعير الثورة بين الناس بصوته الجهوري القوي الرنان بين جنبات المسجد:

- يظن الفرنساوية أن المحروسة قد خلت من الرجال، أن العزائم قد ضعفت وكلَّت فيها الهمم، وأن الرجل فيها لا يتميز فيها عن النساء إلا بعمامته ولحيته، وأن أهلها قطيع من الغنم نام عنه رعاته وتركوه نهبًا للذئاب، وأنه إذا رأى منهم جنديًا من الفرنساوية أقعى له كما يقعي الكلب في ذلة وخنوع، فهل هذا ما صرنا إليه؟

صرخ السيد علي الورداني وكل مَن في المسجد بصوت يهز جنبات المحروسة كلها، وقد ألهبهم سعيرُ كلماته المتقدة بالغضب من الفرنساوية:

- كلا.. كلا.

ازدادت كلمات الشيخ أحمد المصيلحي لهيبًا واشتعالًا، وازدادت حماسة الناس وانفعالاتهم معه وهو يتابع:

- إني أرى في وجوهكم غضبة الأسود لعرينها، وحمية الرجال لدينهم وعرضهم، هلموا إلى المجد والشرف، هلموا إلى الجنة التي تفتح أبوابها على مصراعيها لاستقبالكم شهداء، هلموا إلى الشهادة، فلا نامت أعين الجبناء، ماذا بقي لكم لتصبروا عليه؟ لقد فرضوا علينا الضرائب وأرغمونا على حمل شاراتهم، وهدموا علينا أبواب حاراتنا حتى لا تعوقهم في الهجوم علينا في وحشة الليل وظلمته، لقد جعل الله علينا الجهاد في مقدمة فروضه، فثوروا لكرامتكم ولوطنكم ولتاريخكم، ثوروا لعرضكم وشرفكم.

هب السيد علي رغم سنه واقفًا يصرخ في غضب وشجاعة وقد زلزلت الكلمات قلبه بين ضلوعه:

- حي على الجهاااد..، حي على الجهاااد..

ردد الجمع من خلفه:

- الله أكبر، الله أكبر، إلى الجهاد..، إلى الجهااد.

خرج الناس من المسجد كأمواج غضب متدفقة، اشتعلت الثورة في شوارع المحروسة، تجمع الناس غاضبين بشومهم وعصيهم وحجاراتهم في شوارع الموسكي والغورية والنحاسين والرويعي وغيرهم، حضر الجنرال ديبوي بجنوده وفرسانه ليصد ثورة المصريين الذين انقضوا عليه، ضربه علي الورداني بطعنة من عصا مدبب طرفها كالرمح يحملها معه فخر صريعًا على الفور غارقًا في دمائه، حمل جنوده جثته وتراجعوا بها، زادت حمية الأهالي أكثر لما رأو سقوط قائدهم صريعًا، واستولوا على باب الفتوح، وباب النصر، والبرقية، وباب زويلة، وباب الشعرية، ثم حفروا الخنادق وأنشأوا الحصون وباتوا ليلتهم متأهبين لهجوم الفرنساوية عليهم.

الشيخ الجوسقي رغم أنه كان كفيفًا، إلا أنه كان صلبًا، قهر ظلام بصره بنور بصيرته، استطاع أن يُطوِّع العميان وطائفتهم التي يترأسها وجَيَّشَهُم في جيش لمواجهة العدو الفرنسي، فكان العميان هم حلقة الوصل ينقلون أخبار المعسكر الفرنسي قبل اندلاع الثورة، وعندما اشتد وطيس ضرب المدافع على البيوت، لجأ له العامة فطالبهم بالصمود وقال:

- إنكم بشر مثلكم مثلهم، فاخرجوا إليهم فإما أن تبيدوهم أو يبيدوكم.

أخرج الشيخ الجوسقي مما لديه من مال وكان ثريًا، اشترى السلاح ووزعه على الناس، كان يشق طريقه بين شوارع المحروسة الملتهبة بحماره يتفقد المتاريس، والحصون، ويتفقد

احتياج المجاهدين للسلاح، ويأمر بإرسال السلاح والمؤن الى الأماكن المحتاجة لها.

في صباح اليوم التالي نقل الفرنسيون مدافعهم على المرتفعات خارج المدينة بعد أن احتلوها، وأطلقوا منها القذائف على نواحي الأزهر، والصنادقية والغورية والفحامين، حتى كاد الأزهر أن تتساقط جدرانه على المحتدشين به وجواره، تحولت الأحياء المجاورة إلى خرائب مدمرة، تهدمت البيوت ومات تحت أنقاضها الأهالي من السكان البائسين، لم يتحمل الناس هول القذائف الملتهبة التي تتساقط عليهم من أعلى كالسيل المرصوص، بلَغ بهم السَّيْلُ الزُّبى من وطأة القذف وضعفت همتهم، خافوا على نسائهم وأطفالهم وسقطوا خاسرين أمام الأسلحة الفرنساوية الثقيلة، تشفَّع المشايخ عند نابليون طالبين أن يرفع عنهم وعن الأهالي غضبه، فأسكت عنهم ضرب المدافع وأصواتها، وأطلق جنوده كالكلاب تعيث في الأرض فسادًا كما تشاء، دخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ودمروا كل ما فيه من كتب وخزائن.

عاد السيد علي الورداني إلى بيته بعد أيام بات لياليها خارج جدرانه، لم يعد فيهم إلا للاطمئنان على زوجتيه وولده، عاد مصابًا بالجروح والسحجات الخفيفة، وغاضبًا في شدة، ليس من قوة الفرنساوية لكن من الوهن الذي أُصيب به المصريون على يد الأتراك والمماليك، الذين تركوهم لقمة سهلة لأفواه الفرنساوية الجائعة.

مرت الشهور في تجاذب وتناحر لا يهدأ بين أهالي المحروسة وبين جنود الاحتلال الفرنساوية برائحتهم المقززة المنفرة، ذات يوم عاد السيد علي الورداني مهمومًا وعلى وجهه ملامح حزن

شديد، خشيتا عليه زوجتاه رقُية وجميلة من أن يكون أجله قد اقترب، صعد إلى غرفة السيدة جميلة ونام على السرير دون حتى أن يخلع ملابسه عن جسده كما تعود عند الدخول، ألقت عليه جميلة الغطاء ورقد محمود جواره خائفًا على والده من الضعف والوهن الذي أصاباه، حاولت المرأتان أن يستفسرا منه عمَّا به، أو يعرفا منه إن كان ألم به مرضٌ، أم يشتكي من شيء آخر، وهو صامت كالقبر لا يفتح فيه ولا يرد.

بعد قليل من الصمت تسربت الدموع من بين جفنيه، وبدأ ينهنه ويعلو صوت بكائه، اقتربت منه المرأتان وهما يبسملان ويحوقلان، وجميلة تضرب على صدرها بيديها، ومحمود يبكي مما يرى، وهو يتساءل في فزع عما ألم بوالده، ضمته رقُية إلى صدرها وتركته ينهي بكاءه وهي تقرأ من القرآن وتمسح بيديها على شعره، جذبت جميلة محمود إلى صدرها، كأنها تحتمي بولدها، ولم تصمت رقُية عن قراءتها حتى هدأ السيد علي ونام.

ظلوا جواره جميعًا حتى جن عليهم الليل، استيقظ السيد علي من نومه، فرأى محمود جواره وزوجتيه جالستين معه بالغرفة، ضم محمود إلى صدره، فاستيقظ وارتمى بحضن أبيه، صمتت المرأتان ولم ينطقا بسؤال أو استفسار عما به، وبعد دقائق نطق محمود متسائلًا:

- ماذا حدث لك يا أبي؟

ربت على كتفه وقبَّل رأسه وهو يقول:

- لا تفزع يا بني.

فسألت جميلة أيضًا:

- هل أصيب أحد في الورشة؟

وقالت رقُية:

- أخرج ما في صدرك لترتح.

نطق السيد علي في حزن:

- لقد مات الشيخ الجوسقي، قتله بونابرتة النجس.

شهقت المرأتان وترحمًا عليه ومحمود يسأل:

- ولماذا قتله؟

أجاب والحزن والغضب يخنقانه:

- لقد علم نابليون أن الشيخ الجوسقي هو الذي يقف خلف عمليات القتل التي تحدث في صفوف العسكر الفرنسيين، وقرر إلقاء القبض عليه، حاول استمالته وقدم له العديد من العروض التي رفضها شيخنا وقابلها بالسخرية، قال له سأجعلك سلطانًا على مصر، فأظهر الشيخ قبولًا للعرض، ومد نابليون يده إليه، وكذلك مد الشيخ يده اليمنى مصافحًا إياه، لكنه رفع يده اليسري، وصفع نابليون اللعين صفعة قوية على خده الأيمن، فاستشتاط نابليون من الغضب، وأمر بقتل الرجل وإلقاء جثته في النيل، ألقوا الشيخ الجوسقي رحمه الله من فوق القلعة، أمامنا أجمعين، ولم نستطع أن نفعل له شيئًا، مات بطلًا وكنا جبناء لم نرفع عنه راية الظلم ولم نقدر على كف يد بونابرتة النجسة عنه.

في أغسطس ١٧٩٩ تسرب إلى السيد علي الورداني عن طريق أحد الجنود الفرنساوية الأخبار أن نابليون قرر مغادرة القاهرة بعد أن رأى آماله وأحلامه تتحطم على صخرة المصريين، وعلى أسوار عكا الذي عاد منها مهزومًا مدحورًا في زفة زائفة يحتفل

فيها بنصر واهم لم ينله، بعد أن غدر بحامية يافا وقرر إعدامهم كلهم بلا استثناء رميًا بالرصاص ثم ألقى جثثهم في البحر.

غادر البلاد غير مأسوف عليه، وكسر الأهالي القُلل في الطرقات بعد رحيله، ترك مقاليد الأمور في يد الجنرال كليبر، الذي قُتل بعد فترة ليست بالطويلة على يد سليمان الحلبي أثناء تمشيته مع مسيو بروتان في حديقة قصره.

تولى بعده مينو الحكم بالأقدمية؛ لأنه كان أقدم قوات الفرق في الخدمة على حد قول مرؤسيه من الجنود، وصل إلى القمه كما وصل من قبل في الجيش إلى المراتب السامية؛ لأنه كان مشهودًا له بالكفاءة العسكرية والحنكة في الإدارة، رغم أنه لم يفتح فتحًا أو يصب انتصارًا كبيرًا في معركة ما من قبل، حتى جاء مارس من عام ١٨٠١.

وجد محمود والده يهلل بعد أن سمع أخبار عن هزيمة الفرنسيين على يد عمارة إنجليزية ونزولها إلى البر بعد النصر، ثم عن معركة دارت بعدها بينهما في مكان يسمى قيصر القياصرة، كانت الغلبة فيها للإنجليز أيضًا، توالت الإشاعات في الأيام التالية، وشاهد مع أبيه رقص العوام وغناءهم الأناشيد في الشوارع، وأمام ورشتهم بعد كل خبر جديد عن هزيمة الفرنساوية، رغم أنه كان يجول في خاطره ويفكر ما الفرق بين أن تكون الحملة فرنساوية، أو تكون إنجليزية؟!!، فالاثنان سواء، غرباء عنهم ودخلاء عليهم.

السيد علي الورداني قُبض عليه، واعتقل مرات عدة من الفرنساوية، آخرها كانت في مايو ١٨٠١، وفي ليلة الإثنين التاسع والعشرين من يونيو من نفس العام، سمع محمود صوت مدفع

دوَّى في المحروسة كلها بعد الغروب، قادم من ناحية جامع الظاهر خارج الحسينية، بعدها ارتفع من الجامع أذان المغرب ومن بعده العشاء، وفي اليوم الثاني زاعت الأخبار أن البيرق العثماني مرفوع ويرفرف بأعلى الجامع، والمسلمون يقفون على أسواره، وأنه تم تسليمه، حينها أُفرج عن الرهائن من المشايخ وباقي المحبوسين ومن ضمنهم السيد علي الورداني، بعدها شرع الفرنساوية الذين أتوا مصاحبين الحملة في نقل وبيع أمتعتهم، وخيولهم، ونحاسهم، وجواريهم، وعبيدهم، وفي مساء نفس اليوم أنزلوا عدة مدافع من القلعة وكذلك من قلعة باب البرقية مع أمتعة وفرش وبارود.

بعد ذلك بأربع أيام خرج محمود مع والده ناحيه شبرا، ورأى هناك الإنجليز في صحبتهم قبطان باشا في الجهة الغربية؛ حيث نُصب هناك جسر على البحر من المراكب المرصوصة من صنع الإنجليز، من ألواح شديدة الثقل، لها درابزين من الجهتين، ملصوق عليه شروط الصلح التي تتعلق بالعامة باللغتين العربية والفرنسية، بعد أن أُشيعت الأخبار في اليوم السابق عن رحيل الفرنساوية ونزولهم من القلاع، وتسليمهم الحصون، وبات الناس يسمعون لغط العساكر العثمانية وكلامهم ووطء نعالاتهم من جديد في المحروسة، كأن الله لم يجعل المحروسة تبيت ليالٍ عدة دون دخلاء.

لم تمض أيام حتى وصل جيش العثمانيين والإنجليز على أبواب المحروسة، دب الذعر في أوصال الجنرال بليار نائب مينو، وعقد مع الطرف الآخر على الفور معاهدة لمغادرة الجيش الفرنسي أرض مصر والمحروسة في أقرب زمان، وسلم بعدها مينو سيفه مهزومًا في الإسكندرية، وعاهد العثمانيين والإنجليز

في السادس والعشرين من أغسطس لنفس العام على مغادرة مصر، أقام المصريون الاحتفالات والأفراح وهم يشاهدون الفرنساويين يغادرون المحروسة ومبحرين من الإسكندرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٦-

القاهرة ١٨٠٤

ازداد ضيق خورشيد باشا من محمد علي بعد ما حدث، وبعدما تأكد عن عدوله عن السفر، وأيقن أن شعبية الرجل بين الشعب وسطوته بين الجنود ازدادت أكثر، فكر أن يبعده بألبانييه عن المحروسة، ويستفيد من سيطرته على الجنود في نفس الوقت، فأمر بتجهيز حملة تطارد المماليك وجعل قيادة ثلاثة آلاف رجل من مشاة وفرسان تحت قيادة محمد علي، وسيرهم لينضموا إلى سلحداره الزاحف بمقدمة الجيش المكونة من أربعة آلاف جندي، كما أرسل يستدعي جنودًا آخرين من سوريا وغيرها ليكونوا من ضمن رجالاته وجنوده.

العقلاء من المماليك لما عرفوا بأمر الجيش الضخم المتجه ناحيتهم سعوا إلى المصالحة بين البرديسي والألفي، واتفقوا على تدبير لقاء بينهما في جزيرة قبالة طرة ليتموا الصُّلح، وأقاموا هناك خيام أُعدت لهذا الغرض، وصل البرديسي أولًا، بعده وصل الألفي، لكنه لما حط على شاطئ النيل رأى ثعبانًا مقطوعًا إلى نصفين، فتطير وظن أن في الأمر خيانة وغدرًا، فعاد إلى موقعه ولم يتمم الصلح، واستمرت الفرقة بينهما.

في تلك الأثناء تقدمت فرقتا محمد علي والسلحدار حتى بلغتا المنيا، التي يسيطر عليها المماليك، فحاصراها واستوليا عليها، بعد عناء شديد دام ستة وخمسين يومًا. وفى المحروسة لم يكف خورشيد باشا عن مراسلة الأستانة وسعيه الحثيث إلى التخلص من القوات الألبانية، باستحضار قوات أخرى تحل محلها، وبالفعل وصل ثلاثة آلاف من القوات الجديدة، تعرف باسم

الدلاة أو الدالتية وتعني المجانين بالتركية، وسُموا بذلك لشهرتهم بالبسالة المتناهية، كان معظمهم من الأكراد، سلاحهم سيف وطبنجتان وقرابينة، يلبسون على رؤوسهم طراطير مخروطية الشكل من الجوخ الأسود، لا حافة لها وتُشد على الرأس بعصابة.

بلغ خورشيد باشا نبأ وصولهم إلى التخوم المصرية، فخرج بنفسه لمقابلتهم ودخل بهم القاهرة من باب النصر، بدأت باكورة أعمالهم بالانقضاض على الطرق وعلى المارِّين عليه وعلى أرباب الدكاكين، خطفوا النساء والمردان ونهبوا التجار، ونشروا الفزع والرعب في طرقات المحروسة، لم يستطع خورشيد باشا السيطرة عليهم منذ البداية، ولا الوقوف أمامهم بعد ذلك لما بدأوا في طلب مرتباتهم في غلظة دون تقدير لمكانته كوالي على القطر أو كقائد لهم، ولم يكن أمام الباشا للإجابة على طلبهم، غير فرض خمسمائة كيس على التجار الذين أرادوا حرسًا للذهاب إلى ينبع، من أجل إعطائهم ذلك الحرس، وعلى اليهود مائة وعشرين كيسًا، وألزم تجار السويس بما يوازي المبلغين معًا.

عرف محمد علي بما حدث في المحروسة، من وصول الدلاة والفوضى والفزع الذي نشروه، وفهم على الفور ما حمل خورشيد باشا على إحضارهم، فاتفق مع حسن باشا زميله على العودة، واتخذا طريقهما مع جنودهما إلى المحروسة، سقط الرعب في قلب خورشيد لما شاع نبأ عودة محمد علي بين الناس حتى وصله وهو على عرشه في القلعة، جلس في كرسيه مغتمًا حائرًا ماذا يفعل، لا يدري ماذا يقرر، يضرب أخماسًا في أسداس، لكنه ما لبث أن أرسل يستدعي المشايخ ونقيب الأشراف السيد

عمر مكرم والوجاقلية وأرباب الديوان، ليكونوا جواره ضد محمد علي وحسن باشا، فيستقوي بهم عليهما، أخبرهم عن عودة محمد علي وحسن باشا من الصعيد، وقال في غضب لم يخف الاضطراب الذي يملأ أحشاءه:

- إنهم يعودون إلى المحروسة بقواتهم دون إذن مني، ويضمران في نفسهما الشر لي وللبلاد، ولقد استدعيتكم اليوم لتكونوا معي ضدهما، ليعودا من حيث أتيا يستكملا معاركهما ضد المماليك، أو يعودا إلى بلادهما، أو أوليهم ولايات خارج القطر المصري إن أرادوا، ولدي أمرٌ من السلطان بذلك.

بعد نقاش وجدال طال، اتفق الحضور وعلى رأسهم السيد عمر أفندي مكرم، أن يبيت في القلعة كل ليلة اثنان من المتعممين، واثنان من الوجاقلية، وتحرك الدلاة بأسلحتهم ومدافعهم ناحيتي طرة والجيزة للوقوف في وجه القادمين.

كعادة محمد علي في التصرف بدهاء الثعالب في كل معاركه، لم يقابل الدلاة في معركة يخسر فيها بعضًا من جنوده وقواته سواء انتصر فيها أو خسر، بل أرسل لهم رسالة من بضع كلمات:

- لم آت مخالفًا الأوامر، ولم آت للحرب، بل أتيت لطلب مرتبات القوات.

وأرسل مع رسوله هدايا، قبلها الدلاة، الذين رأوا أن محمد علي وحسن باشا محقان في طلباتهما ما داما لم ينويَا غدرًا، فلم يتعرضوا لهما ولا لقواتهما، وتركوهما يدخلان القاهرة مع جنودهما، ونزل كلٌّ منهما في بيته.

أرسل خورشيد باشا رسولًا إلى الدلاة مع رسالة يؤنبهم فيها ويعنفهم على ما فعلوه وعلى مخالفتهم أمره بقتال محمد علي

وحسن باشا ومنعهم وقواتهما من دخول عاصمة البلاد، فما كان ردهم إلا برسالة تحمل بين كلماتها أكثر مما تفصح:

- إنكم إذا منعتم وحاربتم من يطلب علائفه ومستحقاته وحقوقه، فكذلك تفعلون معنا إذا خدمناكم زمنًا وطلبنا علائفنا.

ظل الدالاتية في أماكنهم ناحيتي طرة والجيزة لا يتحركون، كثر منهم العسكر ومن غيرهم الذين يأكلون الزرع والقوت، ويسرقون ما يجدونه مع الفلاحين، ويخطفون النساء، والأولاد، والمماليك من الأقاليم، انتشرت الفوضى حتى مداخل المحروسة حتى إن بعض العساكر تجمعوا عند أبواب العاصمة يأخذون من الداخل والخارج الأموال عنوة، بينما العرب والبدو يغيرون على القرى ينهبونها ويحرقون الأجران ويسبون النساء، ويضربون ويقتلون من يتعرض لهم بدفاع، الناس رأوا أن المشايخ سببٌ لما يحدث؛ لأنهم اتفقوا مع خورشيد باشا ضد محمد علي، وكان بإمكانهم رفع البلايا عنهم لو قدروا الأمور بأفضل مما فعلوا واختاروا صالح الشعب بدلًا من صالح خورشيد باشا الذي بان أنه لا يريد إلا إخراج محمد علي من البلاد وجمع الأمول من الناس، ولا يفكر في حالتهم التي زادت بؤسًا وشقاءً، زاد فقر العامة من الناس وجوعهم ومعاناتهم اليومية، أغلقوا حوانيتهم في إضراب، وأوحوا للأطفال أن يسيروا في الشوارع والطرقات يسبون المشايخ ويشتموهم، وإذا لاقوهم رجموهم بالحجارة، زاد تأكدهم من نوايا خورشيد باشا تجاه محمد علي لما استصدر أمرًا من الأستانة بتعيين محمد علي واليًا على جدة، وكان الرجل على حاله في التقرب للعامة من الناس والمشايخ وتأدية صلاته معهم، وحمايتهم من أي تعدٍّ من جنوده، الذين لم يؤخر عنهم مرتباتهم عن أوقاتها، فالتزموا طاعة أوامره وتنفيذها، فلما أتى

لمحمد علي فرمان التولية على جدة أبدى طاعته للفرمان وأبدى للناس قبوله المنصب، لكنه رفض الصعود إلى القلعة ليقلده خورشيد باشا المنصب فيها لما طُلب منه ذلك، خشية أن يدبر له مكيدة ويفتك به، وأرسل إلى خورشيد باشا يدعوه ليقرأ الفرمان في المدينة في بيت الشيخ سعيد أغا، فنزل في ضيق، رغبةً منه في إنهاء الأمر ورحيل محمد علي إلى جدة، وألبسه هناك فروة المنصب الجديد وقاووقه - قلنسوةٌ طويلة من ملابس الرَّأس للفُرْس، خرج محمد علي بعدها راكبًا فرسه ليعود إلى داره بالأزبكية، تعالت أصوات الجنود من حوله أنهم يريدون علائفهم ومرتباتهم المستحقة، وكان أمرًا قد رتبه مع بعضهم ليهيجوا الجنود أثناء وجود خورشيد باشا في بيت الشيخ سعيد أغا، فرد عليهم محمد علي وهو يشير للبيت:

- الباشا بالداخل طالبوه بعلائفكم وبما تريدون.

أحاط العسكر الأرناؤوط بالبيت وارتفعت أصواتهم، ومنعوا خورشيد باشا من الخروج، فظل محبوسًا فيه حتى هبط الليل عليهم، ثم تمكن من التسلل تحت جناحه وعاد صاعدًا إلى القلعة، صباح اليوم التالي أرسل إلى الدلاة يبيح لهم الحصول على كل ما في مديرية القليوبية، بدلًا من صرف مرتباتهم حتى يضمن نصرتهم إذا احتاج إليها ضد الجنود الأرناؤوط، فنشروا الفزع والرعب فيها سلبًا ونهبًا، ووصلت رسائل الخوف إلى أهالي المحروسة.

في بيت القاضي اجتمع المشايخ مع عدد ليس بالقليل من المتعممين والعامة حتى غصت بهم الدار، وامتلأ صحنها، وعلا الهتاف من الحناجر يرج الأنحاء:

- شرع الله بينا وبين الباشا الظالم.

أرسل القاضي في طلب المتكلمين في الدولة إلى مجلس الشرع، وكتبوا عريضة بشكاويهم ومطالبهم رُفعت إلى الوالي، الذي أسرع في استدعاء القاضي ونقيب الأشراف والعلماء إليه في القلعة ليشاورهم في الأمر، شعروا أن في الأمر مكيدة مدبرة لهم، وتيقنوا من هذا لما أخبرهم أحد ممن يواليهم لديه، أن الوالي أعد لهم من يغتالهم وهم في طريقهم إلى القلعة، فتجمعوا معًا وذهبوا إلى محمد علي عند داره في الأزبكية، أيقن محمد علي أن اللحظة المناسبة ليعتلي عرش القطر قد أزفت وحان ميقاتها لما رأى تجمع الناس المهيب حول بيته ومنتشرين في الطرقات المؤدية إليه، تعالت الأصوات من بينهم تصرخ:

- نريد عزل هذا الوالي.

- لا نريده واليًا علينا وعلى البلاد.

رد أحد الشيوخ لما سأل محمد علي من تريدون عليكم واليًا:

- لا نرضى إلا بك واليًا علينا.

كأن المصريين على طول زمانهم لا يرضون إلا بحكم الغريب، الذي أتى من وراء البحار أو من خلف الجبال، لا يرون في أنفسهم إلا توابع، ينساقون خلف كل من يخدعهم، أو كل من يبتسم لهم ويداهنهم، لكن من كان على وعي فهو مدرك أن الدولة العثمانية لم تكن لتقبل بتولية أحد المصريين على عرش القطر المصري، حتى لو كان السيد عمر أفندي مكرم نقيب الأشراف، ولأن محمد علي داهية من دواهي الزمان ..

رفض..!!!

متحججًا أن بعض الناس وربما أولي الأمر في الأستانة، وعلى رأسهم الباب العالي، ربما يعتقدون أنه المحرض على ما يحدث، وعلى خلع خورشيد باشا عن ولايته، ارتفعت الأصوات من حوله مستنكرة ترفض قوله ورده، ارتفعت وزادت الأصوات التي تلح عليه وربما ترجوه قبول ولاية أمرهم، أحضر بعض الناس كركًا وقفطانًا، وقام السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوي من مكانهما، وألبساه إياه، ونادوا بذلك في المدينة، وأرسلوا من يخبر خورشيد باشا في القلعة بما حدث، وطلبوا إليه اعتزال الأمر ومغادرة القلعة والرحيل عنها، فرد إليهم رسولهم يقول:

- أنا مُولًّى من طرف السلطان، لا أُعزل بأمر الفلاحين، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة.

وشرع يعد العدة للقتال والمقاومة، انضم إليه عمر بك وصالح أغا أق قوش من الزعماء الألبان، اللذان رفضا ما يحدث، وأرسلا للمشايخ يقولان في خطابهما:

- أرونا سندًا شرعيًا في ذلك.

ثم أرسل الثلاثة معًا إلى حسن باشا لينضم إليهم ضد محمد علي، وبعث خورشيد باشا يستنجد بسلحداره في المنيا، ويدعو المماليك للتحالف معه، وإلى الدلاة ليدافعوا عنه، في هذه الأيام حضر محمد بك الألفي مع أُمرائه وعربانه، وانتشروا جهة الجيزة، واستقروا بالمنصورية بالقرب من الأهرام، وانتشر أتباعه إلى الجسر الأسود، وأرسل مكاتبة إلى السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي ومحمد علي يطلب فيها جهة يستقر فيها هو وأتباعه،

فأجابوه بأن يختار له جهة يرتاح فيها، ويتأنى حتى تهدأ أمور البلاد والنزاع القائم بينهم وبين خورشيد باشا.

استمر خورشيد باشا ومن معه على الخلاف والعناد وعدم النزول من القلعة، لكن ما زاد استفزازهم أنه أرسل إلى القاضي يذكره أن العسكر الذين عنده بالقلعة لهم جامكية منكسرة عن المدة الماضية، وطالبهم بإرسالها، وطلب أن يعينوا لهم وله معهم مصاريفهم حتى حضور جواب من السلطان، فأرسل القاضي رسالة كتب فيها:

- «أما ما كان من الجامكية المحولة، فإنها لازمة عليكم من إيراد المدة التي قبضتموها في الفترة السابقة، ومن قبيل ما ذكرتموه من عدم ضرر الرعية، فإن إقامتكم بالقلعة هو عين الضرر، فإنه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة يطالبون نزولكم أو محاربتكم، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور، وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم».

وزع محمد علي جنوده وحاصر القلعة بعساكره من كل الجهات، فأرسل عساكره في جهات الرُّميلة والحطابة والطرق النافذة، ناحية باب القرافة والحصرية وطريق الصلبية وناحية بيت آقبردي، وجلسوا بالمحمودية والسلطان حسن، وأقاموا المتاريس في تلك الجهات، ومنعوا الطلوع والنزول من وإلى القلعة، وفي داخلها أغلق أهل القلعة الأبواب، وانتشر العامة من الناس في طرقات المدينة مع السيد عمر مكرم والمشايخ والوجاقلية بالأسلحة والعصي وبعض النبابيت حتى ملوا بركة الأزبكية، لازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات وسيروا أحزابًا وطوائف يحملون المشاعل، يطوفون بالجهات والنواحي، وهتف الناس في مسيراتهم:

- يا رب يا متجلي.. أهلك الباشا العثمانلي.

ثم حرروا إعلامًا وقعه المفتي ليضفوا شرعية على ما يفعلوه، حاول خورشيد باشا أن يستميل مشايخ العلماء ونقيب الأشراف ناحيته من جديد، فأرسل له عمر بك رسولًا يدعوه للتراجع عما فعلوه، لتعود الأمور إلى نصابها، وقف بين أيديهم وخاطبهم قائلًا:

- كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم، وقد قال الله: {أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}.

رد عليه نقيب الأشراف:

- إن أولي الأمر من العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، أقروا أن صاحبك رجل ظالم، ومن قديم الزمان جرت العادة أن أهل البلد يعزلون الولاة حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور.

حاول عمر بك أن يخرج من موضوع ولاة الأمر ويصرفهم إلى شيء آخر يحملون معه الوزر والخطأ، فعلا صوته متسائلًا في اعتراض:

- كيف تحاصرونا وتمنعون عنا الماء والأكل، وتقاتلوننا؟! أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟!

فاجأه السيد عمر مكرم بأن جاوب دون تردد:

- نعم.. فقد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم؛ لأنكم عصاة.

صرخ عمر بك:

- كافر.. إن القاضي هذا كافر.

فقال النقيب:

- هو تركي مثل خورشيد باشا، ومعيَّن من قِبل السلطان أيضًا، فإذا كان قاضيكم كافرًا!، فماذا بكم أنتم؟!

مضت ليالي المولد الشريف، ولم يشعر بها أحد..

ولم يحتفلوا بها.

زاد التشديد في الحصار، وتخلى الدلاة عن مولاهم، وحضر كبارهم إلى محمد علي واعترفوا بولايته، وأعلنوا انفضاضهم الكامل عن تبعية خورشيد باشا، فخلع عليهم محمد علي باشا خِلعًا وكسوات، ثم ارتحلوا من قليوب يريدون الذهاب إلى محاربة الألفي وأتباعه ومن معهم من العرب، بعد أن وصلت أخبار أن الألفي وأمراءه أفحشوا في نهب البلاد ونهب الأموال من العباد ما لم يُسمع بمثله ولم يتقدم نظيره من قبل، فساروا على البلاد والقرى ينهبون ويقتلون ويفسقون في النساء والأولاد، ولم يقوموا بما وُجهوا إليه.

وصل إلى مصر مرسوم مع صالح أغا القابجي، بتأييد محمد علي على ولاية مصر، وعزل خورشيد باشا، وتسفيره إلى الإسكندرية مكرمًا حتى يتعين على ولاية أخرى، بعد أن أرسل محمد علي بالهدايا النفيسة، ليتم تأييده فيما فعل بعد تردد الديوان العثماني، الذي انقاد في نهاية الأمر إلى نصائح السفير الفرنسي بعد أن أوصاه ماتييه ديلسبس القنصل الفرنساوي في مصر بمحمد علي.

عاد خورشيد إلى مفاوضة المماليك، بعد أن رجع سلحداره من المنيا، واتفقوا معًا على العمل في وجه محمد علي، لكن محمد

علي كان يقظًا، فبرز للمماليك وردهم القهقرى، ثم تحول إلى سلحدار خورشيد، وأوقع به.

وسط المعارك الدائرة وردت الأخبار بوصول قبطان باشا إلى ثغر الإسكندرية وأبي قير، وفي صحبته مراكب كثيرة تحمل ألفين وخمسمائة مقاتل، اجتمع المشايخ واتفقوا على كتابة عرضحال يرسلونه مع بعض المتعممين، ثم اختلفت آراؤهم في ذلك، بعد يومين ورد خبر بورود سلحدار القبطان إلى شلقان، فتراجعوا عن أمر العرضحال، بعد أيام وصل السلحدار إلى بولاق، وركب من هناك إلى المكان الذي أُعد له للنزول فيه، ومعه رسالتان، الأولى إلى خورشيد باشا، فيها أمر له بالنزول من القلعة لحظة وصوله الرسالة، والرحيل إلى الإسكندرية، والثانية إلى محمد علي بإبقائه في القائمقامية حيث ارتضاه الناس كافة والمشايخ، مع توصية بحسن السلوك والرفق بالرعية، وأن يُقلد من قِبله باشا على عدد من العسكر ليرسلهم إلى بلاد الحجاز لمحاربة الوهابيين.

أرسلوا إلى خورشيد باشا جوابه فرفض النزول من القلعة وأرسل رده:

- ليصعد إليَّ السلحدار الذي وصل ليخاطبني مشافهة.

في صباح يوم الأربعاء قبض المحافظون على خيَّال مُقبِل من جهة مصر القديمة متخذًا طريق الصعود إلى القلعة، وكان يحمل أوراقًا معه، اقتادوه إلى محمد علي الذي نظر في الأوراق فوجد فيها خطابًا إلى خورشيد باشا من علي باشا وياسين بك الموجودَين بالجيزة، موضح فيه خطة للقتال:

- «في صباح يوم الجمعة نطلق من الجيزة سبعة صواريخ تكون إشارة بيننا وبينكم، فعندما ترونها تضربون بالمدافع على بيت

محمد علي، ونحن نعبر إلى مصر القديمة ويصل البرديسي من خلف الجبل إلى جهة العادلية، ويأتي باقي المصريين من ناحية طرة ويقوم من بالبلدة على من فيها فيشغلون الجهات، ويتم المراد بذلك».

اطَّلع محمد علي على الخطة في حضور القاضي الذي شاط غيظًا على ذلك الرسول الذي اتضح أنه كرديٌّ، ورغم أنه استجار بالقاضي، إلا أنه لم يُجرْه، وأمر فأخذوه وقتلوه ورموه ببركة الأزبكية.

في يوم الخميس أحضروا سبعة رؤوس وعلقوها على السبيل المواجهة لباب زويلة، وعلى أحدها ورقة مكتوبة أنها رأس الألفي بك والأخرى سلحداره، ملامح الوجوه كانت متغيرة، والرؤوس مجوفة ومحشوة بالتبن، فلم يصدقهم أحد، لكن الأخبار وصلت أن الألفي ارتحل من دمنهور، وهناك هجم على سليمان كاشف البواب ونهب ما معه، ثم وصلت أخبار أخرى أنه قُتل، والبعض ادعى أنه هرب إلى البحر، وهرب باقي أتباعه إلى جهة المنوات جنوب الجيزة.

بعد ذلك حضر صالح أغا القابجي إلى السيد عمر أفندي مكرم، وأخبره أنهم اتفقوا مع خورشيد باشا على موعد في عصر غد من يوم السبت، إما أن ينزل أو يستمر على عصيانه، وفي الميعاد أفرج خورشيد باشا عن ضُعفاء الرعية الموجودين بالقلعة، مع النساء بعدما أخذوا ما معهم من الأمتعة والثياب، وأبقى عنده الشبان والأقوياء من الرجال الكبار للمعاونة في الأشغال، وامتنع هو عن النزول، صعد بشير أغا القابجي وصالح أغا السلحدار إلى القلعة مرة أخرى، للتفاوض مع خورشيد باشا، ثم نزلا وفي صحبتهم كتخدا أحمد باشا إلى بيت سعيد أغا الوكيل، واتجهوا

معًا إلى بيت محمد علي باشا، ثم صعد صالح أغا وأربعة آخرون، ثم نزلوا مرة أخرى للتفاوض، ترددوا في الذهاب والإياب مرات عدة، وبات الكتخدا ليلته في المدينة، ثم انتهى الاتفاق بينهم على نزول خورشيد باشا يوم الإثنين وتسليم القلعة والجبخانة.

جُمع لهم من جِمال الشواغرية ما يقرب من مائتي جَمَل، نقلوا عليها متاعهم وفرشهم، وأنزل الباشا حريمه إلى بيت مصطفى أغا الوكيل، ونزل كثير من عساكره وسط الخدم متخفين ليهربوا بعد أن غيروا من شكلهم وهيئتهم، ذهب أغلبيتهم بعزالهم إلى بولاق، بعد أن نهبوا بيوت الرعايا التي بالقلعة، وأخذوا ما وجدوه فيها من المتاع، في الثالث من أغسطس ١٨٠٣ سار حسن أغا بجملة من العساكر إلى القلعة، وتسلمها من خورشيد، ونزل الباشا المخلوع من باب الجبل في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي إلى جهة باب النصر، ومر من خارجه إلى جهة الخروبي، وذهب إلى بولاق يصحبه كتخدا محمد علي وعمر بك وصالح أغا أق قوش، وفي التاسع من نفس الشهر تحرك على ظهر سفينة من بولاق مرتحلًا إلى رشيد، ليجلس محمد علي باشا على سُدة حكم ولاية مصر المحروسة.

رفرفت البيارق الإنجليزية من جديد أمام ساحل الإسكندرية في مارس ١٨٠٧، لكن هذه المرة لم تكن رفيقة، بل أتت غازية، تحت قيادة رجل ممتلئ البدن بشعر أصفر قصيره، في بزة عسكرية حمراء وبنطلون كاكي، يدعى الجنرال فريزر، استولت الحملة على الإسكندرية سريعًا، ولما وصلت الأخبار إلى المحروسة بذلك، هب السيد علي الورداني من مكانه دون حتى

أن يحزم أمتعته معه، وقرر السفر إلى الإسكندرية للدفاع عنها مع أهلها.

يتذكر محمود جيدًا لحظتها، كانوا جالسين في الورشة لما وصلت الأخبار، نظر إليه أبوه في عينيه، وأمسكه من كتفيه وغرس فيهما أصابعه في قوة وهو يحدثه كأنه شعر أنه لقاؤه الأخير بولده، قال دون أن تفارق عيناه عينى ولده:

- يوم موتك هو اليوم الذي يجب أن تعيشه في قوة، وتحارب من أجل أن تحياه.

بعدها أغلق الورشة وناوله المفاتيح وأمره بالعودة للبيت بعد أن قال له:

- من اليوم أنت هنا مكاني.

في طريقه إلى الإسكندرية وصلته الأخبار أن الإنجليز يزحفون إلى رشيد، غير مساره واتجهه إلى رشيد، هناك قابل صديقه السيد محمود العسال الذي حدثه بأن الإسكندرية وأهلها في أشد حالات الكرب والاضطراب والهياج، من لحظة أن نزلت بها قوات عسكرية واحتلت المدينة دون قتال، جاءتهم الأخبار عن طريق الشيخ المسيري أن قائد هذه الحملة يدعى فريزر، كان أغلب الناس يعتقدون أن الإنجليز حلفاؤهم منذ أن حاربوا الفرنساويين معهم من قبل، وكان معظمهم يتوقع عودة الفرنسيين مرة أخرى في يوم ما، خصوصًا بعد صداقتهم الجديدة للترك، لكنهم فوجئوا لما تيقنوا أن العمارة إنجليزية.

وصل ما يقرب من ألفى مقاتل إنجليزى بقيادة الجنرال ويكوب، عازمين على احتلال رشيد واتخاذها قاعدة حربية، وصلت الأخبار إلى الأهالي من ثغر رشيد، في صبيحة الثلاثاء الواحد

والثلاثين من مارس، أن الإنجليز وصلوا إلى رشيد، أصبحت البلدة في قلق واضطراب بعد أن شاهد البعض ومعهم السيد علي الورداني ومحمود العسال الجيش الإنجليزى مقبلًا على المدينة بعدته وعتاده من فوق مئذنة مسجد زغلول، لم يكن حول رشيد من الأسوار إلا أطلال عصفت بها الرياح، الشوارع كانت خالية، كأنها أخليت لهم، أو أن أهلها خافوا وارتعبوا من الزحف الإنجليزى ناحيتهم، فلزموا ديارهم كالفئران المذعورة، استحث الخطباء فوق مآذن المساجد والجوامع الأهالي على الدفاع، ثارت الحمية في قلوب الناس وغضبوا وحمل منهم من يملك بندقية أو سيفًا أو حتى سكينًا وخرجوا في جموع زاخرة مشمرين للدفاع عن المدينة، دخل الإنجليز رشيد في ساعة نهار بغير قتال، أهل رشيد ومن معهم من العساكر كانوا مختبئين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت، فلما وصلت العساكر الإنجليزية داخل البلدة هجموا عليهم من كل ناحية وضربوهم، رجالٌ، ونساءٌ، وشيوخٌ، وحتى أطفال، بعصيهم وحجارتهم، تقدمهم السيد علي الورداني والسيد محمود العسال وغيرهم بين تهليل وتكبير تحت قيادة علي بك السلانكي، حتى النساء كانوا يلقون من بيوتهم بالحجارة والماء المغلي على الجنود، والأطفال يرشقونهم بنبالهم المحشوة بالحصى الصغير، وفقأوا أعين بعض من الجنود الإنجليز، استمرت المعركة لساعات استشهد فيها السيد علي الورداني برصاصة اخترقت جبهته، خر على أثرها صريعًا على الفور.

لم يصمد الإنجليز أمام غضب الشعب الجامح عليهم فترة كبيرة، فما لبثوا أن ألقوا ما بأيديهم من أسلحة على الأرض، مستسلمين طالبين الأمان، لكن الغاضبين من الأهالي ذبحوا

منهم الكثير، وأَسروا الباقين، وفر البعض ناحية دمنهور، قابلهم هناك كاشف دمنهور، فحاربهم جوارها وأخذ منهم بعض الأسرى وأرسل البشارة بالنصر إلى المحروسة، رأى فريزر أنه من العبث مواصلة القتال فتحصن بالإسكندرية، وأرسل إلى محمد علي يطلب الصلح في مقابل أن يجلو عن الإسكندرية، في تلك الأثناء كان محمد علي يستعد للزحف على الإسكندرية، سار بجيشه من معسكره في إمبابة متوجهًا إلى الرحمانية ومنها إلى دمنهور في الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٠٧، وهناك التقى بالجنرال شربروك الذي فوضه فريزر لإبرام الصلح بين الطرفين المصري والبريطاني.

وبعد مفاوضات قصيرة عقد الطرفان معاهدة دمنهور في الرابع عشر من سبتمبر في نفس العام، والتي بمقتضاها جلت القوات البريطانية عن الإسكندرية، ثم أقلعت السفن البريطانية بما تبقى من جنود الحملة إلى صقلية، وضُمت الإسكندرية إلى محمد علي بفرمان سلطاني بعد أن كانت تتبع مباشرة السلطان العثماني وحاكمها يعيَّن من قِبلِهِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٧-

من اللحظة الأولى التي جلس فيها محمد علي على عرش الولاية المصرية، وهو يعلم أن القادم في الطريق أصعب وأشد خطورة مما مر عليه من قبل، وأن المواجهات التي عليه مجابهتها ستكون أشد خطرًا مما واجه، خصوصًا اللحظة التي يجب فيها إبعاد من ساندوه وساعدوه للوصول للحكم؛ ليكون بمفرده صاحب الأمر الأول والأخير، وليكون الآمر الناهي الوحيد في هذه البلاد.

كان ما يزال شابًا فتيًا، لحيته السوداء تملأ وجهه، وشاربه كث، ممتلئ الجسم قليلًا، لكن تبدو عليه قوة البدن والعصب، بالطبع كان من ضمن حساباته أن الباب العالي إلى حد ما مرغم عليه من قِبل الشعب، وأن السلطان لم يوليه الولاية بكامل الرضا، وأولى أمارات عدم الرضا كانت عدم رحيل قبطان باشا وبقاءه في الإسكندرية، متربصًا بأي أحداث ليتدخل، بينما الألفي رجل الإنجليز في البلاد قابع في مكانه بالجيزة يأبى الاعتراف بمحمد على واليًا، ويحاول أن ينضم بمماليكه إلى قوى سلحدار خورشيد باشا، وإلى الألفين وخمسمائة مقاتل التابعين لقبطان باشا، لينقضوا على محمد علي في المحروسة وينزعوه من القلعة، الإنجليز كانوا يساندونه ويؤيدون رغبته، وأبدوا نيتهم أنهم على استعداد لإنزال قوات من جيشهم ليتَّحدوا مع المماليك.

لكن الفرنساويين دعموا موقف محمد علي وحذروا قبطان باشا من الانصياع لتحريض الألفي ودسائس الإنجليز، ليس فقط لعدائهم الطويل معهم، ولكن بتأثير كتابات القنصلين الفرنساويين في مصر ماتييه ديلسيبس ودروفتي، إلى السفير

الفرنسي في الأستانة الذي ساند محمد علي لدى رجال الديوان العثماني، بقوله إن محمد علي محبوب من المصريين كما أنه يعمل على تجهيز حملة لمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد الوهابيين، عضد محمد علي باشا كلامه وموقفه بإغراق قبطان باشا ورجال الديوان العثماني بالهدايا، رغم موقف الدولة المالي الصعب، واستغل هدوء موقفهم معه بأن انقض على سلحدار خورشيد باشا وأجبره على اللحاق بمولاه في الإسكندرية، بعد ما أجبره على تسليم جنده والتخلي عن مهماتهم.

هدوء الباب العالي لم يستمر طويلًا، فقد كان من ضمن خططهم الدائمة، عدم إبقاء والي على القطر المصري أكثر من عام، حتى لا تقوى شوكته، ويصير غُصة في حلقهم، وشوكة في ظهرهم، فأرسلوا موسى باشا مع ثلاثة آلاف جندي على ظهر عمارة عثمانية بقيادة صالح باشا، ألقت مراسيها في الثغر، ومن هناك أُرسل إلى محمد علي برسول يحمل الفرمان القادم من الأستانة، يأمروه فيه بالتخلي عن الولاية لموسى باشا، والاستعداد للسفر لتولي ولاية سلانيك مكانه.

أرسل محمد علي باشا الرد مع القابجي، يعلن فيه موافقته وامتثاله لأوامر الباب العالي، لكن رحيله معلق بالجنود الذين يمانعون رحيله إلا بعد سداد متأخراتهم التي بلغت عشرين ألف كيس، ثم جمع قواده الذين تجاوز عددهم السبعين، وعرض عليهم الأمر، وأخبرهم أنه مضطر لطاعة الفرمان والرحيل، لكنهم أعلنوا رفضهم لرحيله، فرد عليهم في خطبة ألهبت حماستهم:

- أتريدون منعي من تنفيذ الأوامر التي صدرت إليَّ، أنتم لا تستطيعون رد الهجوم إذا وقع علينا، ما دام جنودكم يخالفون

النظام ويهاجمون الأهالي ويفتكون بهم، ويطالبوني بأجورهم كل حين، تُفضلون هناء الراحة على الحرب ومشقاتها، تتمتعون بما جمعتم من أموال، وأنا هدف لضربات أعدائنا، أنوء وحدي بعبء الأمور الثقيل، فإذا شئتم أن أبقى معكم، رفيقًا أمينًا وزميلًا صادقًا، مثلما كنت في الماضي، فأقسموا لي على القرآن الشريف بأنكم لن تتركوني ولن تتخلوا عني، وأنكم ستموتون إذا اقتضت الحال في سبيل قضية واحدة، هي قضيتنا جميعًا.

تعالت الهمهمات وتبادلوا النظرات فيما بينهم، ثم علا صوت أحدهم بالموافقة والتأييد لقول محمد علي، تبعه ثانٍ، وثالث، ثم رابع، حتى أعلن الجميع تأييدهم وموافقتهم لما طُلب، ولكي يجعلوه مقدسًا أحاطوه بسياج كما جرت إحدى العادات الألبانية القديمة، فأمسك اثنان منهم وكانا أكبر الموجودين سنًّا بسَيْف محمد علي من طرفيه ومداه، ومر الجميع فوقه واحدًا بعد الآخر، ثم جمعوا ألفي كيس أعطوها إلى محمد علي، ليرسلهم للأستانة، ويؤكد في رسالة يرسلها مع الأموال أنه جاد في تجهيزاته الحربية لمساعدتهم.

بعد انصرافهم أرسل في طلب السيد عمر مكرم، والشيخ الشرقاوي، وعرض عليهم فرمان الباب العالي، واتفقوا على إرسال مكاتبات للباب العالي يوضحون موقف الشعب من رغبتهم في بقاء محمد علي عن غيره، ويصفون الأمراء المماليك بالظلم، ويوضحون ما عانوه معهم من قبل، في المقابل لم يعد محمد علي باشا يخفي نيته ولا عزمه على البقاء والاحتفاظ بعرش الولاية المصرية، حتى أنه صرح لهم القول:

- أيظنون أن مصر دار حمام مفتوحة يدخلها من يشاء؟ إني قد اكتسبتها بحد حسامي، ولن أتخلى عنها إلا مكرهًا بقوة السلاح،

العثمانيون قوم يبيعون أنفسهم إذا وجدوا من يشتريها، فأنا سأشتريها، لقد فزت بالولاية وأنا على رأس خمسمائة جندي فقط، مقلقلي العزم، أفأتخلى عنها اليوم، ولدي ألف وخمسمائة بطل كلهم ولاء لي.

وأرسل إلى قبطان باشا رسالة مفادها أن الجند قد لا يطيعون أميرهم القادم، وقد يثورون إذا علموا باضطراره إلى الرحيل، فيعبثون بالأمن والنساء، وسموه رحيم لا يرضى بذلك.

هذه اللقاءات والتجمعات والمراسلات كانت تحدث بينما القنصل البريطاني بالإسكندرية يجند أروامًا (يونانيين) وإيطاليين في الإسكندرية ويرسلهم مددًا إلى الألفي الذي وعد الأستانة بألف وخمسمائة كيس، بضمانة الخزينة البريطانية، إذا هي أخرجت محمد علي من مصر، وكان حينها الألفي يحاصر دمنهور.

موسى باشا فاض به الصبر، واستمر في إلحاحه على القبطان باشا بتنفيذ أوامر الديوان الذي أتى بها معه من الباب العالي، والسفير الفرنساوي في الأستانة يحاول تدعيم الرسول الذي جاء بالهدايا والأموال من محمد علي باشا، ويعضدها بكل النفوذ الذي كان يستمده من نابليون الأول، حاول الديوان أن يتخلص من عبء القرار، وبعث لقبطان باشا موكلًا إياه بكامل التصرف في الأمر، فكر في الأمر كثيرًا ثم أرسل للألفي يطالبه بالألف وخمسمائة كيس الذي وعد بها، فجاءه الرد بأنه لم يتفق مع باقي الأمراء، ويرجوه أن يقبل منه وحده فقط خمسمائة كيس، طوح القبطان باشا بالمكاتبة في الهواء غاضبًا وهو يصرخ:

- الألفي يهزأ بلحية الصدر الأعظم ولحيتي.

وبعث على الفور لمحمد علي ليتفق معه، واتفق الرأي على دفع محمد علي أربعة آلاف كيس سنويًا، ليوافق الديوان والقبطان ببقائه مقابل ذلك في منصبه، على أن يرسل العلماء والأعيان التماسًا بذلك في عريضة لكي لا يقال إن ذمة الديوان اشْتُرِيَتْ. كُتبت العريضة وسافر إبراهيم بك ابن محمد علي بها، حاملًا هدايا فاخرة إلى أمير البحر، وبقي رهينة هناك حتى يفي أبوه بتعهده المالي، بعدها أرسل القبطان باشا كتخداه إلى القاهرة بالمرسوم المثبت لمحمد علي في ولايته، على أن يمتنع عن محاربة المماليك ويتصالح معهم.

دفع محمد علي الأربعة آلاف كيس، وحضر بعدها قابجي من الأستانة يحمل معه فرمانين، أحدهما يقر ببقاء محمد علي على ولاية القطر المصري، والثاني يأمره بتسفير الحج والمحمل وإرسال ستة آلاف إردب برًّا إلى جدة، بذلك تخلص محمد علي من مشاكله التي تؤرقه من ناحية الباب العالي، بعدها دبر محمد علي أولى مكائده للمماليك، بأن أرسل بعض رجاله يعرضون على المماليك أنهم سيُدخلوهم إلى المحروسة مقابل المال، ودعموا كلامهم بمكاتبات ممهورة بتوقيع السيد عمر أفندي مكرم وأكابر الشيوخ، فظن المماليك أن الشيوخ عادوا لصوابهم وأقبلوا عليهم يريدون عودة الأمور إلى ما استبق عليه الحال من قبل، فاتفقوا على اليوم الذي يخرج فيه الوالي للقيام بمراسم العيد، ليدخلوا المدينة، كان محمد علي قد أمر بترك أبواب المدينة مفتوحة على مصاريعها، وأمر بقطع الخليج في الليل، دخل المماليك مطمئنين لهدوء الأجواء والحال، يتبعهم جِمال عديدة وأحمال، اتجه بعضهم إلى الأزهر قاصدين بيت السيد عمر مكرم، فأبى أن يستقبلهم في داره، فغيروا وجهتهم إلى الشيخ

الشرقاوي، ولحق بهم السيد عمر مكرم هناك، ذهب الفريق الآخر إلى جهة حارة اليانسية متخذين باب زويلة طريقًا، فقابلهم عساكر هناك أطلقوا عليهم الرصاص، فتراجعوا مسرعين، فر البعض ناحية باب النصر فوجدوه قد أُغلق، فترجلوا عن خيولهم، ومن تسلق منهم الأسوار نجا بحياته، وتفرق الباقون في العطوف والحارات، واحتمى الآخرون بجامع البرقوقية، نجح اثنان منهم في الهرب لتحذير باقي المماليك عند الشيخ عبدالله الشرقاوي، فولوا هاربين، أما الباقون في الجامع فقد حاصرهم العساكر وقبضوا عليهم وعروهم من ثيابهم، واستولوا على كل ما معهم من أموال وذهب وأسلحة، ونحروا ما يقرب من خمسين رجلًا منهم كالنعاج، وسحبوا الباقيين عراة موثقين في شوارع المدينة إلى الوالي.

فرح محمد علي لما رأى المماليك واقعين في الأسر، ورأى بينهم أحمد بك تابع البرديسي، وسخر منه لوقوعه في المكيدة التي أعدها لهم، طلب الرجل منه الماء في كَسرة وذل، وهو عار أمامه كما ولدته أمه، فأمر بحل وثاقه ومناولته الماء، فتفلت من بين أيديهم وخطف من أحدهم يطقانًا، ووثب ناحية الوالي محاولًا قتله، لكن محمد علي كان خفيف الحركة، ماهرًا، تراجع في سرعة وخفة، فطاشت الطعنة في الهواء، تكالب عليه الجنود وقتلوه بعد أن أثخنوه بالجراح وقتل منهم البعض، رُبط الباقون في حوش الدار، على حالهم من العري، وقد أُلحق بهم المهانة والذل، في اليوم التالي استقدموا لحَّامين (بائعي اللحوم) سلخوا رؤوس قتلى المماليك أمام الأسرى منهم، وحشوها تبنًا وخيطوها، وفي الليل انقضوا على المعتقلين طعنًا وقتلًا، ثم اقتلعوا رؤوسهم وفعلوا بها كما فعلوا بالآخرين، وعمد محمد

علي إلى إرسال الرؤوس إلى الأستانة كدليل على نجاحه في القضاء على المماليك، لما بلغت أنباء ما حدث إلى المماليك الهاربين، رحلوا مبتعدين إلى أسيوط.

وكأن القدر يدعمه..

فما لبث محمد علي أن جاء خبرٌ بوفاة عثمان بك البرديسي، بعد أن انتابته حمى صفراوية، زاد عليه المرض واشتد، وحضر رجل ادعى أنه طبيب مغربي جاء من المحروسة لعلاجه، ولما دخل عليه خيمته، قتله، وأودى بحياته، دفنه أتباعه في الصعيد، وتولى أمرهم شاهين بك المرادي، الذي استمر على نفس الخصومة مع الألفي، الذي ظل على اتصال بالإنجليز عن طريق قنصلهم في مصر، علم الألفي عن طريق القنصل عن توتر العلاقة بين العثمانيين والإنجليز، ودخول الأسطول الإنجليزي تحت قيادة الأميرال دوكورث إلى بوغاز الدردنيل، وأنهم ينوون تسيير عمارات إنجليزية لمصر واحتلالها، فظل في البحيرة وزاد في حصار دمنهور ليفتحها ويتخذها معقلًا؛ ليكون قريبًا من الإنجليز حين يصلوا الإسكندرية، فيسهل عليه الاتصال بهم، أُنهك جنوده واشتد بهم التعب ونقصت مؤونتهم من طول الحصار القائم على دمنهور، فتمردوا عليه وأرادوا الرحيل إذا أصر هو على استمرار الحصار، فاضطر إلى فك الحصار حتى لا ينفض جنوده من حوله، بعد تأخر العمارة الإنجليزية المنتظرة، ورحل إلى الصعيد تحت لوائه ستة آلاف من العرب وستمائة من الفرسان المماليك، وثمانمائة من العثمانيين والنوبيين الكل بكامل بنادقهم وأسلحتهم، مع عشرة مدافع، كانت المسيرة والمؤونة تحملها آلاف عدة من الإبل، لم يمر الجنود ببلدة إلا سلبوها ونهبوها، فعمد أهالي بعض القرى للمغادرة والرحيل عن

قراهم، إذا ما علموا باقتراب الألفي وجيشه منهم، فيخلونها من ماشيتهم ومتاعهم ونسائهم لينجو من نهب الألفي وجنوده.

لم يكد يمضي شهران على وفاة البرديسي، حتى جاء محمد علي خبر موت الألفي أيضًا، بعد أن اعتراه قيء دموي مستمر، ظنها من حوله أنها كوليرا، لم يتحملها طويلًا وأودت بحياته خلال ساعات، ودفن في البهنسا بعد أن كان ولَّى على أتباعه قبل ذلك بأيام جاهين بك الألفي.

وصل الخبر إلى محمد علي وهو أيضًا مصاب بالكوليرا، وسط حملته التي أعدها وسيرها لمحاربة مماليك الوجه القبلي لكنه شُفي منها، بعد اعتناء طبيبه الإيطالي الخاص «بتزري» به عناية فائقة، ساعده على مقاومة الإعياء قوة بنيته التي تحملت شدة المرض، عهد بإدارة الأمن في المحروسة لكتخدا، قبل أن يخرج مع حملته على رأس ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان، وست سفن مسلحة، وما يقرب من ثمانمائة مركب، أرسل إلى المماليك في المنيا يعرض الصلح، في خدعة منه كما تعود، استمال العربان الموالين للماليك بالمال، ثم انقض على المماليك وهم نائمون بإرشاد ومساعدة العربان، واستولى على مدافعهم ومهماتهم وتعقب الفارين، وأوقع بهم الهزيمة في منقباد بالقرب من أسيوط التي اتخذها معسكرًا، وهناك وصلته الأخبار بوصول العمارات الإنجليزية.

وصلت العمارة الإنجليزية في مارس ١٨٠٧ بسفينة استطلاع أولًا للتعرف على الحالة في الثغر، وصلت بعد وفاة الألفي بأربعين يومًا، وبمجرد رسوهم في المياه استدعوا سفيرهم في مصر على الفور، الذي لم يكد يعود إلى الثغر حتى بادر بإرسال رسائل إلى بكوات المماليك في الصعيد لإخبارهم بوصول الحملة

الإنجليزية، ويستدعيهم للوجه البحري، وصلت أخبار العمارة إلى القاهرة، فاجتمع كتخدا بك وحسن باشا وبونابرته الخازندار وطاهر باشا والدفتر دار والروزنامجي وباقي الأعيان، وأرسلوا لمحمد علي يطالبونه بسرعة العودة مع جنوده، تولى السيد عمر مكرم زعامة المقاومة الشعبية، فجمع المتطوعين لحفر الخنادق وبناء الاستحكامات شمال القاهرة لصد الإنجليز إذا ما جاءوا عن طريق شبرا، كان العمل يستمر ما يقرب من طيلة النهار، وُزعت تكلفة الحفر على أهل الوكائل والحانات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجي، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل وعلى البعض أجرة خمسين وعلى البعض عشرين، ومعهم النصارى والأروام والشوام والأقباط، اشتروا المقاطف والغلقان والفئوس، وآلات الحفر وبنوا حائطًا مستديرًا بأسفل تل قلعة السبتية، بعض العمال كان يعمل متطوعًا نصف نهار، ويعود إلى أعماله عند الظهر. كما أمر السيد عمر مكرم الناس ومجاوري الأزهر بحمل السلاح، وأمر المشايخ بالتوقف عن إلقاء الدروس، وشرع أهل الإسكندرية وأبي قير في تحصين قلاعها وأبراجها، وأرسل كتخدا بك من يتقيد ببناء قلعة في البرلس.

اشترى قنصل إنجلترا أمين أغا محافظ الثغر، واتفق معه أن يسلم المدينة للإنجليز دون مقاومة، أقبلت العمارة المؤلفة من خمسة وعشرين سفينة تحت قيادة الأدميرال لويس وسدت مدخل الميناء الغربي، نزل الجنود على شاطئ العجمي، وزحفوا إلى الإسكندرية وعسكروا هناك، وأرسلوا فصيلة لاحتلال قلعة أبي قير، لم يكن عدد الإنجليز القادمين مع الحملة يتجاوز الستة آلاف وخمسمائة مقاتل، في فرقتين، الأولى تحت قيادة الجنرال ستيوارت والأخرى تحت قيادة الجنرال ويكوب، والحملة كلها

تحت قيادة الجنرال فريزر، كان اعتمادهم الكامل على انضمام المماليك لهم من الصعيد، وأنهم لن يجدوا مقاومة تذكر في البلاد، مع الضعف الشديد والتشتت الذي حدث فيها في الأعوام السابقة التي تلت خروج الفرنساويين منها، وصلت الأخبار إلى المحروسة بوقوع قتال وضرب بالمدافع من البحر ناحية القلعة وهَدم جانب من البرج الكبير والأبراج الصغيرة، وأن أهل الإسكندرية هاجموا الإنجليز في رأس التين والعجمي، وأجلوهم عن البر، وأنهم حرقوا بضعة مراكب، وأنه وصلت إليهم عمارة العثمانيين والفرنساوية وحاربوا الإنجليز في البحر وأحرقوا مراكبهم، لكن اتضح أن تلك الأخبار كاذبة وإشاعات ملفقة، فقد دخل الإنجليز المدينة ليلة الواحد والعشرين من مارس دون أن تطلق رصاصة واحدة، بعد أن سلم أمين أغا نفسه كأسير حرب مع ثلاثمائة مقاتل يمثلون كل حامية المدينة.

هادن محمد علي باشا المماليك في الصعيد، وفاوض زعماءهم أن يقفوا معه ويساندوه في حربه ضد الحملة الإنجليزية التي وصلت، لم يجد أمامه سبيلًا آخرَ كحلٍّ مؤقت يأمن به جانبهم، وليحيد المماليك عن المعركة القادمة، ويضمن عدم إنحيازهم للإنجليز على الأقل إن لم يساندوه، طلب جاهين بك أن يقيم في الجيزة على أن يكون له إيراد عشر نواحي في الجيزة وثلاثين في البهنسا وإيراد الفيوم كلها، دون أن يدفع ضرائب عليهم، فوافق محمد علي دون تردد، بعد الاتفاق ذهب جاهين بك لزيارة محمد علي متوجسًا من مكائده، لكن محمد علي باشا استقبله بحفاوة وأكرم وفادته، ودعاه لتناول الطعام معه على مائدة ابنه طوسون، ابتهج أمراء المماليك بما حدث وفعلوا مثل جاهين بك، وترك منهم الكثير الحياة البدوية وعادوا تحت راية محمد

علي باشا، حتى إبراهيم بك الكبير أرسل مرزوق بك ابنه بحاشية كبيرة، وتم الاتفاق بينهم أجمعين أن يترك لهم محمد علي حكم الصعيد، وإيرادات بلدان معينة، على شرط أن يقدموا للميري كمية معلومة من الغلال.

بعد إتمام الاتفاق أخلى الوالي الصعيد وعاد بجنوده إلى القاهرة، وسيطر المماليك على الوجه القبلي وتقدموا حتى الجيزة.

أرسل علي بك السلانكي الأسرى الإنجليز الذي أوقعوا بهم في رشيد مع رؤوس قتلاهم إلى المحروسة، وصلوا إلى بولاق فتجمع الكثير من عامة الناس على ساحل بولاق ليتفرجوا عليهم، دخل الأسرى في صحبة حراسة من باب النصر، ساروا بهم وسط المدينة، كان هناك ضابطان يمتطيان حمارين، وبقية العساكر يمشون على أقدامهم يحملون رؤوس القتلى معلقة على أربعة عشر نبوتًا، وصلوا إلى بركة الأزبكية، وهناك ضُرب عند وصولهم شنكًا ومدافع، وصعد الأسرى إلى القلعة، وفي اليوم الثاني وصل مائة وواحد وعشرون رأسًا آخرون، وثلاثة عشرة أسيرًا وجريح.

لم يرض الإنجليز بما حدث لقواتهم وجنودهم في رشيد، فجهزوا جيشًا آخر وأرسلوه لدخول رشيد والسيطرة عليها، زحف الجيش الإنجليزي الثاني ناحية الحماد قبلي رشيد، وأقام المتاريس من ساحل النيل إلى الجبل، وضرب الحصار عليها، ثم أقام المدافع على آكام أبي مندور، ضُربت رشيد بالمدافع والقنابل استعدادًا للهجوم عليها وفتحها، تهدمت الكثير من البيوت ومات رجال كثير مع أطفالهم ونسائهم تحت الأنقاض، وتشردت أُسر أخرى كثيرة نجت من تحت الأنقاض، أرسل السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد يستنجد بالسيد عمر

مكرم وأهالي المحروسة، فدعا الناس وحسهم على نجدة رشيد، وارتحل الكثير من المغاربة وأتراك خان الخليلي والأسيوطية وكثير من رجال المحروسة، لمساندة أهل رشيد، رغم رفض كتخدا بك لرحيلهم إلا بعد رجوع محمد علي باشا وقواته من الصعيد، وصلت الأنباء لباقي البلاد وتطوع أهالي البحيرة والبلاد المجاورة للذهاب إلى رشيد أيضًا.

وصلت أخبار هزيمة الإنجليز الأولى في رشيد إلى محمد علي باشا بعد ما وصل إلى القاهرة، أكمل مع الناس عملهم في بناء الاستحكامات حتى أتمها، وشق أخاديد أمام الخنادق وأوصلها بالنيل، فامتلئت بالمياه لتعرقل تقدم الإنجليز، وأغرق بضعة مراكب بين جزيرة بولاق والشاطئ لتعرقل السفن الإنجليزية إذا ما نجحت في عبور رشيد، ثم جمع تسعمائة كيس من المال خصصها لتجهيز الحملة ونفقات الزحف، وسير أربعة آلاف مقاتل من المشاة مع ألف وخمسمائة من الفرسان في اتجاه رشيد تحت قيادة طبوزأوغلي.

أهالي رشيد تحملوا القنابل وضرب المدافع، واستمروا في مناوشات الإنجليز بين الحين والآخر في الحماد، حتى نجحوا في تركيب مدفعين على الشاطئ الشرقي، وألقوا القنابل على ميمنة الجيش الإنجليزي بالبر الغربي، فعبر الميجور ماكدونالد النهر ومعه مائتان وخمسون جنديًّا عند مسجد أبي مندور، واستولى على موقع المصريين والمدفعين، لكنه ما لبث أن عاد أدراجه متقهقرًا إلى البر الغربي بعد وصول عدد من الرجال المصريين لذويهم مع مدد، واستمر الضرب والكر والفر حتى وصل جنود طبوزأوغلي ناحية البر الشرقي للنيل، وجنود حسن باشا بالبر الغربي، التي تقدمت طلائع منه نحو مواقع الإنجليز في الحماد

وأحاطوا بكتيبة منهم، وقتلوا بعضهم وأسروا الباقي، أرسل الجنرال ستيوارت مددًا لهم مع الكولونيل ماكلويد الذي جهز مواقع جنوده ليدافع بها عن البرزخ بين النيل وبحيرة إدكو، ليسدوا الطريق أمام الجيش المصري فلا يستطيع اجتيازه ولا الوصول لرشيد.

عبر طيوزأوغلي النيل وانضم لقوات حسن باشا، بعد أن كان مرابطًا في برنبال، وتأهبوا معًا لمهاجمة الحماد، فوقع الرعب في قلب الكولونيل ماكلويد لما رأى تكاثر أعداد قوات الجانب المصري أمامه، فلم ينتظر الرد على طلبه من الجنرال ستيوارت بالانسحاب، وانسحب من تلقاء نفسه، دون وضع خطة محكمة لذلك، فتفرقت قواته، وسقطت بين براثن فرسان الجيش المصري، ودخل المشاة الحماد وسيطروا عليها، وتعقب الفرسان بقية القوات وانهالوا عليهم بالرصاص، وقتلوا الكولونيل ماكلويد، واستسلم قائد الميسرة الميجور الإنجليزي مع بقية القوات، بعد أن قُتل أربعمائة وستة عشر جنديًّا منهم وأُسر النصف الباقي حوالي أربعمائة أسير تقريبًا.

لما أدرك الجنرال ستيوارت ما حدث لقواته في الحماد، سارع إلى رفع الحصار عن رشيد، وانسحب قبل وصول القوات المصرية إليه فتدك متاريسه عليه وعلى جنوده، أتلف مدافعه التي لم يستطع أخذها معه وتراجع مع خيبته وهزيمته إلى طريق أبي قير، لكن أهالي رشيد والبلاد من حولها تعقبوه وجنوده، وألحقوا به بعض الخسائر بعد مناوشات منهم على شاطئ البحيرة، فواصل تراجعه حتى أبا قير ومنها استقلوا سفنهم عائدين إلى الإسكندرية.

وصل محمد علي باشا إلى دمنهور بعد أن سار بجيشه من معسكره في إمبابة متوجهًا إلى الرحمانية ومنها إلى دمنهور في الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٠٧، هناك التقى بالجنرال شريروك الذي فوضه فريزر لإبرام الصلح معه، اتفق الطرفان على جلاء الإنجليز عن الإسكندرية مقابل استرجاعهم أسراهم وجرحاهم، فأرسل محمد علي يجلب الأسرى من القاهرة، وتسلم الإسكندرية طبوزأوغلي نيابة عن محمد علي ونزل بدار الشيخ المسيري هناك، أقلعت السفن البريطانية مع من بقي من حملتهم السليم منهم والمصاب على ظهرها متجهين إلى صقلية.

عاد محمد علي إلى القاهرة لكن أثناء عودته تعرض مركبه لحادث وانقلب به في النيل عند زفيتة شلقان، فعبره سباحة مع حسن باشا طاهر وسليمان أغا الوكيل، وأكمل سفره على ظهر جواده، الذي انكب به وسقط على الأرض وهو في الطريق، فتطيرت الحاشية مما حدث، وأكملوا رحلتهم في توتر وتشاؤم حتى دخلوا القاهرة في أكتوبر ١٨٠٧، ضُربت المدافع من القلعة لوصولهم، وأقيمت الشنك ثلاثة أيام، وهنأه الباب العالي في الأستانة بالنصر الذي حققه، وأعادت له ابنه إبراهيم بك.

قابله الناس بالشكوى من أفعال بعض الجنود في غيابه وإخلالهم بالأمن والنظام وما قاموا به من نهب وسلب وعدوان على الناس وانتهاك حرماتهم وأموالهم، وكان قد بلغته الأنباء وهو بعد في الإسكندرية، ازداد يقينه أن هؤلاء الجنود يمثلون خطرًا عليه لا يقل عن خطر المماليك في الصعيد وتربصهم به، ورغم أنه تخلص من الدلاة أول ما أمسك زمام الحكم وقام بترحيلهم إلى الحدود السورية، لكن ما بقي من الجنود الأرناؤوط

غير النظاميين وبقية من الدلاة، يسببون الفوضى في البلاد، أو في طريق عودتهم من الحملات على القرى.

في الثامن والعشرين من أكتوبر تجمع هؤلاء الجنود بعد عودة الوالي، حول سراياه بالأزبكية، يطالبونه برواتبهم المتأخرة، وأخذوا يطلقون النار من بنادقهم على أبواب القصر ومنافذه، بعد أن وُعدوا بالدفع فيما بعد ورفضوا الانتظار، استمروا في إطلاق الأعيرة النارية حتى نفدت ذخيرتهم ورحلوا، ولم تمر ثلاث ساعات حتى جاءت مجموعة أخرى منهم وفعلوا نفس فعلهم، ازداد فزع الناس وأغلقوا محلاتهم ودكاكينهم واختبأوا في منازلهم، بعد أن أغلقوا الدروب والحارات وسهر خلفها البعض بالأسلحة للحماية، غادر محمد علي سراي الأزبكية سرًّا إلى القلعة؛ لأنها أكثر أمانًا من السرايا دون أن يشعر به الجنود المتمردون، فلما علموا بمغادرته السرايا هجموا عليها ونهبوها، كما سلبوا ونهبوا واعتدوا على الناس في بيوتهم، استمر الإضطراب والاعتداء على الأهالي سبعة أيام، حتى أنست الناس الاحتفال برؤية هلال شهر رمضان.

حاول السيد عمر مكرم مع آخرين إخماد فتنة الجنود، واتفقوا على أن تدفع الحكومة جزءًا من رواتبهم المتأخرة قدَّروه بألفي كيس، لكن الأهالي تحملوها لأن خزانة الدولة خاوية على عروشها، فقاموا بتقسيمها وجمعها من التجار والملاك والصناع وأرباب الحرف، هدأت الفتنة، بعد أن دفعت الأهالي من مالها الخاص مرتبات الجنود، لكن محمد علي لم يهدأ باله، وهو يعلم أن الجنود لن يلبثوا ويعاودوا التمرد، أصدر قرار نفي فيه رجب أغا أحد رؤساء الجند الأرناؤوط، وقرر في باطنه التخلص من كل الجنود غير النظاميين وإنشاء جيش من أبناء الشعب أساسه

الطاعة والنظام للرؤساء، فعمد إلى التخلص من هؤلاء الجنود غير النظاميين في الحملات البعيدة عن البلد وكان أولها في طريقه، الحرب ضد الوهابيين في جزيرة العرب، بعد فشل سليمان باشا والي بغداد، وعبدالله باشا والي دمشق، ويوسف باشا الصدر الأعظم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٨ -

بدأ تسجيل البغايا في القرن السابع الميلادي، وكان البغاء أغلب الظن موجودًا في زمن قدماء المصريين وبناة الأهرام، حيث افترضت بعض الأراء أن بعض الغرف التي اكتشفت في هرم سقارة والتي عرفت باسم غرف الإله «بس» كانت مخصصة لممارسة البغاء، فيما سميت العاهرات بـ «بغايا المعبد».

في عهد العثمانيين أطلق عليها العامة «كرخانات»، وهي كلمة عثمانية مكونة من مقطعين «كرى» وتعني نوم، و«خانة» وتعني مكان، وقد كانت البغايا تدون وتسجل اسمها وبياناتها في مقر الصولباشي، أو رئيس الشرطة، الذي كان تحت إمرته أربعون شرطيًا يسمون جاويشية باب اللوق، مهمتهم حصر ومراقبة البغايا.

محلات البغاء أقيمت في القاهرة بشكل عشوائي في بيوت عادية، وحينما جاءت الحملة الفرنسية حاولت تنظيمها وتمييزها وعزلها عن بيوت الناس، فبعد أن قسم الفرنساوية القاهرة إلى ثمانية أخطاط، الموسكي، والأزبكية، وباب الشعرية، والجمالية، والدرب الأحمر، وعابدين، والسيدة زينب، ومصر القديمة، خصصوا منطقة «غيط النوبي» القريبة من شارع الموسكي للبغاء، وأُنشأوا فيها بيوتًا مخصوصة لذلك، وفُرضت رسومٌ على من يرغب في الدخول إليها، وبالنسبة لجنود الحملة كانت تكفي ورقة مختومة من السلطات الفرنسية، لكن ذلك لم يمنع انتشار بيوت البغاء في أحياء القاهرة الثمانية، خصوصًا باب الشعرية، والجمالية، والسيدة.

أغرب بيوت البغاء في القاهرة كانت في منطقة عرب المحمدي بالقرب من صحراء الريدانية، التي شهدت العديد من الحروب ومنها الحرب الشهيرة بين طومانباي والسلطان سليم الأول العثماني والتي انتهت بهزيمة طومان باي وإعدامه شنقًا على باب زويلة، هناك كان بيت البغاء عبارة عن حفر ممهدة للمضاجعة، وأثناء الجماع تُغطى بستارة مثبتة بالحجارة من أطرافها بواسطة القوَّاد أو القوَّادة التي تنتظر حتى يفرغ الزبون ثم ترفع الستارة وتهيَّأ الحفرة لزبون جديد.

في بداية اعتلاء محمد علي ولاية المحروسة، بدأ توافد الأجانب للمعيشة في مصر، ومعهم ازدهرت الدعارة، فقرر الإبقاء على ضريبة البغاء، حينها كان البغاء يتركز في عدد من الأحياء مثل بولاق ووش البركة، ودرب طياب، وعطفة الجينينة، والحوض المرصود، وقد لاحظ الوالي ازدياد الأمراض الجنسية بين صفوف ضباطه وعساكره، كالسيلان، والزهرى، فأبعد مومسات القاهرة وراقصاتها إلى إسنا وقنا والأقصر.

كان محمود في مراهقته مع بداية تولي محمد علي باشا ولاية مصر بفرمان ١٨٠٥، حينها كان البغاء في أوج ازدهاره، كان محمود يلعب مع أقرانه جوار إحدى مقاهي باب الشعرية، وهناك كان يتلصص مع أصحابه الصغار على الراقصات والرقصات الخليعة التي انتشرت في هذه المقاهي، وأشهرها رقصة النحلة، وفيها تتخيل الراقصة أن نحلة تقرصها وتتجرد من ملابسها قطعة قطعة حتى تصبح عارية تمامًا في وسط الشارع، بسبب هذه الرقصة قام محمد علي بحظر الرقص العمومي للنساء والبغايا في مقاهي القاهرة، وقرر عقاب المخالفات بالجلد خمسين جلدة للمرة الأولى وبالأشغال الشاقة

لمدة سنة للمرة الثانية، مع كل هذه الغوايات حاول محمود أن يمتنع عن بيوت البغاء فلم يقربها في البداية، لكن مقاومته لم تدم طويلًا رغم النصائح الكثيرة المتكررة من والده - الذي لم يكن قد توفي بعد - بالابتعاد عن الرذائل، وتعنيفه الشديد له بعد أن شاهده يتابع رقصة النحلة ذات مرة، وعاقبه بالضرب، لكن الفضول وحب المغامرة والتجربة، ساقته ذات يوم مع أصدقائه لإحدى هذه البيوت، فكانت البداية في بيت «حسنة الطرابية»، كانت صاحبة البيت وكان جمالها صارخًا، ممتلئة الجسد، ترتدي ما قل ووصف وربما شفَّ، عندها الكثير من الخيرات النسائية، من ذوات الخبرات، التي يمكن أن تساعد فتى جديد مثل محمود على تحقيق رغباته المجهولة، التي لم يكتشفها بعد، ربما كانت المرة الأولى له أشبه بدرس يكتشف فيه ويلمس معالم جسد المرأة الغريب عنه، فلم يكن له أي معرفة بعالم النساء الخاص، حتى مراقبته لرقصات النحلة من قبل، لم تفده بأكثر مما أرقت ليله وأرهقته، جذبته إحدى النساء من يديه وسار يتبعها كالتائه مشدوه النظرات، أنفاسه متسارعة ومضطربة، المرأة كانت مغطاة بعرقها الساخن، جذبته وأراحته على السرير، خلعت عنه سرواله، وامتطته كخيال مُحَنَّك مُتَمَرِّس، جردته من عذريته دون أمجاد منه، سقط بعدها منهكًا في عرقه ونهجانه، وبقيت هي جاثمة على صدره لثوانٍ، كان اللقاء ناجحًا ومباغتًا إلى حد ما بالنسبة له، فلم يكن كما توقع وتخيل، ولا كما رسم لنفسه وخطط، لكنه بعد بضع مرات صار مُتَمَرِّسًا وخبيرًا، ولم يفت عليه أن يجرب طعم البيوت غير المصرية وكانت الأشهر حينها بيت السيدة «فريدة يني».

بعد وفاة والده اضطرب حاله، وتشتت فكره قليلًا، لم يكن قد أتم التاسعة عشر بعد، دخل في علاقات مع نساء مطلقات، وأرامل، بل أحيانًا نساء متزوجات، حاول بهن أن يبتعد عن أفكاره التي تلح عليه، وأن يهرب من حزنه على موت أبيه ودفنه بعيدًا عنه دون أن يرى جثته بعينيه أو يواريها بنفسه التراب، كان يمضي مذهولًا يعتقد أن والده ما زال حيًّا وأنه سيعود، وسيفاجأ به يومًا يدخل عليه الورشة أو يعود على البيت ويعنفه على أفعاله، فكر كثيرًا كيف سيتابع حياته من دون أب؟ وهو لم يفارقه يومًا من لحظة ولادته، ولم يتخلى عنه أبوه يومًا أو يبتعد عنه، لكن من اليوم الذي أمسك فيه الورشة وأصبح هو صاحب التعامل مع الزبائن، اختلفت رؤيته للناس، فمع خبرته التي اكتسبها، صار البشر من الرجال وخصوصًا النساء مكشوفين أمامه، يستطيع أن يثبر أغوارهن من نظرة عينهن، حتى وإن كانت المرأة مغطاة بالكامل لا يظهر منها إلا عيناها.

زادت سهراته والتفافته حول حلقة «رقصة العوالم»، وسط الدخان المتصاعد، والصاجات الرنانة وألوان القلنسوات البراقة، واهتزازات الأذرع اللينة، مع حركة الأوراك المخملية، وكحل العيون القاتلة، وتوهج الوجنات الناعمة للراقصات، فوق جمالهن الأخَّاذ، وضياء قلنسواتهن المذهبة، التي تعلو جدائل شعورهن، كعوبهن الوردية التي تضرب الأرض، بينما أذرعهن ترتفع في اهتزازات عنيفة تثير النفوس، وهي تقرع أجراسًا وخلاخيل، يرى أوراك الراقصات عارية تختلج في حركات ناعمة، ونحورهن تتبدى عارية تحت نسيج الحرير الموصلي وتتأود بين لباسهن والحزام المترامي الذي يسقط على بطونهن.

وفي يوم استطاع من بين الدخان أن يميز في دورانهن بأجسادهن ورقصهن السريع ملامح هذه الكائنات الجذابة التي ترتج أصابعها بصنج صغيرة وكبيرة، مهتزين على نغمات الناي والطبول، كن شديدات الجمال مزهوات بعيون عربية زادها الكحل تألقًا، بوجنات ممتلئة تزينها مساحيق وألوان، لكنه لاحظ أن لدى بعضهن ملامح ذكورية، وعندما دقق في الأمر اكتشف أن بينهن ذكور يتمايلون في مياعة كالنساء ويرتدون مثلهن، فصُعق مما رأى وخرج مسرعًا ولم يعد مرة أخرى.

تبدل حاله من اليوم التي لجأت فيه ليلى أرملة محروس - أحد جيرانهم، الذي قُتل منذ سنوات في ثورة القاهرة الثانية أيام الحملة الفرنسية - لأمه، تشكي لها حالها مع حماتها، التي تسبها وتلعنها في كل لحظة، وتتهمها أنها كانت ذات فأل أسود على ولدها، الذي لم يهنأ بزواجه منها إلا بضع سنين لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة، لم تحبل فيها، ولم يترك لها منها حفيدًا ذكرًا أو حتى أنُثى من رائحته، تتهمها أنها كانت عاقر، وتقول إنها طالما نصحت ولدها بالزواج عليها من غيرها، لينجب لها الحفيد الذي رجته من الدنيا، لكنه كان يأبى أن يتزوج عليها بأخرى، رأى في عينيها الاحتياج، الشوق لرجل جوارها، رغم أنها كانت تقريبًا في الخامسة والعشرين وربما أكثر، وهو بعد لم يجاوز العشرين، إلا أن هذا لم يمنعه من التودد لها والتقرب إليها، وهي تزور أمه أو وهو في طريق عودته من الورشة عندما يلمحها وهي تقف خلف مشربيتها في الدور العلوي، حتى أتى يوم جاءت إليهم ليلًا باكية، شاكيةً، أن حماتها أهانتها وتطوالت عليها بالضرب، دون سبب كالمعتاد، وطردتها إلى الخارج بملابس البيت، دون حتى أن تتركها ترتدي ملابس أخرى،

احتضنتها أمه ودعتها لتبيت ليلها عندهم، وفي الصباح تصلحها عليها، أو تعود إلى أهلها.

ظل جالسًا على سريره طوال الليل لا يعرف ماذا يفعل، لكنها حسمت أمرها بدلًا منه، تسللت إلى غرفته بعد أن نامت الأم، أزاحت عن جسدها ملابس الحداد، وألقتها في الهواء دون رجعة، سقطت بعض أجزاء من ملابسها تحت قدميها مع فترة حدادها، حاول أن يساعدها في خلع ملابسها إلا أنها لم تترك عليها ما يمكن أن ينزعه عنها، بقيت في عريها الملتهب الذي ما زال يحتفظ بدوران الصبايا الصغار، ولم يمنعها حياء من اندفاع تلك المهرة الجامحة المختفية بأعماقها، حاولت أن تروي عطشها طوال سنوات حدادها، فقبل هذه الليلة لم تنم جوار أي رجل سوى زوجها، تلك السنون التي كانت تخفي عنه رغباتها، ولم تكن تجرؤ أن تظهر حتى مشاعرها وأفكارها حتى لا يظن بها الظنون، لقد نزعت الحداد عنها في هذه الليلة وقررت ألا تعود له من جديد، تركت نفسها بين ذراعيه يحركها ويداعبها كما يشاء، تتقلب وتتجاوب معه لأول مرة في حياتها كامرأة حقيقية بين ذراعي رجل، لها رغبات تلبيها، وأفكار تحركها، للمرة الأولى تدع رجلًا يلمس روحها ويشعر بشهواتها، يرى مخاوفها، وضعفها، وعجزها في مواجهة عالم لم تعرف عنه شيئًا إلا من خلال عيون رجال عاشت في كنفهم، ولم تُجربه حقيقةً من قبل، اليوم واليوم فقط، عرفت كيف يكون حال النساء السعيدات بين ذراعي رجل.

آخر الليل عادت لمكان مبيتها في الغرفة الأخرى، وفي الصباح قررت العودة لمصالحة حماتها، كي تبقى قريبة من محمود ومن بيته، انتظرته مرات في جوف الليل، ودعته إلى فراشها بعد أن

تنام أعين المدينة، ويغرق أهل الشارع في أحلامهم، لتغرق هي بين أحضان رجلها الجديد.

لم تكن ليلى المرأة الوحيدة في حياة محمود، ظل سنوات يتنقل بين بضعة فرش لنساء جائعات، ومحرومات، لكن مع ليلى كان يشعر بالانتماء لشيء، كأنها تداعب روحه وتتسلل من بين أنفاسه لتسكن قلبه رويدًا رويدًا، كثيرًا ما كان يعود متأخرًا إلى البيت تفوح منه رائحة خمر كريهة، يكاد ينكفئ على وجهه كل ما خطا خطوتين أو ثلاثة، يستيقظ ظهرًا، لكنه يذهب إلى الورشة يتابعها ويهتم بها، لم ينقطع عنها أو عن عملها، حتى لو وصل إليها متأخرًا، يعود إلى البيت قبيل المغرب، يتناول ما وجد من طعام، ثم يخرج ليدور بين المقاهي أحيانًا، وبين الحانات ودور البغايا أحيانًا أخرى، إذا لم تكن هناك رفيقة مترملة من نساء المحروسة أو أخرى غفل عنها زوجها، لم يترك صنفًا إلا تذوقه، الأرمينيات بجمالهن الساحر، ولون بشرتهن الباهت، شعرهن الكثيف المموج أحيانًا، وكالحرير أحيانًا أخرى، الإفريقيات أو الحبشيات كما يطلقون عليهن، ببشرتهن الأبنوسية وأسنانهن البيضاء التي تكاد تنير في ظلام الليل، الشركسيات بشعرهن الملتهب وغطرتسهن التي لا تُحتمل، حتى البدويات اللائي سكنَّ على أطراف المحروسة، بقذارتهن ورائحتهن التي لا تختلف عن رائحة خرافهن وعنزاتهن، لا يعرف إن كان ما يفعله احتياجًا وإشباعًا لرغباته الحسية، أو مجرد طريق يهرب إليه بعيدًا عن حياته، لم يكن حاله مفضوحًا لأصدقائه، أو لأمه أو للسيدة رقُية، فكل هذا كان في الخفاء، فلم يلوث الأثر الطيب الذي تركه والده.

ظل على هذا الحال سنوات عدة حتى تجاوز الثالثة والعشرين، ثم أصابه فتور مفاجئ عن النساء، عزف عنهن وابتعد حتى عن بيوت بغائهن، ابتعد عن ليلى أقربهن إلى قلبه، وتركها تنتظره ليالٍ طويلة مرات ومرات، تناديه همسًا من خلف شباك مشربيتها، أصابه ضيق وشعر بالاختناق من شوارع المحروسة، شيء ما قبض صدره وجعله يشعر بضيق مما يفعل، أشعره بغضب داخلي، بركان يكاد ينفجر بداخله، يلهب عقله الذي لا يعرف ماذا يريد، تخلص من السهر والخمر، أغرق أفكاره في عمله، لكن شعوره بهذا الشيء بداخله أنغص عليه حياته وفكره وأرق مضجعه، هناك شيء ما يريده، ينقصه، في احتياج شديد له، لكنه لا يعرفه، أو لم يدركه بعد، حتى لما عرضت عليه أمه أن يتزوج ويستقر، وينجب لها أحفادًا تَسعد بهم ويلعب معهم، لم يشعر أن هذا هو ما ينقصه، فكر في الرحيل عن المحروسة والابتعاد عن أهله وأصدقائه والشوارع التي عاش فيها لفترة من الوقت، كان ذلك في الفترة التي قرر فيها الوالي محمد علي أن يُسَيِّر حملة إلى جزيرة العرب، للقتال والقضاء على الوهابيين، بعد تخلصه من المماليك، فكر كثيرًا ثم قرر أن يبتعد عن شوارع المحروسة ويرحل، حاولت أمه والسيدة رقُية أن يثنياه عم يفكر فيه، لكنهما لم ينجحا، لم ير دموع ليلى تنزف من عينيها كالمطر على وجنتيها وهي تتابعه في الخفاء من خلف مشربيتها يخرج من بيته ويبتعد، غادر القطر المصري في أولى حملاتهم على جزيرة العرب في أرض الحجاز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٩ -

لم يختلف محمد علي عن سابقيه في فرض الضرائب، بل ربما كان أجشع منهم في فرضها، فالخزائن خاوية على عروشها، وأحلامة أكبر من أن يقيدها نقص المال وفقر الدولة؛ لذلك قرر محمد علي بمعاونة موظفيه وعلى رأسهم المعلم غالي، بفرض ضرائب جديدة، كفرضة ضريبة الميري على أطيان الأوسية والأراضي الموقوفة، المرصد ريعُها للصرف على المساجد والسُّبل، كما أمر الكشاف - حكام الأقاليم - بالاستيلاء على تلك الأطيان إذا لم يقدم أصحابها حجج إنشاء الوقف، فقد أُبلغ الوالي من خلال موظفيه أن الكثير من تلك الأطيان الموقوفة قد تقادم العهد عليها، كما قررت الحكومة فرض ضريبة التمغة على المنسوجات والمصوغات والأواني، وإلزام جميع الملتزمين بأن يؤدوا للحكومة نصف الصافي من إيرادهم من الأطيان الداخلة في التزامهم، تبرَّم النُّظار والمستحقون والملتزمون من تلك الضرائب وأبدوا اعتراضهم، ولم يجدوا من ينصت لهم، فلجأوا للشيوخ ونقيب الأشراف بالشكوى، فكانت سببًا لبداية وقوع الخلاف بين محمد علي والسيد عمر مكرم.

امتنع الشيوخ عن لقاء الوالي وأصروا على ذلك مكتفين بالعرضحال الذي يحتوي على مطالبهم لسكرتير الوالي ديوان أفندي الذي أرسله الوالي للقائهم، فما كان ردهم إلا بقولهم:

- لقد بايعناه على العدل لا الظلم والفجور، ولن نقابله إلا بعد امتناعه عن إحداث البدع والمظالم بالناس.

مرت أربعة أيام بعد لقائهم مع سكرتير الوالي ولم يصلهم جواب أو رد، استغل محمد علي تلك الأيام في استمالة بعض الشيوخ،

فكان أثره أن اتفق الشيخ محمد المهدي والشيخ الداوخلي ومحمد أفندي طبل ناظر المهمات، على أن يذهب الشيخان إلى عمر مكرم يدافعان عن محمد علي ويبرئانه مما وجه إليه من تهم الظلم والفجور، فذهبا وأنكرا أمام السيد عمر مكرم أنه طلب مال الأوقاف والأوسية، استغرب السيد عمر مكرم من قولهم وطريقتهم المتعصبة لمحمد علي وأسلوبهم في الحديث معه، فرد على قولهم بالحجة وأخرج لهم أوراق المباشرين التي تحتوي على طلب الضريبة ونصف فائض الأوسية والأوقاف، وأعلمهم باستمراره على رفضه الذهاب للقائه، إلا إذا عدل عن قرارته.

ولم يتراجع عن كلامه حتى بعد لقائه بعبدالله بكتاش ترجمان الوالي..

بعدها ذهب الشيخان المهدي والدواخلي الذي تكلم أيضًا باسم الشيخ الشرقاوي للقاء الوالي، يطمئنوه على وضعه إذا تمرد عليه السيد النقيب، وأنه لن يقدر على شيء ما دام تخلى عنهم وتخلوا عنه، فحدثهم محمد علي غاضبًا في كلامه من عمر مكرم أنه يعانده ويُبطل أحكامه بين الناس، ويهدده بقيام الجمهور عليه بأمر منه، خرج الشيخان من عند الوالي بعد أن اتفقا على توحيد جبهتهم ضد نقيب الأشراف، ثم عاودا زيارته مرة أخرى يحذرانه من غضبة الوالي وتوعده بقمع حركة الشيوخ ضده بالسيف، ليدخلا الرهبة في نفسه فيتراجع عن قرارته، لكنه جاوبهم بقوله:

- لا أردكم ولا أقبل شفاعتكم، ولن تخوفوني باجتماعكم، فأنا لا أفزع من ذلك.

استمرت الجفوة بين الوالي والنقيب، وزادت بعد رفض السيد عمر مكرم التوقيع على بيان حرره محمد علي للدولة العثمانية يذكر فيه ما أنفقه في مصر من الخراج، بل أظهر الشك في محتوياته وقال أمام جالسيه:

- أما الذي جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافًا كثيرة، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذه من المظالم لما وسعته الدفاتر.

غضب محمد علي في شدة لاتهامه بتلك التهم، وأرسل في طلب مقابلته، لكنه استمر على رفضه، وبعد إلحاح من الشيوخ وافق أن يلاقيه في بيت الشيخ السادات، فزاد غضب محمد علي لما بلغه الرد وقال:

- هل بلغ له أن يزدريني ويأمرني بالنزول من مقر حكمي لملاقاته في بيوت الناس.

لحظتها قرر أن لحظة إقصاء السيد عمر مكرم من أمامه، قد آنت، نزل بعد يومين إلى بيت ابنه إبراهيم باشا بالأزبكية، وأرسل في طلب القاضي والمشايخ، وأرسل رسولًا من طرفه وكلف القاضي أن يرسل رسولًا من طرفه أيضًا لدعوة السيد عمر مكرم، فرفض متعللًا بمرض أصابه، فأمر محمد علي في حينه بحضور القاضي والشيوخ وعزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف، وعزم على نفيه من القاهرة إلى دمياط، وأمهله ثلاثة أيام للاستعداد لمغادرة المحروسة، ورفض شفاعة بعض الشيوخ بتغيير وجهة النفي إلى أسيوط مسقط رأسه، ثم خلع على السيد محمد السادات خلعة نقابة الأشراف، قابل السيد عمر مكرم الأمر بقوة وشجاعة وهو يقول:

- أما منصب النقابة فإني زاهد عنه، وليس فيه إلا التعب، وأما النفي فهو غاية مطلبي.

حاول أن يختار مكان نفيه والذهاب إلى الطور أو درنة، لكن الوالي قابل طلبه بالرفض، وأصر على قراره بالنفي إلى دمياط.

اجتمع كثير من عامة الناس في أول شهر رجب لوداع السيد عمر مكرم، علا وجوههم الحزن وسالت الدموع من الأعين لفراقه، فقد كان الرجل ملاذهم وملجأهم الأخير في رفع المظالم عنهم، غادر الرجل إلى منفاه في صحبة محمد كتخدا الألفي الذي كُلف بمصاحبته إلى منفاه، وسط تشييع المئات الكثيرة من المتعممين وغيرهم في فورة بكاء ونحيب، حزنًا على فراقه.

شعر محمد علي بالنصر وتفرده بعرش الولاية بعد تخلصه من كبير زعماء الشعب، وأنعم على الشيخ السادات بما لم يتورع هو بنفسه عن طلبه نظير تخليه عن السيد عمر مكرم من نظر أوقاف الإمام الشافعي، ونظر وقف سنان باشا ببولاق، وما كان منكسرًا من راتبه مدة أربع سنوات مضت.

بقي السيد عمر مكرم في منفاه 1تحت المراقبة أربع سنوات، إلى أن تَشَفَّع له قاضي قضاة مصر صديق أفندي لدى محمد علي باشا، فأذن له بالانتقال إلى طنطا، وبقي هناك سبع سنوات لم يخرج منها، إلا بعد أن طلب الإذن بالحج، فتلطف معه محمد علي تكريمًا للرجل ولخدماته معه من قبل، فوافق على خروجه للحج، ودعاه للعودة إلى القاهرة ليبقى في داره إلى أوان الحج، وقال يومها محمد علي لجلسائه:

- أنا لم أتركه في الغربة إلا خوفًا من الفتنة، والآن لم يبق شيء من ذلك، وبيني وبينه ما لا أنساه من المحبة والمعروف.

وبعث إليه بكتاب يُعلمه فيه بإجابة طلبه:

«مظهر الشمائل سنيها، حميد الشئون وسميها، سلالة بيت المجد الأكرم، والدنا السيد عمر مكرم، دام شأنه.

أما بعد..

فقد ورد الكتاب اللطيف، من الجناب الشريف، تهنئة بما أنعم الله علينا، وفرحًا بمواهب تأييده لنا، فكان لذلك مزيدٌ في السرور، ومستديم لحمد الشكور، ومجبة لثناكم، وإعلانٌ بنيل مناكم، جزيتم حسن الثناء، مع كمال الوقار ونيل المنى، هذا وقد بلغَّنا نجلكم عن طلبكم الإذن في الحج إلى البيت الحرام، وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام، للرغبة في ذلك، والترجي لما هنالك، وقد أذناكم في هذا المرام، تقربًا لذي الجلال والإكرام، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام، فلا تدعوا الابتهال، ولا الدعاء لنا بالقال والحال، كما هو الظن في الطاهرين، والمأمول من الأصفياء المقبولين، والواصل لكم جواب منا خطاب إلى كتخدائنا، ولكم الإجلال والاحترام، مع جزيل الثناء والسلام».

لم تتأثر مكانة السيد عمر مكرم بطول بعاده، فقد قابله الناس وازدحموا أيامًا في داره، وهنأه الشعراء بقصائدهم حتى امتنع عن الجلوس في المجلس العام نهارًا، واعتكف بحجرته الخاصة، في بيته بمصر القديمة بساحل أثر النبي، حتى لا تؤخذ عليه هذه الاحتفالات. ([1])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن استقرت الأمور نسبيًا داخل البلاد، شرع الوالي على الفور في تجهيز الحملة التي ما زال الباب العالي يلح في إرسالها إلى جزيرة العرب لمحاربة الوهابيين الخارجين على الباب العالي، وجد محمد علي أن نقل المشاة والمهمات بحرًا إلى جزيرة العرب، يستوجب إنشاء عمارة بحرية من السفن، فعزم على إنشاء أول أسطول مصري لنقل الحملة، أحضر الأخشاب والمواد اللازمة لإنشاء الأسطول التي تنقصه من شتى أنحاء مصر، فأرسل أوامره لقطع أشجار التوت والنبق من الوجهين القبلي والبحري، واستجلب الأخشاب المجاوية التي تنقصه من الأناضول، بدأ في إنشاء السفن في ترسانة بولاق، وجمع كل من استطاع جمعهم من صناع المراكب المهرة، تابع العمل وأشرف عليه بنفسه، الخشب يقطع ويُفصل قطعة قطعة وترقم كل قطعة برقم معين، وتنقل على ظهور الجمال إلى السويس لتركب هناك، استخدم ما يقرب من ثمانية عشر ألفٍ من الجمال طوال عشرة أشهر، حتى اكتمل إنشاء ثمانية عشر مركبًا كبيرًا تسع أكثر ما أُعد للحملة، باشر محمد علي ترحيل الحملة ومهماتها من السويس، في أحد الأيام اقترب منه أحد ضباطه يخبره أن بصاصيصه وأعوانه، أتوه بخبر عن مكيدة تدبر له لمهاجمته أثناء عودته إلى القاهرة، وأن بعض المماليك حضروا من الصعيد على أطراف البلاد القريبة من المحروسة، تحرك الوالي في لحظتها على هجين من أسرع الهجن لديه، وقطع المسافة عائدًا إلى المحروسة في ثمانية عشر ساعة، لم يستطع أن يلحق به أحد من حرسه، إلا سائسه الذي تعلق بلجام الهجين وظل يجري خلفه حتى وقع ميتًا، لم يُبد محمد علي أنه اطلع على

المكيدة المدبرة، لكن المماليك تراجعوا عما دبروه، بيد أن أحدهم أطلق متخفيًا ناحية الوالي طلقة نارية وهو يجتاز أحد شوارع المحروسة، فاخترقت ملابسه وأردت ضابطًا بجواره، اضطربت صفوف من حوله وهرول البعض خائفًا أن تصيبه طلقة طائشة كالتي أصابت الضابط، لكن محمد علي كان ثابت الجأش لم يتزعزع، بل طلب من معه التكتم على ما حدث، وبد أ في الإعداد لحشد الجنود عند شبرا.

أحس جاهين بك بالخطر وغادر مقره في الجيزة بعد أن أتلف أثاث بيته وممتلكاته التي لم يقدر على حملها معه، وانضم إلى رفاقه العائدين من الصعيد استعدادًا للحرب.

تحرك محمد علي في اتجاه جنود أمراء المماليك بقواته، وأوقع بهم الهزيمة عند جسر اللاهون، بعد انهزمت القوات التي أرسلها قبل ذلك أمامهم، ثم عاد بعد ملاقاة النصر إلى القاهرة، ليتمم تجهيزات الحملة على الوهابيين، وجد في انتظاره بالمحروسة باش أغاي السراي السلطانية قد حضر إليه بسيف وخنجر من الأستانة، وبرتبة الباشوية وطوخين إلى طوسن ابنه المعقود له لواء تلك الحملة، مع بعض التعليمات بخصوص الحملة، قُرئت المرسومات السلطانية على العامة في العلن، ثم إصدرت الأوامر بجمع كل المؤن اللازمة، وإرسالها إلى السويس، واحتشدت العساكر المؤلفة للحملة في قبة العزب.

أصدر محمد علي باشا الأمر إلى رؤساء جنده بمطاردة الفارين حتى يجلوهم عن القطر المصري، فاتبعوا أوامره وطاردوا كل من لم يشأ المصالحة من الأمراء حتى أجبروهم على اجتياز الشلالات الأولى ودخول بلاد النوبة، وأما من شاء المصالحة من الأمراء وعلى رأسهم جاهين بك، عاد إلى القاهرة، استقبل محمد

علي العائدين فاتحًا لهم ساعديه، وأقاموا في المنازل الفخمة التي خصصها لهم.

بعد اكتمال الاستعداد للحملة المتجهة إلى جزيرة العرب، أعلن الباشا عن نيته في إقامة مهرجان في القلعة للاحتفال بخروجها وتوديعها، وإلباس طوسون باشا فروة الإمارة عليها، فأرسل دعوة الحضور إلى جميع أرباب الوظائف المدنية والعسكرية، ودعا أمراء المماليك للحضور مرتدين ملابس التشريفة الكبرى.

فلما كان صباح يوم الجمعة المزعوم الاحتفال فيه، اليوم الأول من مارس لعام ١٨١١، احتشدت العامة في كل الطرق المؤدية إلى القلعة، منذ بزوغ الشمس لمشاهدة مواكب العساكر والضباط العثمانية والألبانية، والطبول والرايات، ورؤية موكب أمراء المماليك الفخم، السائرين بجيادهم في خيلاء وزهو، مرتدين زي التشريفة الكامل، معلقين أسلحتهم المصنوعة من الذهب والفضة في أحزمتهم تلمع في بريق ولمعان يخطف الأبصار، أربعمائة وسبعين من المماليك مهندمين في أجمل وأبهج ملابسهم دخلوا من باب العزب، باب القلعة من جهة الغرب وانغلق الباب من خلفهم، استقبلهم الباشا الوالي ببشاشته الخادعة واحتفى بهم، أكرم كبار أمرائهم جاهين بك كبير المماليك الألفية، ويحيى بك، ونعمان بك، وحسين بك الصغير، ومصطفى بك الصغير، ومراد بك، وعلي بك، وهم من الأمراء الألفية، ومن غيرهم أحمد بك الكيلارجي، ويوسف بك أبي دياب، وحسن بك صالح، ومرزوق بك ابن إبراهيم بك الكبير، وسليمان بك البواب، وتابعه أحمد بك، ورشوان بك، وإبراهيم بك، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير، وسليم بك الدمرجي، ورستم بك الشرقاوي، ومصطفى بك أيوب، ومصطفى

بك تابع عثمان بك حسن، وعثمان بك إبراهيم، وذي الفقار تابع جوهر، ومن الكشاف – الحكام - علي كاشف الخازندار، ورشوان كاشف، وسليم الكاشف، وفايد الكاشف، وجعفر كاشف، وعثمان كاشف، ومحمد كاشف، وأحمد كاشف الفلاح، وأحمد كاشف صهر محمد أغا، وخليل كاشف، وعلي كاشف قيطاس، وأحمد كاشف، وموسى كاشف، وأمر بنفسه بتقديم القهوة إليهم ووقف جوار من يقدمها، فازدادوا بهجة وسرورًا، لما استقر المدعوين في أماكنهم واصطفت فيالق العسكر في مواضعها، أذن مؤذن بموعد الرحيل، قرعت الطبول وصدحت الموسيقى، نهض الوالي ودعا أكابر المماليك لامتطاء جيادهم والوقوف بها على رأس فيلقهم، ففعلوا بعد أن بادلوه عبارات التحية والسلام.

انتهى الاحتفال، وتقدم المسيرة من بقي من الدلاة يقودهم الضابط أوظون علي، يتبعهم والي الشرطة، والأغا المحافظ، والمحتسب، يليهم الوجاقلية، ثم مجموعة من الأرناؤوط يقودهم صالح أغا أق قوش ثم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب، من بعدهم بقية الجنود الأرناؤوط فرسانًا ومشاة، خلفهم سار الألبانيون، يليهم المشاة يقودهم كتخدا محمد علي بنفسه، وفي أثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب.

ساروا جميعًا خارجين من باب العزب، ولما خرج آخر انكشاري من باب العزب، كان الأربعمائة وسبعون مملوكًا يشغلون المنحدر كله بجيادهم من أسفله إلى أعلاه، ارتفع صوت صالح أغا أق قوش يأمر بإقفال الباب، انغلق باب العزب فجأة أمام المماليك، في نفس اللحظة الذي أطلق صالح أغا أق قوش أمره إلى ألبانييه، للتسلل من وراء المماليك وتسلق الصخور المحيطة بالمنحدر وإطلاق الرصاص عليهم، مع بدء تقدم الفيلق الذي

يقوده الكتخدا منتشرًا على الأسوار، لم تمض لحظات حتى دوى صوت طلقة من إحدى النوافذ، بدا وكأنها إشارة البدء، فلم يكد صوت دويها يخبو، حتى انهال الرصاص على المماليك من كل حدب وصوب، وهم محاصرون على المنحدر، من أعلاهم وعن يمينهم وشمالهم بالجنوط الأرناؤوط، يقتنصونهم برصاص بنادقهم الغادرة، لم يكن لدى أي أحد من المماليك فرصة ليدافع عن نفسة، أو مكان يلجأ إليه أو يختبئ خلفه من سيل الرصاص المنهمر عليهم من كل حدب وصوب، لا مكان يتراجعوا إليه، ولا سبيل لديهم للتقدم، حتى بنادقهم حضروا من دونها، وليس معهم غير سيوفهم، التي لم تكن لتجدي في هذا الموقف، شاهد أمين بك وهو في مؤخرة الصفوف الرصاص ينهال على زملائه، تراجع ونجح في الصعود وهو على صهوة جواده، إلى المكان الذي يشرف على الطريق، ووصل إلى سور القلعة، لم يجد أمامه مفرًّا إلا بالقفز مع حصانه من فوق سور القلعة إلى خارجها، من على ارتفاع تسعة عشر مترًا تقريبًا، بعد أن رأى ملك الموت يحلق فوق الرؤوس يحصد بمنجله أرواح زملائه من المماليك، وهي تصرخ مستغيثة، لا تجد من يغيثها، لكز جواده وقفز به من علٍ مترديًا، ثم قفز من على صهوته لما اقترب من الأرض، سقط الجواد متهشمًا من قوة السقطة، ونجا أمين بك لكنه سقط مغشيًّا عليه.

في الداخل جلس محمد علي مع أمنائه الثلاثة، في صمت وجل، يعلو ملامحه الاضطراب والقلق، تكاد فرائصه ترتعش من هول ما يصله من صراخ رعب وألم وعذاب يخترق الجدران وينفذ إلى أُذنيه، يسمع دوي الرصاص وأصوات الألم الممزوجة بتوسلات

الرحمة، وطلب الاستغاثة وهو صامت لا ينطق يهز ركبته اليمنى في توتر.

المماليك الذين كانوا في الصفوف الأولى سقطوا مقتولين غرقى في دمائهم، وترجل الباقون عن ظهور جيادهم، خلعوا ما كان عليهم من ملابس ثمينة وفراوى ليسهل عليهم الفرار، حث جاهين بك أحمد بك الكيلارجي، ومرزوق بن إبراهيم بك، مع بعض من رفاقهم على تسلق الصخر هربًا من ذلك المنحدر الذي أصبح كالحفرة التي سقطوا فيها، لكن الرصاص كان يقتنصهم أينما حاولوا الهرب، تمكن جاهين بك مع رفيقيه ومن معهم أن يتسلقوا الصخر حتى وصلوا إلى عتبة قصر صلاح الدين، فقابلهم الجنود الأرناؤوط برصاصهم، اجتاز سليمان بك البواب الطريق وجسمه ينزف من أكثر من موضع، بعد أن شاهد سقوط تابعه أحمد بك، ورشوان بك، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير قتلى، وصل إلى سراي الحريم، واستغاث بالنساء الموجودة صارخًا في هلع ورعب من هول الموقف المحيط به: «في عرض الحريم»، لكن جملته لم تشفع له ولم يرحمه الجنود الذين أطاحوا برأسه وفصلوها عن جسده، وألقوا جثته بعيدًا عن سرايا الحريم، وصل البعض الآخر من المماليك مع يحيى بك، ونعمان بك، وحسين بك الصغير، ومصطفى بك الصغير، حيث كان يقف طوسن باشا، فألقوا بأنفسهم على قدميه طالبين شفاعته ورحمته، راجين الأمان من القتل والغدر بهم، لكنه وقف كالصنم لا يستجيب، وأدار فيهم الجنود القتل طعنًا وبترًا، تكدست جثث المماليك القتلى فوق بعضها، حتى بلغ ارتفاعها عدة أمتار في أماكن عدة، لم يتوقف الجنود عن القتل إلا بعد سفك دم آخر مملوك أمامهم ما زال ينبض قلبه بنبض الحياة،

ومن لم يدركه الموت رميًا بالرصاص، ممن كان تحت الجثث أو نجح في الابتعاد عن مرمى النيران وهرب مبتعدًا أو حتى أصيب بالطلقات لكنه ما زال يتنفس، ضُرب بالسيوف طعنًا وأطيح برؤوس بعضهم، حتى امتلأت ساحة القلعة بالجثث.

في الخارج وقف الناس محتشدون ينتظرون رؤية خروج الموكب، مرت بينهم المجموعة التي كانت في الطليعة، ثم انقطعت بقية الصفوف، سرى التساؤل بينهم لا أحد يخطر على باله السبب الحقيقي لانقطاع صفوف الموكب، لكنهم ما لبثوا أن سمعوا صوت إطلاق الرصاص وارتفاع أصوات الصريخ من داخل أسوار القلعة، بعد غلق باب العزب، هرول الجمع يفرون إلى بيوتهم وانتشر الخبر بين الناس كالنار في الهشيم، وأغلق الناس دكاكينهم وحوانيتهم وهرعوا إلى منازلهم حتى خلت الشوارع من الناس ومن المارة، أعقبهم جماعات من الجنود الأرناؤوط نزلوا إلى المدينة قاصدين بيوت المماليك الذين تخلفوا عن الاحتفال ونجوا من مذبحة القلعة، اقتحموا بيوتهم وفتكوا بهم، غرسوا نصال سيوفهم في أجسادهم وأطاروا رقابهم ورقاب من حاول الدفاع عنهم، ومنهم من اغتصب نساءهم وعمد البعض إلى سرقة ما يجدوه من أموال وحلي ومجوهرات، ومنهم من جن وزاد جموحه فهجم على بيوت العامة من الناس ونهبوها وقتلوا من فيها، استمر القتل والنهب في المدينة حتى صبيحة اليوم التالي، فاضطر محمد علي للنزول مع رؤساء جنده وحاشيته، لإنهاء ما يحدث من سلب ونهب وقتل، وأمر بقطع رؤوس من استمروا في النهب، والسرقة، وتجاوزوا أوامرهم بالهجوم على بيوت العامة، ثم أرسل محمد علي أوامره إلى حكام المديريات بقتل كل من يعثرون عليه من المماليك في مديرياتهم،

أَغتيل من أمراء المماليك في تلك الليلة ألف رجل في جميع أنحاء القاهرة المحروسة، وألف آخرون في الأيام التالية في أنحاء القطر كله، ولم ينج منهم إلا العدد الضئيل الذي لم يطمئن لصفاء نية محمد علي للمصالحة ممن بقي مع إبراهيم بك الكبير، وعثمان بك حسن، اللذين لما بلغهما خبر المذبحة، فرَّا إلى إقليم النوبة ودنقلة، وأمين بك الذي قفز بحصانه من أعلى سور القلعة، ورأه بعض البدو وهو يقفز، فأسرعوا إليه، وانبهروا بما كان يرتديه من ملابس وزينة، فسرقوا سلاحه ونقوده وكل ما كان يحمله، ثم طعنوه بسيوفهم وفروا هاربين، أصيب في عنقه إصابة بالغة، لكنه لم يمت، أنقذه بعض المارين، وقاموا بعلاجه بعد أن أخفوه عن الأعين حتى شُفي واستطاع الهرب إلى سوريا ومن هناك لجأ للأستانة وعمل في خدمة السلطان.

أغرقت دماء القتلى المكان، واندفعت إلى الطريق المجاور لباب العزب حيث لقي المماليك مصرعهم، وعلى الرغم من أوامر محمد علي لجنوده بغسل الطريق، إلا أن لون أرضه ظل أحمر من كثرة الدماء التي التصقت بالأرض، فأطلق عليه الناس منذ ذلك اليوم اسم: «الدرب الأحمر».

لم يكن أحد يعلم بأمر تدبير تلك المذبحة إلا حسن باشا قائد الجنود الأرناؤوط، والكتخدا محمد بك لاظ أوغلي صاحب الفكرة، وصالح قوش أحد الضباط، وإبراهيم أغا حارس الباب، حتى أمينة هانم زوجته لم تكن على علم، فلما علمت بأمر ما حدث من المجزرة التي فعلها في المماليك استبشعت الفعلة، وتشاجرت معه وعنفته وامتنعت عنه طوال حياتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انضم محمود إلى معسكر الحملة الموجود إلى جهة القبة القريبة من القاهرة؛ حيث يتم تجهيزها هناك، عُقِدَ لواءُ الحملة لأحمد باشا طوسن ابن الوالي محمد علي باشا، الذي رتب له حفلة لإلباسه زي القيادة، وانتقاله لمعسكر الحملة، وتخلص فيها من المماليك، تحرك على رأس موكب من القلعة إلى المعسكر بالقبة.

جُهزت الحملة بالرجال والعتاد فيما يقرب من ستة أشهر، حتى صارت على أهبة الاستعداد للرحيل، بعد أن بلغ تعداد رجالها ثمانية آلاف مقاتل، منهم ستة آلاف من المشاة، وألفان من الفرسان، الذين كان أغلبهم من البدو.

أغلب المشاركين في الحملة لم يكونوا على دراية بأسباب هذه الحملة، كل ما كانوا يعرفونه أنهم متجهين إلى جزيرة العرب وأرض الحجاز، فقد كانت تلك الحملة أول حملة يعدها الوالي محمد علي باشا ليحارب خارج البلاد منذ توليه السلطة، كان يصحب الحملة طائفة من الصناع من كل حرفة، السيد محمد المحروقي كان هو من تولَّى إدارة مهمات الحملة، وله في تجهيزها وإعدادها ورسم خططها شأنٌ كبير، فهو من كبار تجار المحروسة، حتى إن الباشا الوالي أوصى ولده الذي بالكاد أكمل عامه السابع عشر ألا يفعل شيئًا إلا بمشورته واطلاعه، ولا ينفذ أي أمر مهما كان إلا بعد مراجعة السيد محمد المحروقي، صَاحَبَ الحملة أربعةٌ من العلماء من أئمة المذاهب الأربعة، السيد أحمد الطحاوي الحنفي، والشيخ محمد المهدي الشافعي، والشيخ الخانكي المالكي، والشيخ المقدسي الحنبلي، بينما اعتذر

السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد، والشيخ علي خفاجي الدمياطي.

تحركت الحملة حتى وصلت إلى ثغر السويس، باشر الوالي محمد علي باشا بنفسه على ترحيل الحملة ومهماتها من السويس حتى أقلعت السفن في الثلاثين من سبتمبر بالجنود المشاة إلى ينبع ميناء المدينة المنورة، احتلوا الميناء دون مقاومة تذكر من حامية وهابية لا يتجاوز عددها الثلاثمائة، فر قائدهم مع بعض رجاله، ووقع الباقون ما بين قتلى وأسرى، أمضى الجنود نهارهم ينصبون بعض الخيام، وقد غطتهم طبقة كثيفة من غبار الصحراء، فلم يكن بقية الجيش قد وصل بعد.

الفرسان وعلى رأسهم طوسون باشا اتخذوا البر عن طريق برزخ السويس فالعقبة حتى بلغوا ينبع، حيث التقوا بالمشاة، ومن هناك زحف الجيش في وحدة واحدة إلى وجهته زاحفًا على المدينة، في طريق الرحلة مع الفرسان إلى ينبع، تعرف محمود إلى رجل في مثل عمره تقريبًا، اسمه عبدالله قال إنه فلاح بن فلاح من إحدى القرى القريبة من الجيزة، قام الوالي بتجنيده إجباريًا وسُحب بالقوة للانضمام للجيش، فأصبح واحدًا من الجنود غير النظاميين أو ما كان يطلق عليهم باشبوزق، أخبره أن الوالي أمر بجلد أي شيخ قرية ٢٠٠ جلدة بالكرباج إذا ثبت أنه تواطأ لإخفاء مجندين من قريته، وإذا لم يبلغ عن المنسحبين في قريته خلال أربعة أيام، يتم صلبه وإعدامه، أما مأمور المركز الذي يثبت أنه يخفي أحدًا من قسمه يتلقى ١٠٠ ضربة بالفلقة على قدميه، بعدها يُرحَّل ويسجن مدى الحياة في أبي قير، كان أكبر إخوانه، متعلمًا حافظًا للقرأن، تلقى تعليمه في الأزهر، ورغم أنه كان متفوقًا، لكنه لم يكمل تعليمه الأزهري، ليساعد والده في

الفلاحة، وفي مصاريف البيت بعد أن مرض وضعف ولم يعد قادرًا على العمل كما كان، واسع الإدراك يتابع ما يحدث في المحروسة وفي البلاد، كان يأمل وهو صغيرٌ أن يكمل تعليمه، ويصير شيخًا كبيرًا كأحد الشيوخ الذين سمع وشب على حكاوى بطولاتهم أيام الحمله الفرنسية.

تحدث عبدالله معه أثناء سيرهم وسط الصحراء التي لا يبدو أن لها نهاية، والجبال تحيط بهم قائلًا:

- إن الوالي يريد أن يرسخ مكانته لدى العثمانيين، حتى لا يفكروا في عزله، بل إنه ربما يريد أن يفعل كما فعل علي بك الكبير من التخلص من سطوة الحكم العثماني عليه، فيستقل بمصر والمحروسة، ويستأثر بالبلد لحكمه، فعلي بك الكبير أيضًا ذهب بجيوشه إلى جزيرة العرب وفتحها وبسط نفوذ سلطانه على الحجاز، حتى إن شريف مكة لقبه بسلطان مصر وخاقان البحرين.

ضحك متهكمًا ثم تابع:

- كل حاكم يسعى لمجده الشخصي ومصلحته الخاصة، ألم ترى كمَّ الضرائب والإتاوات التي فرضها الوالي على الناس، والناس لا حول لهم ولا قوة، لا يقدر أحد منهم على الاعتراض؛ لأنه أخبرهم أنه سينفق المال على حرب مقدسة لاسترداد الحرمين الشريفين وتأمين سبيل الحج.

رد محمود متفهمًا:

- إذن الحرب لمصلحته وليست لنصرة الدين؟

هز رأسه أن نعم وهو يتابع:

- لقد قضى على المماليك في الداخل ويريد أن يبسط سلطانه على الخارج، ويبعد أيضًا الجنود الأرناؤوط وبقية الدلاة الذين زادوا في تمردهم وطغيانهم فيبعدهم إلى المناطق النائية من جزيرة العرب.

ساروا حتى وصلوا إلى بدر، وقبل الهجوم رفع طوسون باشا يده اليمنى للسماء، وهو على صهوة جواده، ونطق بأعلى صوته:

- «وإن جندنا لهم الغالبون».

فمال عبدالله على محمود هامسًا في سخرية:

- جند الله !!! وهل نحارب الكفار؟!!

نكزه محمود في كتفه محذرًا:

- اخفض صوتك حتى لا يسمعك أحدهم.

ظل الباشا الصغير يُمعن النظر في استعدادات قواته، والاستحكامات التي اتخذوها، وبدأ الجنود غير النظاميون في التحرك، حاملين بنادقهم، وبيارقهم ترفرف مع قوة ريح الصحراء، وعيونهم تكاد تمتلئ بالرمال الساخنة، التي تملأ الهواء من حولهم، وتسخن رئاتهم، الفرسان كانوا في المؤخرة بِطَاءَ في انطلاقتهم، اشتبكوا مع الوهابيين في معركة شديدة، وارتفع صوت انطلاق المدافع، فأغمض الباشا الصغير عينيه، وأبقاهما مغمضتين بضع ثوان، والطنين يملأ رأسه وشعر بالدوار للحظات، ارتفعت من حوله صيحات الهجوم من الحناجر، واندفع المشاة كنهر كاسح، انطلقت الرصاصات وسالت الدماء، سُحبت السيوف والخناجر، غرست في الأبدان وجزت الأعناق، استمرت المعركة ما يقرب من ساعتين، وبدا أن الهجوم الذي يزداد عنفوانه مع كل لحظه تمضي، يحقق أهدافه، انتهت

المعركة بالنصر لجانبهم وبسيطرتهم على بدر، وارتداد الوهابيين إلى وادي الصفراء حيث تحصنوا بها، وأقاموا الاستحكامات والاستعدادات لملاقاة الجيش المصري مرة أخرى.

أكمل الجيش طريقه خلفهم إلى وادي الصفراء وهاجموهم هناك، تراجع الوهابيون في مكيدة دبروها واستعدوا لها، فوجد الجُند المصريون أنفسهم قد وصلوا إلى طرق ضيقة يسيطر عليها الوهابيون من أعلاها، وفي المؤخرة كان الباشا على أحر من الجمر لأن يسمع صرخة تعلن انتصاره، وارتفاع ضجيج المعركة من حوله يشبه هزيم الرعد المتواصل، انهالت عليهم القذائف من عَلٍ كالمطر الحارق، اضطربت الصفوف الأولى وانهزمت، وانتشر الذعر في الصفوف التي تليها، اختل نظام الحملة وتشت الجند تاركين بنادقهم ومدافعهم وتراجعوا مهزومين قاصدين الساحل بعد ما قُتل منهم ستمائة قتيل، وفقد معظمهم ذخيرته، وعادوا إلى ينبع في غير نظام، طاردهم الوهابيون في طريق عودتهم وقتلوا منهم بضعة آلاف فلم يبق من الجيش بعد أن رجع متقهقرًا إلى ينبع غير ثلاثة آلاف.

أصيب محمود بجرح في كتفه، وطعنة في فخذته، وتعرض عبدالله للجروح والسحجات، لكنه تحملها في بسالة وشجاعة وقوة، وحمل على كتفه محمود وساعده في الهروب معه من الوهابيين حتى وصلا إلى ينبع، ولولا ستر الله الذي حجب عن الوهابيين فكرة الهجوم على باقي الحملة بينبع، لقُضي على كل فرد فيها، فاكتفى الوهابيون بتحصين المدينة والمكوث فيها، بينما انتظر طوسون باشا في ظل تلك الغفلة المدد من مصر، بعد أن أرسل خبر الهزيمة إلى الوالي في مصر، محُملًا الهزيمة إلى تقصير القواد، فاستدعى محمد علي باشا البعض منهم للعودة،

وعاد البعض من تلقاء نفسه، أقصاهم عن مراكزهم ونفاهم من مصر، وبدأ في تجهيز حملة جديدة وفرض ضرائب وإتاوات جديدة لم يتحملها الفلاحون، فأخذها منهم غلالًا ليمون منه الجيش.

وقف طوسون باشا يتابع الشمس الغاربة وجنوده المرهقة التي بالغها التعب، وطالها الإعياء، يرقدون تحت الخيام، يرجون الراحة والشفاء من الإصابات التي لحقت بهم، يساعد الصحيح منهم الجريح، رقد محمود على ظهره بعد أن افترش فرشة في إحدى الخيام، ساعده عبدالله على تنظيف جراحه وتضميدها، ثم خرج ليساعد جرحى آخرين، وفي الليل عاد وجلس جواره، يقرأ ما يحفظ من القرأن، لاحظ الرعشة التي أصابت جسد محمود وانكماشته تحت غطائه، فعلم أن الجرح الذي أصيب به، قد جلب عليه الحمى، بات ليلته جواره يضع له بعض القماش المبلل على جبينه، حتى بدت عليه علامات التعافي من الحمى بعد يومين، خرج يومها متعكزًا على رفيقه ليرى الصحراء، وقد بدأت تغرق في ظلمة الليل رويدًا رويدًا، وخيام الجنود حولهم كركام من ضباب، والجنود الباقية من الحملة منهم من يرقد خارج خيمته، يتابع الفضاء ويتساءل ما الذي أتى به إلى هذه الأراضي البعيدة عن وطنه وديار أهله، كان يدرك إدراكًا يقينيًا أن الجنود وربما قائدي الحملة، يصبون اللعنات، ويأملون أن تأتي لهم الأوامر بالعودة، جلس جوار خيمته خائر القوى، وقد غلبه حنين فجائي لبيته ولأمه ولزوجة أبيه، وابتسم لما طاف بعقله ابتسامة ليلى ونظرة عينيها التي كان يرى الحب يضيئُها، سأل عبدالله الذي جلس إلى جواره:

- هل سنعيد الكرة من جديد؟

تنهد عبدالله وهو يداعب رمال الصحراء بأصابعه:

- علمت أن طوسون باشا أرسل في طلب المدد من الوالي، لن نستطيع الهجوم بتلك الأعداد القليلة الجريحة، المتبقية من الحملة، أتمنى ألا يهجموا هم علينا.

أمسك محمود برأسه وأغمض عينيه وهو يقول:

- رأسي يكاد ينفجر.

طال الصمت بينهما ثم سأل عبدالله:

- ما الذي أتى بك مع الحملة؟

نطق محمود وهو مغمض العينين، يسند رأسه إلى عامود مدخل الخيمة:

- أردت أن أبتعد عن حياتي قليلًا، كنت أشعر بفراغ من حولي، فكرت أن أبتعد عن أهلي وعن حياتي لفترة، لعلي أستعيد نفسي من جديد، سمعت بأمر المعسكر وتجهيز الحملة، فتوجهت هناك، أنا لا أعلم حتى مَن نحارب؟ ولم نحارب؟ لا أعرف سوى ما أخبرتني به في طريقنا إلى هنا.

أجاب عبدالله:

- عرفت من الشيوخ الذين أتوا معنا، أن هؤلاء القوم يُدعون بالوهابيين، نسبة إلى شيخ يتبعونه يدعى محمد بن عبدالوهاب، وأنهم يعدونهم من الخوارج، يقولون إنهم استولوا على نفائس الحرم النبوي وما فيه من جواهر لا تقدر بمال، قالوا إنها تملأ أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت، وأربع شمعدانات من الزبرجد ويوجد بدلًا من الشمع قطعًا من ماس مستطيلة، يضيء نورها في الظلام، ونحو مائة سيف قراباتها

ملبسة بالذهب الخالص المطعم بالماس والياقوت، ونصالها من الزبرجد والبشم، وسلاحها من الحديد الموصوف وعليها دمغات باسم الملوك والخلفاء، كما نهبوا مدينة الإمام الحسين عند الفرات بعد نهبهم المسجد الحرام.

فغر محمود فاه اندهاشًا وهو يقول متعجبًا:

- كل هذا؟!! إنهم لصوص.

تابع عبدالله:

- مع ذلك يدَّعون أنهم يدعُون إلى العودة لأصول الدين ويرفعون رايته، فقد أرسلوا إلى الباب العالي يخبروه أنهم هدموا القباب فوق القبور، وطالبوه بمنع مجيء المحمل من دمشق أو القاهرة لأنه ليس من الدين، وهم بالفعل قد منعوه من قبل من دخول مكة في صحبة الحجاج... يبدو أنهم متشددون ومغالون في دينهم، لدرجة أنهم منعوا الحجاج الذين لا يتبعون تعاليمهم من الحج.

في ينبع حاول طوسن باشا استمالة القبائل التي تعيش بين ينبع والمدينة بالمال وبالهدايا، فوزع الأموال والكساوى التي أرسلها الباشا الوالي على رجال القبائل، ولما وصل المدد بعد حين، كان محمود قد تعافى من جراحه، وتعافى بقيةُ الجند، فتحرك الجيش بعد أن انضم إليهم قبائل من عرب جهينة وحرب، فاستولوا على الصفراء دون معركة تذكر بمساعدة الشريف غالب شريف مكة في أول أكتوبر ١٨١٢.

تابع الجيش بعدها السير حتى أسوار المدينة المنورة، لاقى الجنود الشدائد والأهوال في قطع المسافات البعيدة المترامية بين الفيافي والقفار، نالتهم المتاعب من وعورة الطرق، وشدة

القيظ في الأرض والسماء، إلى قلة المؤن وندرة المياه، فاضطروا للسير ليلًا والراحة بالنهار، ظلوا في رحلتهم حتى المدينة ثلاثة أيام، حاصروها دون إطلاق أي قنابل، خوفًا من إصابة الحرم النبوي الشريف، لكنهم لغموا تحت سور المدينة لنسفه بعد أن أنذروا أهلها بأن يلزموا بيوتهم، فتح اللغم ثغرة في السور، في غضون ثوانى من ذلك اندفع عدد من الجنود المصريين من الجانب الشمالي تجاه الثغرة الكبيرة التي فُتحت في السور، احتلوا المدينة وسيطروا عليها، بعد أن قتلوا من أدركوهم من بقايا الوهابيين الذين لم ينجحوا في الهروب، حمل طوسن مفاتيح المدينة بين يديه، ثم أرسلها إلى والده في المحروسة مع بعض الهجانة، والذي أطلق المدافع من القلعة احتفالًا بالبشرى وبالنصر، مارس بعض الجنود عادتهم المفضلة في قطع آذان قتلاهم وإرسالها للأستانة كعلامة على البسالة والقوة ولإعلان استهانتهم بالوهابيين.

بعد أن استتب الأمر بالجنود انطلق عبدالله واصطحب معه محمود إلى المسجد النبوي الشريف وأقدامهم متقرحة من طول المشى، وقفا أمام الروضة الشريفة، وألقيا السلام، ثم صمتا عن الكلام، لم يقدر أحدهم على النطق، أخذتهم الجلاله والرهبة من المكان الذي يقفا فيه، وهما يتخيلان أن جسد الرسول المصطفى على بُعد خطوتين أو ثلاثة منهم، مال عبدالله على محمود وقال هامسًا:

- نحن في الروضة التي قال عنها الرسول -صلى الله عليه وسلم: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

همس محمود في رهبة من المكان قائلًا:

- أحيانًا أشعر وكأننا نحيا في حلم سأستيقظ منه بعد حين.. أقف أمام القبر وأتخيله نافذة إلى عالم آخر، ربما لو دققت من خلالها لاجتزت الحجب واستطعت أن أرى منه بصيصًا يطفئ شغفي بمعرفة الجانب الآخر.. كيف هو الموت وماذا بعده.. وهل للموتى حياة؟! وكيف يحيونها؟!

لم يرد عبدالله وسرح بعينيه في الأعمدة حولهم المصنوعة من الحجر الأحمر بعضها من قطعة واحدة، مغطاة بطبقة من الرخام المزخرف والمزين بماء الذهب، عليها عقود تحمل أعلاها قبابًا، والأهلة المصنوعة من النحاس المطلي بالذهب تعلو القبة الخضراء ومآذن المسجد، أحدها على القبة وهلال على المنبر وخمسة أهلة لكل منار، باتوا أول لياليهم في الحرم النبوي الشريف بعدما صلوا ودعوا الله.

هبط الظلام على المدينة وقوات الجيش في حال مفعمة بالحيوية والابتهاج، جراء فتح المدينة وانتصارهم في المعركة دون قتال شديد أو جروح تذكر أو خسائر، أُضرمت النيران هنا وهناك بين الجنود، وغنى البعض منهم غناءًا كالإنشاد وبعض الابتهالات، وهم ملتفين ساهرين حول النيران، كان البدر قد ارتفع إلى كبد السماء، فجعل النيران المتوهجة تبدو خافتة.

راقب الأمير سعود بن عبد العزيز تطور القتال عن بُعد دون أن يحاول التورط في معركة تكون الهزيمة من نصيبه فيها، انتظر الأخبار من بصاصيه ودرس طرق الجيش المصري في الحرب، استعد لملاقاته حين يأتي الوقت الذي يراه مناسبًا، ولما حلت السنة الجديدة، كان الجيش المصري قد احتل جدة، وسار طوسون باشا منها على رأس جيشه إلى مكة واستُقبل فيها استقبال الفاتحين، ورغم إرهاق الجنود من الطريق، إلا أن هذا

لم يمنع البعض منهم عن زيارة الكعبة، كما لم يمنع البعض الآخر من متابعة نساء مكة بارعات الجمال، التي فاق حسنهن ما سمعوه، وتنشقوا رائحتهن العطرة من كثرة تطيبهن، حتى اللائي يقصدن الكعبة للطواف في كل ليلة جمعة، كن يأتين في أحسن زي متطيبات، فتغلب رائحة طيبهن على الحرم، مال محمود على عبدالله هامسًا وهو ينظر إلى عيني فتاة كحيلة مرت جواره، فخلبت لُبه:

- عينا المرأة وشعرها الطويل المسترسل أكثر الأشياء التي تخلب اللب، لكن عيني المرأة المستورتين بخمار تسلبان اللب أكثر مما يسلبه جسدها العاري.

نطق عبدالله وهو يجول بنظره حوله:

- لست خبيرًا في النساء، ولا أفهمهن إطلاقًا.

رد محمود باسمًا:

- ولا أحد يفهمهن، النساء لا يفهمن أنفسهن.

من مكة تحرك طوسون باشا من جديد ناحية الطائف ووضعها تحت سيطرته قبل أن يمر شهر على دخوله مكة.

حينها أدرك الأمير سعود أن الوقت المناسب قد حان، زحف الأمير بجيشين، أحدهما تحت إمرته، والآخر أمر ابنه فيصل بقيادته ناحية مكة والمدينة، بلغت الأخبار طوسون باشا فخرج لملاقاتهما، فأرسل مصطفى بك على رأس بعض القوات لمهاجمة فيصل في تربة، التي اتخذها معسكرًا له، وأحاطها بالخنادق فكانت صعبة الاقتحام، انقض الوهابيون عليهم تحت قيادة امرأة من نبلائهم تدعى غالية، وهي أرملة رجل من أغنياء «البقوم» -بنو عامر بن حوالة بن الهنوء بن الأزد- من سكان

«تَربة» على مقربة من الطائف، من جهة نجد، بدأ إحساس الهزيمة يتسرب لقلب الجنود المصريين، فكان في وسع بعضهم أن يشعر بالموت نفسه يتحرك بينهم، يحمل منجله ويحصد أرواحهم في هدوء مخيف، ويقطف زهرة أعمارهم بسكينٍ بارد، أوقع الوهابيون بالجيش المصري الهزيمة، وأجبروهم على الارتداد إلى الطائف بعد أن ترك مدافعه وذخيرته.

في الليل وسط معسكر الجيش المصري، ارتفع صوت العجلات على الرمال، تحمل مصابيح مثبتة على جهاتها الخلفية، تلمع كل منها بأضواء متذبذبة تمزق نياط القلوب، تثير الشجن والحزن في النفوس، خلف العربات مجموعة من الجند، يحملون المعاول والمجارف، في طريقهم لحفر القبور ودفن موتى المعركة، نطق أحد الجنود:

- يبدو أن الأوامر صدرت بدفن الموتى، فيجب أن يتم الدفن على الفور.

فرد عليه آخر:

- إكرام الميت دفنه.

ابتسم عبدالله متهكمًا:

- لا من أجل إكرامه، بل حتى لا تخرج علينا رائحة الموتى في الأيام القادمة.

كانت الجثث المكدسة ينيرها ضوء القمر الشاحب، انزلقت إحدى الجثث وسقطت على الأرض، فتحرك اثنان على مقربة منها ليحملوها ويضعوها في الجزء الخلفي للعربة، حفروا ثلاث حفر مستطيلة طويلة، ثم أُلقيت الجثث في القبر، حتى امتلأت الحفر واحدة تلو الأخرى، فيما شرع آخرون في وضع التراب على

القبر الجماعي، والكل يقف في صمت مهيب، يتمتمون سرًا بالدعاء للموتى طالبين الرحمة لهم، بعدما صلوا عليهم، ارتفع صوت أحدهم يقول:

- غطوا القبور جيدًا حتى لا تجذب الكلاب أو الذئاب ووحوش الصحراء في الليل، فتمزق الجثث.

همس محمود لنفسه ونظراته واجمة تتابع جثث قتلى الحرب ودفنها:

- وهل بعد الموت.. موت؟!!

في ذلك الوقت هجم الأمير سعود بعشرين ألفٍ من الجند على الحناكية، التي كانت ترابط بها حامية مصرية تحت قيادة عثمان كاشف، ارتفعت أصوات الطلقات، وضربات المدافع من جديد، دافع الجنود المصريون في شراسة، طالت المعركة واحتد القتال وسالت الدماء أنهارًا، اقترب أحد الضباط على فرسه ووقف جوار عثمان كاشف قائلًا بصوت عالٍ في محاولة ليعلو صوته فوق ضجيج المعركة:

- لن تستطيع قواتنا الصمود أكثر في هذه المعركة، استمرارنا يعني انتحارنا والتضحية بأرواح جنودنا.

أدرك عثمان كاشف أنه لا فائدة من الاستمرار في المعركة فأمر بالانسحاب، ارتفعت أصوات الأبواق، واضطر للتسليم أمام الجموع الغفيرة المهاجمة، انسحبت الجنود المهزومة المنهكة تحت أشعة الشمس تحرقهم بحرارتها الشديدة، وشفاههم قد تشققت من العطش وقلة الماء، دماء المصريين القتلى مسكوبة على رمال الصحراء الصفراء، خضبتها بلونها الأحمر القاني، وجوههم يظهر عليها الإنهاك الشديد، البعض يساعد رفاقه

المجروحين، والبعض يحمل رفيق سلاحه على كتفيه، احتل الوهابيون الحناكية، ثم ساروا منها ناحية المدينة.

انتشرت الأمراض في الجيش المصري، وأصيب الجند بالإعياء لشدة القيظ وقلة المؤن والماء، فكان يمر على الجند أحيانًا يومين أو ثلاثة دون طعام، وجو الصحراء كان أشبه بحرٍّ جهنم، جفت حلوقهم وتشققت شفاههم، وفتكت بهم الأمراض وألمَّ بهم الضعف، ولم يكن هناك من أطباء لعلاج المرضى، أو حتى توفير وسائل للعلاج، فاعتصم طوسون باشا مع جيشه في مكة، وقرر الدفاع، وأرسل في طلب المدد والمساعدة من مصر.

في الليل سمع محمود وعبدالله صرخة من إحدى الخيام المجاورة، فهبوا فزعين، وذهبوا لمصدر الصوت، ووجدوا جندًا، متجمعين حول مدخل إحدى الخيام، تساءل محمود عما حدث، فرد عليه أحدهم، أن أحد الجنود كان يشتكي من إصابة جوار عينيه في المعركة الأخيرة، ويبدو أنه قد فقد بصره وأصيب بالعمى؛ لأنه لم يلق علاجًا، دخل إلى الخيمة ووجد شابًّا يخفي عينيه بيديه، ويبكي، ورغم ذلك كان يقول شعرًا يندب فيه حظه ويتحسر على ما أصابه، تبادل النظر مع عبدالله وهو يهمس له:

- عجبًا يقول شعرًا وهو في حالته تلك ويبكي أيضًا.

فرد هامسًا:

- دعه يفرغ ما بداخله.

صمت قليلًا ثم قال:

- كان هناك شاعر ضرير قبل قرون في بلاد الإغريق القديمة، اسمه هوميروس.

سمعه الجندي المصاب الباكي، فحرك رأسه ناحيته وهو يقول:

- لم أسمع عنه من قبل، اسمي سعد ولا أعرف الشعر، لا أعرف إلا الأغاني التي كنا نتغنى بها، ونحن نمسك المناجل بين أصابعنا نحصد بها سنابل القمح، أخذونا من بيوتنا ومن أرضنا وجاءوا بنا هنا لنمسك المناجل ونحصد رؤوس بشرًا مثلنا وأُصاب أنا بالعمى، لعنهم الله جميعًا ولعن حروبهم.

وصلت الأخبار وأنباء ما حدث للمحروسة، طوح محمد علي باشا بالرسالة التي وصلته على طول ذراعه، وصرخ في حراسه:

- أحضروا لي غالي في الحين.

انطلق الحرس من حوله وأرسلوا من يطلب المعلم غالي أبو طاقية للحضور، حضر مهرولًا في عباءته السوداء وعمامته التي من نفس اللون والتي تشبه القبة، دخل محييًا الوالي، الذي نطق بمجرد دخوله:

- نريد تجهيز حملة جيدة تذهب إلى أرض جزيرة العرب.

رد في خنوع وطاعة وهو يرد ملاطفًا:

- أمرك يا سيدى، ولكن الناس ما زالوا يعانون من الضرائب التي فرضناها عليهم من قبل.

رد الوالي في صوت عالٍ:

- هذا عملك، أحضر لي الأموال، إفرض الإتاوات وأحضر لي الأموال التي أمرتك أن تجمعها في أسرع وقت، أمامك بضعة أيام حتى يتم جمع الجنود الذين سيذهبون للحرب، سأذهب بنفسي إلى أرض المعركة.

انصرف المعلم غالي مهرولًا وهو يضم عباءته بيديه على ساقيه، ليدبر أموره ويستعد لتنفيذ ما طُلب منه، وإلا حبسه الباشا الوالي وعذبه وأهانه كما يفعل في كل مرة يغضب عليه، أو ربما نفاه هذه المرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ١٢ -

لم يكن محمد علي يفرق في تعاملاته مع المصريين بين المسلمين والمسيحيين، فقد تلاشت في عهده الفروق بين الأقباط والمسلمين، بل إن المسيحيين قد ازدهروا في عهده، وتبوأوا مراكز عليا، وبدأوا في أخذ حقوقهم إلى حد ما، فنجد أن محمد علي جعل بطرس أغا أرمانيوس مأمورًا لمركز وادي برديس الذي كان يشمل القسم الشمالي من مديرية قنا والجنوبي من مديرية جرجا، وجعل عيد فرج أغا ميخائيل حاكمًا لمركز دير نواس، وميخائيل أغا عبده للفشن ببني سويف، وتكلا سيداروس لبهجورة، وأنطوان أبو طاقية في الشرقية، ومكرم أغا حاكمًا في شرق أطفيح، وغيرهم، بل قام بتعيينهم كحكام أقاليم، كما كان كبير كَتَبة محمد علي قبطيًا، وهو المعلم وهبة إبراهيم، ومن بعده المعلم نخلة إيريس المصري، وقد سُمح للأقباط في عهده بحرية بناء الكنائس وممارسة الطقوس الدينية ولم يُرفض أي طلب تقدم الأقباط به لبناء أو إصلاح أي كنيسة، ولم تعد هناك أي صعوبات للحصول على إذن بزيارة الأراضي المقدسة، وفي عهده خلع الأقباط الزي الأزرق والأسود الذي كان مفروضًا عليهم، وأصبحوا يرتدون الكشمير الملون، كما خلع عنهم الجلاجل الحديدية التي تسببت في إزرقاق عظام ترقوتهم حتى أصبحت العظمة الزرقاء لقبًا يُكَّنون به، مع ذلك كان المسيحيون في بداية عهد محمد علي يُمنعون من الالتحاق بالمدارس الحكومية التي أُنشئت لأغراض عسكرية، وكما هو الحال دائمًا، حاول البعض من الخارج التدخل في شئون مصر الداخلية للايقاع بين المسيحيين والسلطة، أو بين المسيحيين والمسلمين، كما يحدث على مر العصور، فقد أوفد قيصر روسيا

في أحد الأيام مندوبًا للكنيسة القبطية، يقول للبابا بطرس الجاولي بأنه سيقوم بحماية الأرثوذكس المصريين. فسأل البابا الأميرَ المندوب:

- هل ملككم يحيا إلى الأبد؟

فأجابه أنه يموت كسائر البشر، فرد الباب لحظتها:

- والكنيسة القبطية تحت رحمة وعناية هذا الإله العظيم الذي لا نريد أن نتخذ غيره بديلًا وحاميًا.

بالطبع لما سمع محمد علي باشا بهذا، أرسل يشكره، فرد عليه البابا:

- لا تشكر من قام بواجب عليه نحو بلاد تظلله وتظلل إخوانه في الجنسية الوطنية.

ولما أصيبت في إحدى الأيام زُهرة باشا ابنة محمد علي، وزوجة أحمد بك الدفتردار بمرض حار الأطباء في علاجه ولم يعرفوا لها شفاء منه، حتى قال البعض إنها تلبستها روح شريرة نجسة، وبمشورة رجال القصر طلب محمد علي معونة البابا، فأرسل إليه الأنبا صرابامون أسقف المنوفية الذي صلى عليها ليُخرج الروح الشريرة.

محمد علي لم يكن يشعر بشبع في طلب المزيد من الضرائب، قاوم المعلم جرجس الجوهري ذلك في البداية، حتى لم يستطع، وحقق المعلم غالي لمحمد علي باشا رغبته، فشعر المعلم جرجس بالخطر بعد غضبة الوالي عليه، بعد هذا الموقف، فاضطر إلى الهرب إلى الصعيد، فأسند محمد علي إلى المعلم غالي منصب كبير المباشرين الذين يجمعون الضرائب، كان المعلم غالي أبو طاقية كاتبًا لدى محمد بك الألفي، ثم تركه،

وتعلق بخدمة محمد علي باشا، لم يُظهر للباشا معارضة أبدًا في أوامره بل كان يساعده على تنفيذ أغراضه بتسهيل الأمر له، ولا سيما فيما يختص بتحصيل الأموال، كان يعرف اللغة التركية ويتكلم بها فأحبه ورفع منزلته، وعوَّل عليه في الأعمال المالية، وركن إليه وعمل برأيه وفكره فيها، كان اليد اليمنى لمحمد علي.

وضع المعلم غالي نظام الضرائب وجبايتها، كما قام بتعيين بعض الأقباط في الوظائف الصغرى الذي يشترط فيها الأمانة الكاملة، المعلم غالي كان على علم أنه توجد أراض كثيرة يزرعها أصحاب الاقتدار بغير دفع أموال عليها، فشرع في تحديد مساحة عموم أراضي القطر المصري، فنمت الإيرادات، بعد أن رُبطت الأموال على هذه الأراضي المزروعة دون علم الدولة.

سهل المعلم غالي لمحمد علي باشا أمر تحصيل الضرائب، وأسندت رئاسة الكُتَّاب إليه، ولكن هذا الأمر صار نقمة عليه لما طلب الباشا منه ألف كيس، فقسم جمعها على المباشرين والكتبة لجمعها في أقرب وقت، لكن الباشا كان يريدها جاهزة بأسرع مما كان يتوقعه المعلم غالي، ففوجئ أن الوالي أوقع الحوطة على بيته بعد فترة قصيرة وأمر بمحاصرة بيته، وبيت المعلم جرجس الطويل، وأخيه حنا، وفرنسيس أخي المعلم غالي، والمعلم فلتاؤس، واثنين آخرين وأخرجوهم من منازلهم عنوة بصورة مهينة، بعد أن تجمع الناس من حولهم يتابعون ويتفرجون على عملية القبض على المعلم غالي ورفاقه، سمَّروا ديارهم، وأخذوا دفاترهم وحبسوهم في القلعة، وبعد أيام أفرج عنهم بعد أن فُرض عليهم دفع غرامة وقدرها سبعة آلاف كيس قاموا بدفعها مرغمين.

لم تمضِ سبعة شهور أخرى حتى قبض عليهم من جديد، وتم حبسهم مرة أخرى في القلعة، وختم على دورهم من جديد، ثم أنزلوا المعلم غالي والمعلم فلتاؤس في مركب ليسافرا إلى دمياط منفيين، وكان على ديوان الجمرك حينئذ المعلم منصور صرابامون ومعه كاتبان بشارة، والآخر رزق الله الصباغ، ورزق الله كان من عائلة المعلم جرجس الجوهري، فأحضر الباشا الوالي المعلم منصور وقلَّده مباشرة الدواوين.

قام المعلم منصور حينها بتعيين أشخاص مباشرين للإشراف على النسيج، فكانوا يجوبون النواحي والبلدان والقرى ويتقاضون ما يلزم لهم من المصاريف والمشاهرات، فيحصون ويقومون بِعَدْ كل ما هو موجود على الأنوال من القماش والبز والأكسية الصوف، ويكتبون عدده على ذمة الصانع، حتي إذا ما تم نسجه دفعوا لصاحبه ثمنه طِبقًا لما قاموا بتسعيره، وإذا أراد صاحبها الاحتفاظ بها من الموكلين فيشتريها بالثمن الذي يقدرونه بعد الختم على النسيج من طرفيه بعلامة الميري، وإذا ظهر هذا النسيج عند شخص آخر غير صانعه بغير علامة الميري، تتم مصادرة هذا النسيج ومعاقبة المشتري، الذي لم يحرص على احترام النظام بشراء نسيج غير مختوم.

بعد فترة، سعى الساعون في مصالحة المعلم غالي ورفقائه على محمد علي باشا، فقبل الباشا الوالي العفو عنهم والرضا عليهم، بشرط أن يدفعوا أربعة وعشرين ألف كيس.

حضر المعلم غالي من دمياط وصعد إلى القلعة لمقابلة الوالي محمد علي باشا، فخلع عليه وألبسه فروة من السمور، وتنازل له عن أربعة آلاف كيس، وأمر أن ينزلوا به إلى داره وأمامه الجاويشية بالعصي المفضضة، وأعاده مرة أخرى من جديد إلى

مباشرة الدواوين بدلًا من المعلم منصور الذي جعله كاتبًا لابنه إبراهيم باشا.

لم يكن أحد يدري ما يدور في عقل الوالي محمد علي باشا، فقد تكرر حدوث ذلك الأمر مرات عدة من محمد علي، فكان يغضب عليه تارة ويعزله من منصبه تارة، يرميه في السجن فترة من الزمن ويضربه مئات الكرابيج، ثم يعيده إلى منصبه بعد إرغامه على دفع مبالغ طائلة.

ففي ذات مرة توجه الباشا إلى الإسكندرية لمهمة، واحتاج لنقود فطلب من المعلم غالي صرف ستة آلاف كيس كانت باقية من الجمع، فاعتذر بعدم قدرته على تحصيلها فورًا، وأنه ساع في تحصيلها من أصحابها، فلم يقبل هذا العذر منه، وأرسل إلى كتخداه في المحروسة بالقبض عليه مرة أخرى، وعلى أخيه فرنسيس، وأمينه المدعو المعلم سمعان وسجنهم في القلعة حتى يدفعوا هذا المبلغ، حينها شعر المعلم جرجس الطويل وحنا أخوه بالخوف أيضًا، من سوء العاقبة، وكانا يضمران الشر للمعلم غالي، فتحاملا عليه، وألقوا بالوسواس في أذني الباشا الوالي بأن المعلم غالي إذا حوسب سيظهر عليه ثلاثون ألف كيس وربما أكثر، وتعهدا للباشا الوالي بأنهما إذا فوض لهما عمل حساب للمعلم غالي ولم يظهر عليه هذا المبلغ، فيكونان ملزومين بأدائه للخزينة، هاج الوالي واشتدت غضبته بعد أن صدق وشايتهما، فعزل المعلم غالي من رئاسة الكتابة، وولَّى المعلم منقريوس البتانوني بدلًا منه، ولم يكتف بذلك، بل ضيق عليه في الحبس، وأهانه إهانة شديدة في محبسه، وأمر بتكرار الضرب عليه حتى أشرف على الهلاك، بعد ذلك أفرج عن أخيه وأمينه ليسعيا في التحصيل، أما المعلم غالي فظل في محبسه،

ولما شرع الباشا في تغيير هيئة الدواوين واستبدالها، رضي عن المعلم غالي وأخرجه من السجن وكلفه بذلك الأمر، فقام بتقسيم مصر إلى مديريات وأقسام، والأطيان إلى أحواض وقبائل، ولتسهيل مأمورية تحصيل الضرائب للخزانة قام بإنشاء مصلحة المساحة.

غاب المعلم غالي نحو سنة في الصعيد وهو يشتغل في ذلك، بعدها عاد إلى المحروسة، فلما قصد المعلم غالي العود إلى المحروسة، زوَّده محمد بك الدفتردار وكان المتولي إمارة الصعيد حينئذ بكتاب منه للباشا يمدح فيه نصحه وسعيه في فتح أبواب تحصيل الأموال للخزينة، وابتكاره لأشياء ولحسابات يتحصل منها مقادير وافرة من المال، فقابله الباشا بالرضا وأثنى عليه، وفي يوم اقترح المعلم غالي على محمد علي باشا حفر قناة بين بحر الروم وبحر العرب، ولكنه لم ينفذ، برغم كل ما فعله الباشا الوالي في المعلم غالي إلا أنه اتخذه كاتبًا لسره نتيجة لنجاحه الكبير في كل ما طلب منه وقام بتنفيذه كما ينبغي، فقابله بالرضا وأثنى عليه، وخصَّه بمباشرة الأعمال الحسابية التي ابتكرها، فكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الأقاليم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حُشد الجند، وفُرضت الإتاوات على التجار، وتم تجهيز الحملة الجديدة، تحركت وعلى رأسها الوالي في أغسطس ١٨١٣، أبحر من السويس على ظهر سفينة ونزل بجدة، كان وصوله سببًا في رفع روح الجند المهلكين المعنوية، بعد معاناتهم من الهزيمة والقيظ والظروف السيئة التي يعانون منها، قصد مكة في بادئ الأمر، وأدى مناسك الحج، وكان قد حان ميقاتها، بعد أيام اجتمع مع ابنه طوسون باشا وقواده، استمع لهم في إنصات، سأل على كل الأمور الصغيرة قبل الكبيرة، اهتم بالتفاصيل التي جرت في المعارك وما حدث للحملة أثناء رحلة قدومه، من الحديث خامره شيء من الشك في الشريف غالب، أو ربما شعر منه بالتراخي في معاونة الجيش المصري، لم يتردد كثيرًا في الأمر واتخاذ القرار، اعتقله وأرسله ليحبس في المحروسة، وقرر مصادرة جميع أمواله، وأمر بتولية ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور خلفًا له.

في البداية قرر الهجوم على الوهابيين في معاقلهم، قام بتوجيه طوسون باشا على رأس خمسة آلاف من المشاة، وألفٍ من الفرسان وستة من المدافع، للاستيلاء على تُرَبَة، التي كانت موطنًا لقبيلة بني هلال، قبل أن تنزح من الجزيرة العربية إلى أقصى المغرب العربي، واسمها نسبة إلى وادي تُرَبَة الذي يمتد من قمم جبال الحجاز حتى أطراف صحراء نجد، بطول أربعمائة كيلو متر ويصب فيه العديد من الأودية والشعاب، وهي موجودة من أيام العصر الجاهلي.

ضرب عليها طوسون باشا ابن الوالي الحصار، وقد كان يحدها من الشمال أرض منبسطة بها عدد من التلال الصغيرة، ومن

الشرق تلال الثغر، فأرض فسيحة منبسطة بها بعض التلال، ومن الغرب أرض منبسطة.

قضى الجنود لياليهم الأولى في نصب الخيام وإعدادها للسكنى، وبالطبع كانت أولى الخيام التي نُصبت، وجُهزت، وأعُدت، خيمة طوسون باشا، كانت أبعد خيمة عن حدود المدينة، هبط الليل، وأضرمت النيران هنا وهناك، جثم الليل على المعسكر فغلبه السكون، سكون مطبق، لكن سكون ثقيل الوطأة كما هي الأوقات الحبلى بالمجهول، والتي تسبق العاصفة، جلس بعد الضباط حول النيران، أمام إحدى خيامهم، اشتكى أحدهم لقائدهم الأعلى رتبة الذي كان يدخن التبغ أثناء جلوسه معهم قائلًا:

- إن أقدام أغلب الجنود متقرحة من طول المشي.

رد عليه في هدوء:

- سنداويها ببعض الأعشاب، لا بد أن يتحمل الجند ظروف المعارك القاسية.

تنهد وهو ينفث دخانه وقد شرد بصره في النجوم:

- سيعاني محاربونا جروحًا بالغة، لكنهم لا يعرفون حتى الآن، نحن في حاجة إلى جند كالجنود الاستشهاديين.

استغرب الضباط من الكلمة، وكانوا أول مرة يسمعون بها ورد بعضهم متعجبين:

- جنود استشهاديون !!

رد القائد وهو ما يزال على شرود نظره في السماء والنجوم:

- فيلق الاستشهاديين فيلق كان موجودًا في الجيش العثماني، كان قانونه عدم التقهقر، أو التراجع من أي هجوم إلا والظفر حليفهم مهما كانت الظروف ومهما كان الخصم، فإن عادوا مهزومين قتلهم رفاقهم.

في الصباح، لم يكن الفجر قد بزغ عندما أطلقت إشارة الهجوم، اتخذ الجنود مواقعهم استعدادًا للهجوم، الفرسان يندفعون على صهوات جيادهم محاولين النيل من الخصم، بعد قصف، وإطلاق رصاص، رمال هائجة، واضطراب في الصفوف، وكثير من الدماء أُريقت على رمال الصحراء، بعد كر وفر، واصطدام مع التحام، ومحاولات مستمرة لا تنقطع لاقتحام تُرَبَة، ودك حصونها واقتحام أسوارها، بعد أيام طويلة من المعارك والمناوشات، أُنهك الجنود وساءت حالتهم، نفذت مؤنهم، فرفع طوسون باشا الحصار مضطرًا، وتقهقر بجنوده وعاد للطائف، بعد أن قام بإحراق خيامه حتى لا تقع في أيدي الوهابيين كما حدث في المرة الأولى.

في المعسكر بعد العودة جلس محمود أمام خيمته واجمًا، امتلأت الطرقات بين الخيام بأنفاس الجنود المتعبين الثقيلة، وبصوت موحش لأقدام تمشي بتثاقل وبطء وضعف، وبالآهات التي لا عدَّ لها ولا حصر، تناهت إلى مسامعه هتافات المصابين تعلو بين الحين والآخر: «ماااء.. ماااء..»، ومنهم من كان يصرخ أحيانًا مناديًا: «أمي.. يا أمي».

وقف عبدالله على جانب الخيمة لمشاهدة ظلال الجنود تتحرك ببطء وسط الظلام، سمع محمود يسأله، ونظره شارد للسماء:

- كم بلغت خسائرنا؟

تنهد في حسرة وألم وهو يقول:

- واضح أن أكثر من نصف عددنا قد مات، ذبحوا أحياء بسكينٍ بارد، لكن الشيء الأكيد أننا هُزمنا هزيمه ساحقة.

ارتفع صوت من الخيمة المجاورة مُخاطبًا إياهم:

- نحمد الله على أننا ما زلنا على قيد الحياة.

فرد عليه عبدالله في ضيق مما هم فيه، وقد امتلأ حلقه بالمرارة وصدره بالحزن:

- لا تأمل في هذا كثيرًا فربما حان أجلك غدًا.

ساد الصمت بعد الكلمات الأخيرة، وكل واحد منهم يخشى أن تكون نهايته في الغد، ولم ينطق أحد بكلمة بعدها.

نهض محمد علي باشا من رقدته، وشرع يزرع الخيمة جيئة وذهابًا، على السجادة المفروشة داخلها، جلس على منضدة عريضة بعد أن أخذ مجموعة من الأوراق من حقيبة جلدية جواره، كانت عبارة عن بضعة خرائط، منها خارطة لجزيرة العرب، وللمواقع التي تدور فيها المعارك، الطعام جواره على الصينية لم يلمسه، أطال النظر فيها وهو يراجع الأماكن المهمة التي يريد أن يقتنصها من بين براثن الوهابيين، والموانئ التي يحتاج إلى السيطرة عليها، أرسل أحد الجنود لمناداة طوسون باشا، وبعضٍ من قواد الجيش، اجتمع بهم من جديد، طال السهر بينهم، وهم يناقشون ويُقَّيمون المواقع، يحددون مدى رغبتهم واحتياجهم لكل موقع أو مكان على الخارطة، بعد أيام قرر الباشا إرسال حملة أخرى إلى ميناء قنفذة، أُعدت الحملة وتم تجهيزها، وتحركت بعد يومين آخرين، وصلوا إلى الميناء، وبعد معركة صال وجال فيها الجند، وأصيب فيها البعض

بجراح، وبعد أن غرقوا في دمائهم من جديد، احتلوا الميناء، وسيطروا عليه، وبعد أن بلغوا النصر تركوا فيها حامية من ألف ومائتي جندي.

نُصبت الخيام، وجهز القومندان الذي عُين رئيسًا للحامية خيمته بالوسائد، والآرائك، أعدها لتكون مكان راحة له في هذا الجو الحار الخانق بعد تلك المعارك التي خسر فيها بعضًا من جنوده، وبعضًا من رفاقه وأصدقائه، وأصيب فيها بجراح وسحجات، وتعب، وإرهاق، تأرق في الليل، وقلق في الصباح، ظن أن هذا الميناء سيكون ملجأ له، لينال قسطًا من الهدوء والراحة ولو لفترة.

بعد ثلاثه أيام، بينما هو جالس في الصباح يرتشف فنجان قهوته بعد أن تناول إفطاره، اقتحم عليه أحد الجند خلوته، ففزع وسقطت بعض من القهوة على صدره، ولطخت ملابسه، فسبه وهو يصرخ فيه:

- كيف تجرؤ على اقتحام الخيمة هكذا دون إذن أيها الأحمق.

ارتبك الجندي بأكثر مما هو، ونطق متلعثمًا والتوتر يعصف به:

- اعذرني يا مولاي، ولكن هناك شيئًا ما حدث.

رد عليه في غضب وهو يمسح ملابسه وينفض عنها قطرات القهوة:

- ما الذي حدث في الصباح لتقتحم خيمتي هكذا؟ هل هجم علينا الوهابيون؟

رد متلعثمًا:

- كلا أيها القومندان، لكنه البئر التي تستقي منه البلدة..

اعتدل واقفًا:

- ما به؟ هل جف فجأة؟!!

- لا يا سيدي، لكن العربان أخذوا المكان الذي يقع فيه البئر وسيطروا عليه، وقطعوا عنا المياه.

اتسعت عينا القومندان وهو يقول:

- سيطروا عليه؟!! ألم يكن عليه حراسة؟

- كلا يا سيدي، لم يأمرنا أحد بذك.

- اللعنه عليكم، وعلى هذه الحملة الشؤم الملعونة.

تحرك إلى جانب الخيمة كي يرتدي ملابس القتال، أمسك بندقيته يُعِدُّها، ألقى أوامره للجندي وهو يضع سيفه في جرابه حول خصره:

- أبلغ الجنود أن يستعدوا، يجب أن نحرر بئر الماء اليوم، ليس لنا مصدر مياه غيرها.

ثم تابع محدثًا نفسه بعد أن انصرف الجندي:

- لقد انتهت لحظات الراحة.

انصرف الجندي ينشر الأوامر بين المقاتلين ليستعدوا من جديد لمعركة جديدة، وفي خلال دقائق استعدت قوات الحامية لمعركة تحرير البئر، اتخذوا مواقعهم، ورتبوا صفوفهم، وهجموا على مكان البئر، لكن الأمر لم يكن سهلًا، فقد وجدوا مقاومةً وبأسًا من العربان لم يتوقعوها، استمر القتال لبضعة أيام حتى نفذ تقريبًا كل ما كان لديهم من ماء، ونجح العرب في أن يردوهم على أعقابهم خاسرين.

سقط القومندان على فرشته في الخيمة منهكًا بعد معركة طاحنة فشل فيها من جديد في تحرير البئر، نظر لسقف خيمته لا يعرف ماذا يفعل، تشققت شفتاه، وتعفرت لحيته وشعر رأسه برمال الصحراء وترابها، لقد قُتل عدد كبير من الجند من أجل البئر، وأصيب الكثير من الباقيين بجروح ما بين هين ومميت، لم يعد هناك سبيل لمعركةٍ جديدة، لا العدد يكفي، ولا المؤن أو ما بقي لهم من بضع جرعات من المياه تكفي لتبل ريقهم، اعتدل على فرشته جالسًا، ثم نادى على أحد الجنود، فدخل مهرولًا، قال له القومندان في ضيق وهو يشعر بغصة في حلقه:

- أخبر الجنود أن يستعدوا للرحيل، وأن يساعدوا الجرحى على التحرك، سنرحل من هنا ونعود لجدة.

- ألن نحاول من جديد أيها القومندان؟

هز رأسه نافيًا:

- لا، لم يعد هناك مجالٌ لمحاولة جديدة، سنرحل قبل أن يقضوا على آخر رجل فينا، أو نموت عطشًا في هذه الأرض القاحلة.

نظر القومندان إلى الشمس الغاربة في طريق عودته، وهو يعلم أن العديد من الرجال الذين أصيبوا بجروح اليوم سيحملون صورة تلك السماء الشاحبة معهم إلى العالم الآخر.

رغم كل هذه الهزائم والخسائر الكبيرة المتتالية، في الأرواح، والأموال، والمؤن، والذخائر، إلا أن عزيمة محمد علي باشا لم تنثني أمام كل هذه الصعاب، كان صلبًا صلدًا، لا تهزه شدائد الأمور مهما عظمت، نادى كاتبه وأعد مكتوبًا وأرسله لكتخدا بك لاظ أوغلي في المحروسة ليوافيه بالمدد والمؤن، وفي

المحروسة تلقى كتخدا بك الأمر المكتوب وشرع في التنفيذ على الفور، استولى بناءًا على أمر الوالي على أملاك الملتزمين، استولى عليها بالقوة والإجبار، لكنه حشد الناس للحرب بطريقة التطوع هذه المرة، بدأ كتخدا في استكتاب أخلاط من مغاربة، وصعايدة، وفلاحين، وكان ضيق الحال ألمَّ بكثير من الناس في معيشتهم، فذهبوا متطوعين يعرضون أنفسهم، رُتبت أمور الحملة الجديدة، وتحركت لتكون مددًا وعونًا للباشا الوالي في أرض جزيرة العرب، سبعة آلاف من الجنود ومعهم سبعة آلاف كيس من الأموال.

وصل المدد إلى جدة، واستعد محمد علي باشا للزحف والحرب من جديد، أُعدت الخطط ورُتبت الصفوف والقيادات، وُزعت المهام، واستعد الكل للقتال، وللمرة الثالثة يساند ملك الموت محمد علي باشا، فنفذ أمر الله في تلك الأيام، وقبض روح الأمير سعود بن عبدالعزيز، الذي خلفه في الإمارة نجله عبدالله، وكان يبدو عليه أنه ضعيف القلب شديد التردد، لا يميل للحرب وغير بارع فيها.

أرسل محمد علي باشا عابدين بك على رأس حملة لاحتلال وادي الزهران، في الطريق كانت الشمس حارقة تُعمي الأبصار، مسددة نحو الجنود، ولا أمل في سحابة في السماء تخفف حدة الشمس ولو ثوانٍ، السماء منذ طلوع الفجر خاوية من أي سحاب، لكن من رحمة ربهم بهم أنهم لم يلقوا هناك مقاومة تُذكر، لكن الوهابيون عادوا للهجوم عليهم من جديد في قوة ومفاجأة لم يتوقعوها، وأجبروهم على الخروج والتراجع حتى الطائف، ثم جمعوا قواتًا وعتادًا أكثر، وأقبلوا بجموع حاشدة على القوات المصرية، وضربوا الحصار على الطائف؛ حيث كان

طوسون باشا موجودًا فيها، بلغت الأنباء محمد علي باشا، فهب من جلسته واقفًا وتملكه الخوف والقلق على مصير ولده، كان يخشى عليه مما هو فيه الآن وما يعانيه وما يمكن أن يعانيه أكثر تحت هذا الحصار، دارت الأمور في عقله في سرعة، قرر أن هذا الأمر لن يفلح بالصدام المباشر بين الجيشين، وأنه لا بد من الخداع، تحرك مع عشرين رجلًا نحو الطائف، هناك وقف على جبل عالٍ، يشاهد من موقعه الحصار الذي ضُرب على الطائف، أمر رجاله فجاءوه برجل من الوهابيين، عرض عليه أن يطلق سراحه على أن يحمل رسالة إلى ولده طوسون باشا مضمونها:

«إني قادم إليك، فاحضر والحق بنا فوق الجبل».

ذهب الرجل بالرسالة حال وصوله إلى أمير الوهابيين الذي يقود الحصار، فوقع في قلبه الرعب، ونادى على قواده وحدثهم قائلًا:

- إن محمد علي باشا والد طوسون أرسل يخبره أنه في الطريق على رأس جيش جرار، إن وصل هذا الجيش ونحن هنا، سنقع نحن بين المطرقة والسندان، وستكون نهايتنا، سنُذبح كالأغنام التي وقعت في المنتصف بين ذابحيها.

نطق أحدهم:

- إن قواتنا ورجالنا لقادرون على الحرب والمقاومة، وسحق أي جيش يأتي به محمد علي.

رد آخر غاضبًا:

- وماذا سيكون حالنا إذا كانوا يفوقوننا عددًا، حينها سنحارب على الطرفين، وسيتشتت جيشنا في حرب على جبهتين، ونذبح كالخراف.

سأل رجلًا منهم يبدو عليه السن وهو يعبث بلحيته البيضاء:

- أتقترح علينا يا أمير أن ننسحب أم ماذا؟

رد الأمير:

- بل أسألكم المشورة؟

رد عليه دون أن يترك لحيته:

- وأنا أؤيد الانسحاب، فلا قِبل لنا بتشتيت رجالنا على جبهات مختلفة، لن نضحي بهم ونلقي بهم إلى التهلكة.

رفع آخر يده وقال:

- وأنا مع هذا الرأي.

ارتفعت الأصوات ما بين مؤيد ومعارض، حتى قرر الأمير العمل بالرأي الأحوط وقرر الانسحاب، فانسحبوا في سرعة، ورفعوا الحصار عن الطائف.

بقي محمد علي باشا وطوسون في جدة، وعمل على تدريب السبعة آلاف جندي الذين أرسلهم كتخدا، في جو حار مليء بالعواصف الرملية والقيظ الشديد، كانت الريح الحارة لا تنقطع وتؤذي حنجرة الجنود، ومن حين لحين تقوم سحابة غبار كثيفة تلقي بشَرِّها على الخيام، تطيح ببعضها وتعصف بهم.

بعد أن انتهت مراسم الحج في عامهم، تجددت الحرب، أرسل محمد علي باشا قواته إلى الطائف استعدادًا للزحف والهجوم من جديد، جمع الوهابيون في مقابلتهم عشرين ألف تحت قيادة فيصل بن سعود بين بسل وتربة، التقى بهم محمد علي باشا بنفسه على رأس أربعة آلاف من الجنود في بسل الواقعة بين

الطائف وتربة، بدأت المعركة من جديد ودارت عجلة الحرب بين الفريقين والتهبت نيران المعركة من الفجر حتى المساء.

في تمام الظهيرة، وقد بلغت الحرارة أوجها، تزاحمت أعداد الجنود المهاجمين المخضبين بالدماء، والمتفصدين عرقًا، مندفعين للأمام، يدورون، ويلهثون، يصرخون مع دوي المدافع الهادرة، حركة أقدامهم تثير الرمال من حولهم، تصاعد غبار المعركة حتى غطى رؤوسهم، أغشى الرؤية أمام أعينهم وكاد يعمي أبصارهم، محمود بات لديه خبرة لا بأس بها في القتال، أصبح خبيرًا، كان يركض مثيرًا سحابة غبار تحت قدميه الحافيتين بعد أن خلع نعليه ليكون أكثر خفة، وأكثر سرعة، وجهه الداكن الذي قد لوحته الشمس يقطر عرقًا، صدره يعلو ويهبط، وهو يتنفس ويستنشق الهواء اللافح بشراهة، يحمل سلاحه ويتحرك في خفة غزال، ويقظة فهد، جواره رفيق سلاحه عبدالله الذي لم يختلف عنه في ازدياد مهارته وقوته في القتال، فأصبح جنديًّا مقاتلًا لا يُشقُّ له غبار كما لو كان أحد الجنود النظاميين طيلة حياته.

هُزم الوهابيون وقتل منهم ما يقرب من ستمائة فرد وتشتت الباقون بعدما اجتاح الفرسان مشاتهم كالطوفان الهائج وأوقعوا بهم الخسائر الفادحة وأنزلوا بهم الهزيمة، لم يتوقف محمد علي باشا بعدما حصل على النصر، استمر في زحفه فاحتل تربة ورنية وبيشة، رغم المعاناة التي كان يلاقيها مع جيشه من قلة الطعام، وعندما سأله أحد قواده كيف سيتدبرون أمر الطعام بعد النقص الشديد فيه، رد عليه بعد تفكير:

- ليس أمامنا إلا التمر والعيش عليه في الأيام القادمة، وسيسهل علينا الحصول عليه في هذه الأراضي، وسأشاركهم الطعام

بنفسي، حتى يروا أن قائدهم يتناول من نفس طعامهم.

وبالفعل كانت مشاركة الوالي لجنوده الطعام ناجحة في رفع روحهم المعنوية، وشجعتهم على احتمال تناوله طيلة هذه الفترة.

بعدها توجه للشاطئ من جديد، واحتل قنفذة، وأبقى فيها حامية، وذهب منها إلى جدة، ومنها إلى مكة، بينما زحف طوسون من المدينة إلى شمال نجد، بعد أن شجعته الانتصارات المتوالية، فبلغ في زحفه حتى الرس التي تبعد عن المدينة نحو أربعمائة وخمسة وثلاثين كم، تحركت الجنود للهجوم، ونطق طوسون باشا صارخًا بأعلى صوته كما لو أن قائد الوهابيين يسمعه:

- اليوم سترون من أي مادة خُلق الجندي المصري! سأقضي عليكم اليوم، إذا لم نستطع الاستيلاء على المدينة بالوثوب عليها كالطير الجارح، فسنستولي عليها من تحت الأرض كالثعابين.

واصل طريقه حتى البيبية التي تقع على طريق الدرعية عاصمة الوهابيين، لكن بعد الوصول تشكك طوسون باشا في إمكانية حدوث النصر بعد أن نقصت مؤنه وقل عدد جنوده، ولأن القوات أمامه تفوقه عددًا وعتادًا، فبدت المعركة أمامه كامرأة عصية، يحاول أن يطوقها بين ذراعيه، لكنها ترفض الإذعان له، اجتمع مع قواده وقال لهم:

- لا أعتقد أننا بأي حال من الأحوال يمكننا أن ندبر هجومًا على الدرعية، فهم يفوقوننا عددًا، وعدة، وجنودنا طالهم التعب والإرهاق.

هز مَن في الاجتماع رأسهم مؤيدين، ونطق أحد القواد:

- المؤن التي لدينا أيضًا قليلة، وربما بعد أيام من المعركة لن يجد الجنود أي طعام.

بدا على صوت طوسون باشا الضيق والحزن وهو يقول:

- لا مفر أمامنا من التراجع والانسحاب، فلن نلقي بأنفسنا إلى الموت والهزيمة.

بعد الاجتماع والتشاور مع قواده، أصدر قراره بالانسحاب والعودة للمدينة، وقبل أن يشرع في الانسحاب، وصله رسول من الأمير عبدالله بن سعود، أمر بدخوله على الفور، دخل الرسول وألقى عليهم السلام والتحية، بعد أن جردوه من سيفه وسلاحه في الخارج قبل دخول خيمة الباشا الصغير وقال:

- الأمير عبدالله بن سعود يعرض على الباشا الصلح والطاعة، وحقن دماء جنودنا.

استغرب طوسون باشا من الرسالة، حتى ظن للحظة أنها خُدعة، كتم اندهاشته بداخله، وصمت لحظات مفكرًا، ثم رد في هدوء وثبات:

- قل لأميرك إن رسالته قد وصلتنا، لكننا لن نستطيع الرد عليه، والبت في أمر الصلح، إلا بعد عرض الأمر على الباشا الوالي.

انحنى الرسول، وهم بالتراجع والانصراف، إلا أن طوسون باشا عاجله قائلًا:

- أخبر أميرك أننا سنمنحه هدنة عشرين يومًا حتى يصلنا الرد من الباشا الوالي.

في الخيام استلقى الجند على فرشتهم، متكئين على مرافقهم، بعد أن علموا بأمر الهدنة، واطمأنوا أن لا معركة في الأيام القادمة، الجو كان خانقًا داخل الخيمة، والحرارة لا تحتمل، فقال أحد الجنود:

- لا بد أن الجو في الخارج أكثر لُطفًا وبرودة من داخل الخيمة.

فرد آخر:

- الحرارة خانقة، ألا يحضرون لنا بعض الماء نغتسل أو حتى نبل وجوهنا قليلًا؟!

رد عليهم محمود:

- ادعو الله أن يرد الوالي ويبت في أمر الصلح في سرعة، حتى ننتهي من هذا الأمر ونعود لديارنا، قبل أن ينتهي ما لدينا من مخزون ولا نجد ماءً للشرب من بعده، لقد مات منا الكثير، وأريقت منا الدماء أنهارًا.

نطق عبدالله وهو شارد النظر:

- الناس ستتذكر المعركة وتنسى الدماء التي أريقت فيها، تختلط دماء القتلى كلهم، وتصبح دمًا واحدًا، حتى ذكريات المعركة ستنتهي بموتنا، ولن يتذكر الناس أو التاريخ إلا النصر أو الهزيمة، بل لن يتذكرونا نحن، ونحن من أتى بالنصر أو نحن من تسبب في الهزيمة.

بعد يومين وصلت رسالة من محمد علي باشا، وجاء طوسون باشا الرد مكتوبًا من والده يخبره فيه أنه اضطر للعودة للمحروسة لشئون مهمة، وأنه ترك له عددًا عظيمًا من الجند

تحت إمرة الخازندار، وأمره بالزحف إلى الدرعية والقضاء عليهم نهائيًا.

على الفور أرسل طوسون يستدعي الخازندار إلى مدينة الرس قبل أن تنقضي فترة الهدنة، وبعد التشاور، استقروا على قبول الصلح، أرسلوا إلى الأمير عبدالله بن سعود شروطهم بأن تحتل الجيوش المصرية الدرعية، وأن يرد عبدالله كل ما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية من النفائس والجواهر، وأن يأتمر بأمر طوسون باشا، وأن يؤمن سبيل الحج ويخضع لسلطة حاكم المدينة، على ألا يتم الصلح إلا بعد عرضه على الباشا الوالي في المحروسة وإقراره.

أرسل عبدالله بن سعود وفدًا إلى المحروسة، ليعرض الصلح على الباشا الوالي، دخل الوفد على الوالي فقابلهم كالأسد المنتصر الجالس في عرينه، وبعد عرضهم الصلح، رفضه في شدة، حتى أنه هب واقفًا وعلا صوته وهو يقول في حدة:

- الوهابيون يجب أن يعاملوا معاملة الخوارج والعصاة.

أصر على هذا واحتد، ربما لأنه كان يريد أن يبسط قبضته على الجزيرة العربية، دون أن يقاسمه فيها شخص حتى ولو ظاهريًا فيكون حائلًا دون استقرار حكمه في الجزيرة العربية، كما صمم على أن يرد الوهابيون ما أخذوه كما اتُفق من قبل، وأن يسلم أميرهم الدرعية إلى حاكم المدينة، ثم يحضر بنفسه ليرسله إلى الأستانة ليكون رهن أمر السلطان والباب العالي.

وصلت هذه الطلبات والشروط المجحفة إلى الأمير عبدالله، طوى الورقة المكتوب فيها الشروط وقال متعجبًا:

أيريدني أن أسلم عنقي لسيف الباب العالي؟! وأي نفائس يريدها؟! لم يبق لدي شيء منها حتى أردها.

أشار إلى كاتبه، وأملاه برد يرفض فيه تلك الشروط، ويرفض الذهاب إلى الأستانة، ويعرض أن يتم تعيين نائب عن محمد علي باشا في الدرعية، وأن يُحدد الخراج بمبلغ معلوم يتعهد هو بأدائه.

ألقى محمد علي باشا بالرسالة بعد أن وصلته، على طول ذراعه، وأرسل على الفور يتوعده بالحرب من جديد.

فشلت مفاوضات الصلح، وتأهب الطرفان لمعركة طاحنة جديدة.

عاد محمود من الجزيرة العربية إلى المحروسة، بعد ما أصيب في آخر معاركه، ودع عبدالله الذي أخبره أنه بات يفضل الجندية على الفلاحة في الأراضي، وأنه سيبقى في الجزيرة ليخوض المعارك القادمة تحت راية إبراهيم باشا، احتضنه مودعًا وهو يقول:

- لا تأتي للحرب مرة أخرى هربًا من حياتك، مهما قد تبدو الحياة سيئة، تأكد أنها هنا في الحرب وسط القتلى والدماء أسوا مما تظن.

عاد محمود مع طوسون باشا، الذي قرر العودة بعد وصوله أنباء عن تمرد الجنود الأرناؤوط في القاهرة، وما وقع منهم من سلب ونهب، ساروا من المدينة إلى ينبع، ومنها عبر البحر إلى السويس، وصل القاهرة في الخامس من ذي الحجة، في الثامن من نوفمبر ١٨١٥، وكان في استقبالهم احتفال عظيم أُعد لهم، عُلقت الزينات في الشارع الأعظم، وزين الناس حوانيتهم، وأعدوا

موكبًا حافلًا، وحين صعد إلى القلعة ضربت المدافع في كثرة، وشنكًا وحراقات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد انتهاء الاحتفالات بعودة طوسون باشا وحملته من جزيرة العرب، تابع محمد علي أشغاله الداخلية التي كان يقوم بها، فقد بدأ من يوم اعتلاء عرش الولاية في تحقيق أحلامه، وكان مما يؤرقه في البداية ويثير القلاقل في البلاد، عدم وجود جيش نظامي في البلاد، يتبع أوامر قيادته، ويعمل لصالحها ولا يتمرد لتأخر مرتباته أو لأي سبب كان، ووجود العربان أو البدو المصريين، أبدى نيته في تكوين الجيش على الفور، لكن القلاقل والاضطرابات التي كانت في البلاد أول توليه الحكم لم تساعده على ذلك، بعدها انشغل بحروبه مع الوهابيين وتثبيت قدمه في سدة الحكم، فعمد للتخلص من العربان أولًا.

لم يألف أغلبية العربان حياة الحضر حتى أوائل القرن التاسع عشر مع بداية حكم محمد علي، كان تعدادهم في مصر بعد إحصاء الحمله الفرنساوية لهم ستون قبيلة وصل عدد فرسانها حوالي عشرين ألف، ولم يزيدوا كثيرًا في السنوات التي تلتها، كانوا يتنقلون في الصحراء في حرب مستمرة مع الفلاحين، وانصرف كثيرٌ منهم إلى قطع الطريق والاعتداء على القرى الآمنة، وفرض إتاوات على الفلاحين، رأى محمد علي أنه من الحكمة أن يهادن زعماء القبائل ولا يدخل معهم في معارك تستنزف من قواه وقواته، فعقد الاتفاقات معهم، لكن القبائل لم تلتزم بها طويلًا ونقضت هذه الاتفاقات، فأدرك محمد علي أنه لا مناص من أخذهم بالقوة، فوجه نحو خيامهم كتائب الفرسان فاضطروا إلى الإذعان واتفق زعماؤهم على الطاعة للوالي وطلبوا الصلح، فوافق محمد علي أن يصالحهم على أن يقيم زعماؤهم في القاهرة، ليكونوا رهائن عنده يضمن بهم طاعتهم وولاء قبائلهم

وأغدق عليهم الرواتب وبذلك نجح في إخلاد القبائل الى الهدوء والسكينة، ومنح البدو المتشردين في أطراف البلاد أراضي شاسعة أعفاها من الضرائب ينتفعون بها ويستغلونها. بعدها اجتذب محمد علي رؤساء العشائر من العربان وعرض عليهم أن تدفع الحكومة لمن ينتظم منهم في سلك الجيش أجورهم على شرط أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته، فلبوا الدعوة واندمجوا في جيش مصر، واشتركوا معه في كل حروبه، حتى إن إبراهيم باشا اتخذ منهم حرسه الخاص بعد ذلك.

في نفس الوقت عمد محمد علي إلى إنشاء المدارس العليا بالأزهر، ولم يحاول مع بداية تطويره للتعليم في البلاد، أن يمد يد الإصلاح إلى داخل الأزهر فتركه كما كان على نظامه القديم، ربما لخشيته سخط العلماء إذا هو عارض نظام التعليم فيه أو أقدم على إصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمي الحديث فيقوموا ضده ويساندهم الناس عليه، وتكون فرصة للباب العالي ليتخلصوا منه، أو لعله لم تكن له الرغبة في ذلك؛ لذلك وجه محمد علي اهتمامه إلى المدارس النظامية، وجعل من طلابها مصدرًا أساسيًا للبعثات العلمية في الخارج، لكنه اختار من رجال الأزهر من طلبة المدارس العالية التي أنشأها من قبل كثيرًا من أعضاء البعثات العلمية التي أوفدها إلى أوروبا، كما اختار منهم بعض المتضلعين في اللغة العربية لتنقيح وتهذيب الكتب المترجمة للغة العربية في الطب والرياضيات وغيرها، وطائفة أخرى لتصحيح الكتب عند طبعها.

كان ذلك متزامنًا مع تضاؤل نفوذ مشايخ العلماء، وضعف هيبتهم، وانحلال زعامتهم لعامة الشعب، بعد تآمرهم مع الوالي ضد السيد عمر مكرم، وإقصائه من المحروسة، فصاروا مجرد

أتباع له، بعد أن كانوا موئل الشعب الأخير، يفزع إليهم عند وقوع الملمات، اختفى أثرهم على سياسة الدولة المصرية وإدارة شئونها ولم يعد لهم رأي فيها، ولم يبق لهم إلا قليل من الاحترام نتيجة انتسابهم للدين والأزهر، استمر وضعهم يتردى مع الوقت طول السنوات التالية، حتى إن إبراهيم باشا بعد انتصاراته في حروب الوهابية وعودته، استقبل العلماء الذين جاءوا لتهنئته على مضض، ولم يقابلهم بالاحترام اللائق، فلما ذهبوا للسلام وأقبلوا عليه، وهو جالس في ديوانه لم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام، فجلسوا في خجل وإحراج يهنئونه بعودته سالمًا ولم يجبهم هو بكلمة ولا بإشارة.

في أحد الأيام طلب أحد من العامة مقابلة محمد علي باشا وهو في قلعته، يتابع أمور الدولة، ويراجع مع محتسبه الأموال التي حصلها، فلم يمانع في مقابلته، دخل الرجل عليه وكان زيه بسيطًا لا يبدو عليه أنه من أغنياء المحروسة أو علية القوم، ولم يُسمع به من قبل، استغرب الوالي لما قدم الرجل له نفسه، باسم حسين شلبي عجوة، ضحك الوالي وجلج صوت ضحكته في أركان القاعة، فقد كان أول مرة يسمع باسم كهذا، لم يضطرب الرجل ولم يتراجع من ضحك الوالي على لقبه، لكنه تابع بعد أن سكت الوالي وأمره بالمتابعة وقال:

- جئت أعرض عليك يا جناب الوالي، ما تفتق عنه عقلي، فقد اخترعت آلة لضرب الأرز وتبييضه.

اتسعت عينا الوالي غير مصدق، أن أحد أبناء هذه البلد يمكنه أن يخترع شيئًا، لكن حسين عجوة حضر ومعه نموذج لما اخترع، وقدمها وشرحها لمحمد علي باشا الذي أعجب بما قدمه الرجل له وقال:

- إن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف.

أنعم الباشا الوالي على حسين عجوة بمكافأة، وأمره بتركيب واحدة في دمياط، وأخرى في رشيد، وأمر وزرائه وموظفيه بمساعدته، بعدها شرع على الفور في إنشاء مدرسة للهندسة، فأمر ببناء مدرسة بحوش السرايا بالقلعة، وجمع فيها ما يقرب من ثمانين شخصًا من أبناء المصريين الذين فيهم قابلية للتعليم، مع مجموعة من مماليكه، يتعلمون فيها مجانًا، وعين لهم حسن أفندي المعروف بالدرويش الموصلي معلمًا، بالمشاركة مع روح الدين أفندي وهو رجل رومي عثماني، واجتلب عددًا من المعلمين من أوروبا، وجهز الطلبة بمجموعة من آلات هندسية متنوعة، وسميت المدرسة بالمهندسخانة، يتجمعون الطلاب فيها للدراسة كل صباح حتى الظهيرة، ثم ينزلون من القلعة لبيوتهم، وفي بعض الأيام يخرجون معًا إلى الخلاء لتعلم مساحات الأراضي وقياساتها بالأقصاب.

ومن حسن تعامل محمد علي باشا معهم، أنه جعل لكل واحد منهم شهرية وكسوة في آخر السنة، وكان يمنح الفقراء منهم الكسوة مبكرًا حتى يكون مظهره لائق بين أقرانه، فلا يشعر أنه فقير أو أقل شأنًا وسط زملائه.

في تلك الفترة كلف محمد علي باشا ابنه طوسون باشا بعد عودته من حربه مع الوهابيين بتولي قيادة الفرق المكلفة بالمرابطة على فرع رشيد، وكان ذلك إثر تخطيط من الباشا الوالي بتوزيع الجنود في أنحاء البلاد بعيدًا عن المحروسة بعد التمرد والعصيان الذي افتعلوه من قبل، اتخذ طوسون باشا معسكره في برنبال بالقرب من رشيد، وتوفي هناك بعد فترة قصيرة من ذهابه، وهو بعدُ صغير، عقب إصابته بمرض غريب

قضى عليه في ساعات معدودة، نُقلت جثته على مركب نيلية ودفن في مقابر الإمام الشافعي، حزن أبوه حزنًا شديدًا على وفاته، وحزن معه الناس لوفاة ولده شابًّا ولما كان عليه من شجاعة وكرم بالمصريين.

بعد الوفاة بفترة بسيطة، استقبل محمد علي باشا بالإسكندرية الطلبة الذين أرسلهم من قبل لتعلم النُّظم الخاصة بزراعة أشجار العنب والتوت والليمون والتين التي استحضرها من الأستانة في فترة سابقة، تقدم إليه أحد الطلبه يدعى يوسف أفندي يحمل طبقًا من الفاكهة الجديدة وعرضها عليه، أعجب بطعمها وسأل الطالب ما اسمها في مصر فأجاب:

- نسميها طوسون باشا.

لم يتوقع الباشا هذا الرد، هاجت عليه أحزانه، وتأثر تأثرًا شديدًا من هذه المجاملة، صمت قليلًا يستجمع أنفاسه التي اختنقت في صدره، ثم قال:

- حسنًا سنسميها يوسف أفندي.

وأمر على الفور أن تخصص أراضي نبروة بالدقهلية ليوسف أفندي ليزرعها ويشرف عليها بنفسه.

بالرغم من تطوير الزراعة في البلاد وعودة الذين أرسلهم محمد علي باشا للبعثات من الخارج بعد أن درسوا أساليب جديدة للزراعة، إلا أن مع الضرائب التي يفرضها والاحتكار الذي تقوم به الدولة بات الفلاحون في حالة تعيسة، فزيادة الحاصلات الزراعية وإقامة العمران لم يتبعها تحسن حالة الفلاح بل ساءت لدرجة اضطرار الكثيرين منهم إلى الهجرة من قراهم، فخربت قرى عديدة بسبب ذلك، اضطرت محمد علي لإصدار أوامره

المشددة برجوع الذين هاجروا إلى قراهم، وتهديد من لم يرجع بأشد أنواع العقاب.

تكونت طبقة جديدة من العمال الفنيين بعد انتظامهم في المصانع الكبرى التي أنشأها محمد علي كالترسانة البحرية والحربية والفابريقات، وبالرغم من ازدياد حجم التجارة فإن الناتج كان يعود على الحكومة وعلى الوسطاء من الفرنج الذين كانوا يتبادلون مع الحكومة حركة التجارة الخارجية؛ لذلك اقترنت زيادة حاصلات مصر وتجارتها الخارجية بتضاؤل الثروات الشخصية، ولم ينتفع من هذه الزيادة في الحاصلات سوى الإسكندرية التي اتسعت تجارتها وصارت سوقًا لأقطان القطر المصري وحاصلاته، أما المحلات التجارية في القاهرة ودمياط ورشيد فقد هبط عددها عما كانت عليه من قبل.

كان محمد علي باشا قد أمر بحفر ترعة المحمودية بعد توليه الحكم في البلاد، لتبدأ من النيل قرب قرية العطف لتصل مياه النيل للإسكندرية عبر البحيرة، وليصبح هناك ممرًا مائيًا للمراكب التجارية بين الإسكندرية ونهر النيل، ولتزيد رقعة الأراضي الزراعية في البلاد، كان قد عهد بتصميم حفر ترعة المحمودية الى المسيو كوست وهو مهندس فرنسي، لكن في أبريل ١٨١٩، توقف العمل بسبب انتشار الطاعون بين العمال.

في عام ١٨٢٠ استقرت أمور الوالي كلها في حكم مصر، وتذكر المسيو ليون الذي كان يجالسه أثناء إقامته عند شوربجي قوله، يتحدث معه ويتعلم منه، فأرسل من يبحث عنه لمعرفة ما آل إليه أمره، ونجح من أرسله في تتبع أخبار مسيو ليون وعلم أنه عاد إلى مرسيليا، مسقط رأسه، فكتب إليه رسالة ألحَّ عليه فيها بالمجيء لزيارته على ضفاف النيل، فأجاب المسيو ليون بقبول

الدعوة، لكن هذه المرة لم يتوافق معه ملك الموت، فمر بمسيو ليون في نفس اليوم الذي كان عينه لسفره، بلغ محمد علي الخبر المؤلم وبعث إلى أخت المتوفَّى بكتاب تعزية بليغ، وأرسل معها هدية ثمينة فاخرة إظهارًا لاعترافه بجميل أخيها عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٥-

عاد محمود إلى بيته، استقبلته جميلة أمه مع رقُية زوجة أبيه، واستقبله شارعه بالاحتفال، والأفراح، لامته أمه على طول فراقه، فوعدها ألا يفارقها مرة أخرى وهو يُقبِّل كفيها، أعاد فتح ورشة والده، اهتم بها وأعاد نشاطها إلى سيرتها الأولى، كأنه يحاول تعويض السنوات التي ظلت فيها الورشة مغلقة، عاد منشرح الصدر لمستقره الأول، روحه المتقلبة النافرة هدأت، وشعر براحة التائه الذي عاد إلى داره، ولم تكن أمه وزوجة أبيه وحدهما من كانا في انتظاره، ليلى جارتهم الأرملة كانت على شوق له، انتظرته طيلة فترة غيابه، مستأنسة بذكرى الليالي التي قضتها معه، وانتظرته في مشربية بيتها كل ليلة بعد عودته، تحاول أن تناديه دون أن تلفت انتباه أحد، وفي ليلة وهو عائد من ورشته، بعد أن غابت الشمس في مضجعها، كانت ليلى في انتظاره وراء باب دارها المُوَارَب، انتهزت فرصة مروره أمام بابها، وجذبته من ذراعه للداخل وأغلقت الباب في سرعة قبل أن يلمحها أحد، ارتمت في صدره تحتضنه، وتدفن شوقها إليه، كتائهة في صحراء عثرت على ملاذها بعد عذاب، دفنت رأسها بين ضلوعه تحتمي بدقات قلبه، ورغم أنه فوجئ بما حدث، إلا أن هذا لم يمنعه بعد تردد دام للحظات، أن يلَفَّ يده حول جسدها، ويضمها في رفق وشوق، يمرر يده على شعرها، ويربت في حنية على كتفها، وهي تهتز بين ذراعيه تبكي وتنتحب، تشعر بقلبها ينتفض بين جنباتها، جذبها في رفق وجلسا على أريكة قريبة، وهي ما زالت تحتضنه، كطفل يخشى أن يفقد أمه وسط الزحام، نطقت بصوت يغلبه الشوق والنحيب، وأنفاسها تتسارع

في عنف متقطِّع مصحوب بالبكاء، وعضلات صدرها تختلج في قوة:

- اشتقت إليك كثيرًا، طيلة هذه السنوات وأنا في انتظارك.

نطق في رفق ورأسها ما زال على صدره:

- وأنا أيضًا.

انتبه عقله لحظة، تلفت فيها حوله وسأل في تخوف:

- أين حماتك؟ أليست هنا؟

ردت وقد بدأ صوتها يهدأ قليلًا:

- لقد ماتت منذ بضعة أشهر قبل وصولك، ومن يومها وأنا أعيش وحدي.

رفعت رأسها تنظر في عينيه، وهي تتحسس ذقنه بأصابعها:

- رفضت أن أعود إلى دار أهلي، فضلتُ أن أكون هنا، في انتظارك.

التقمت شفتيه بين شفتيها، امتصتهما كنحلة تمتص رحيقها، قبلته في وجنتيه ورقبته، جذبت رأسه تدفنه في صدرها، لم يقاوم، كان في شوق لحضن امرأة تشعره بالحياة من جديد، فتحت أزرار قميصها، وجذبت رأسه إليها، أحاطته بذراعيها، وهي تمسك رأسه من الخلف تداعب شعر رأسه وتجذبه أكثر ناحية نهدهيا المستديرين كالتفاحة الطازجة، مرر شفتيه بين نهديها وهو يعتصر خصرها بذراعيه، حتى بدا منها تأوهات خفيفة، أنشبت أظافرها في ظهره، بعد أن أدخلت كفيها من تحت قميصه، ثم نزعته عنه في خفة امرأة محنكة، نهضت وخلعت عن نفسها ملابسها في سرعة، تعرت أمامه في لحظات،

جسدها ما يزال مشدودًا، كفتاة في العشرين، حلمتاها مرتفعتان كزبيبتين شهيتين، وثنيات جسمها تدعو الصائم للإفطار، قوامها الممشوق وجسمها الملفوف خلبا لبَّه من جديد، سحبته من يده ودخلت به إلى غرفتها، وعينيه لا تفارق مؤخرتها البيضاء التي تتحرك أمامه في خفة ودلال، تتراقص يمينًا ويسارًا، يكادا يقتلان من يبصرهما، جذبها إليه في قوة، قبلها في عنف ويده تعتصر مؤخرتها الممتلئة، حملها بين ذراعيه في قوة، وعيناه لا تفارق عيناها، أراحها على السرير، وأحاطت هي رأسَّه بذراعيها وجذبته إليها تقبِّل شفتيه من جديد وهي تحتضنه في قوة تحاول أن تدفنه بين ضلوعها وفي قلبها، قبَّلها بشغف، تركته يفعل بها ما يريد، داعب حلمتيها، مرر فاهه على رقبتها، وصدرها، وبطنها، وفخذيها الطريتين، أفرغ تعب وتوتر السنوات التي عاشها في قيظ صحراء لعينة، وحرب لا هوادة فيها، على جسدها النابض بالحياة والشوق والحب، تقلبت بين ذراعيه في مهارة امرأة خبيرة، كسمكة في شبكة صياد، طالت لحظات العشق بينهما حتى ارتوت وانطفأت، هدأت العواصف التي كانت تختلج جنباتهما، أراح محمود رأسه للخلف على السرير يلتقط أنفاسه التي تتسارع في قوة، ووضعت ليلى رأسها على صدره تقبله في حب وحنان، تداعب شعيرات صدره الخفيف بأصابعها الناعمة المكتنزة، بعد أن هدأت النيران التي كانت تستعر في جسدها، حينها استراحت مستلقية بجانبه، قبلته على خده وهي تهمس بشفتيها الرطبتين بقبلاته: «أحبك» وكأنَّهما لم يفترقا لسنوات.

لم تمض دقائق من الهُدنة حتى صعدت بشفاهها من جديد تقبل شفتيه في قوة، وكأول ليلة بينهما من سنوات، يوم أن

نزعت عنها رداء حدادها، اعتلته، وأدارت هي المعركة هذه المرة.

تكررت اللقاءات بينهما، كانت دائمًا تنتظره جوار بابها، يختلسان أحيانًا لحظات في جحيم من القبل، وأحيانًا يلتحفان ببعضهما البعض، جسدان عاريان لا يفصلهما عن بعضهما شيء، عروق ملتصقة ببعضها، والجلد يحتك بالجلد يكاد يومض شررًا، شفتاها المرتجفة تلتصق بشفتيه، يغيبان بعقلهما عن الوجود، لا يشعران بما يدور حولهما، الحرارة المنبعثة من جسديهما كافية لتُشعل المكان من حولهما، نسي كل شيء وهو بين ذراعيها، نسي أيام القتل والحرب في جزيرة العرب، لم يفكر في شيء وهو غارق بين أحضانها، تناسى كل شيء، كانت أحيانًا أصوات المدافع وصرخات الجنود المتألمة تعلو وتتصاعد في عقله، ممتزجة بأصوات تأوهاتها وقبلاتهما تكسر صمت الأشياء المحيطة بهما.

حتى أتى يوم أخبرته فيه أنها تشكو من مغصٍ شديد، ينتابها بين الحين والحين، وأن الأعشاب التي أحضرتها من العطار لم تنفع معها، أو تهدأ من وجعها، اتفق معها أن يذهب بها إلى الطبيب الفرنسي الذي يعيش قريبًا من المارستان - أو المورستان كما يلفظها العامة - في اليوم التالي، بعد أن ترتدي الحبرة واليشمك، حتى لا يعرفها أحد لو رآها معه، تخوفت في البداية، لكنه أخبرها أن الطبيب لا يعمل بالمارستان ولكنه يسكن جواره فقط، وهو معروف في المحروسة، استقر في البلاد ولم يغادرها مع رحيل الفرنساويين، وفي الميعاد الذي اتفقا عليه، كان في انتظارها جوار مسجد البرقوقية بمئذنته العالية وقبتة الجميلة المزخرفة، سارت خلفه حتى ضريح ومسجد السلطان قلاوون، الضريح والمسجد يكونان الجزء الأمامي، والضريح إلى يمين المسجد،

وبينهما ممر هو المدخل العام الذي يقود إلى المارستان، أمام الممر من الناحية الأخرى كان الطبيب يسكن ويستقبل مرضاه، تحرجت ليلى أن تكشف عن جسدها أمام الفرنسي، إلا أن محمود طمأنها لوجوده، ووجود زوجة الطبيب التي تساعده وتعمل ممرضة معه، وذكرها بالألم الذي تعانيه، وأن ما من سبيل آخر لعلاجه، كشف عليها الفرنسي في صعوبة بمساعدة زوجته، أعطاها قليلًا من الدواء وهو يخبرهم أنه سيُسكن الألم قليلًا، وقال لمحمود بعربيته الركيكة، إن تكرر الألم وزاد، فمن الممكن أن تحتاج إلى عملية، فهو يشتبه أن تكون مصابه بالتهاب في المصران الأعور، ربما يكون بسيطًا فيزول مع الدواء، أو يستمر فتحتاج إلى إجراء عملية.

ليلتها سهر قليلًا معها، نامت جواره كطفلة صغيرة وهو يمرر يده على شعرها الأسود المسترسل على كتفيها كليل شتاء، تابعها ببصره وحدقتيه تتفرسان في ملامحها الجميلة النائمة كأنه أول مرة يراها، شعرها الأسود مبعثر على ظهرها، وأطرافه تكاد تقترب من مؤخرتها، أزاح بعض شعيرات تغطي وجهها، وأطال النظر فيه، هل يحبها؟! أم هي مجرد امرأة يطفئ معها شهوته؟! لقد شعر بقلق حين أخبره الطبيب الفرنسي أنها من الممكن أن تحتاج لعملية، لا أحد ينجو من هذا النوع من العمليات بسهولة، بالطبع لم يخبرها أن الطبيب سيشق لها بطنها، أخفى عنها الأمر وأخبرها أن الألم سيزول نهائيًا مع الدواء، لكن ماذا سيفعل إن زاد الألم واحتاجت بالفعل لتدخل الطبيب، حينها فقط شعر أنه في احتياج لها جواره، ليس مجرد احتياج لجسدها فقط، بل لوجودها في حياته، هي أول امرأة شعر بها تقتحم قلبه، وأول امرأة يشعر أنه في اشتياق لها، لم ينسها من قبل مع

أن له ليالي مع نساء أَخريات، ولم ينسها بعد غيبته سنوات، حين التقاها من جديد، أحس أن لها في قلبه شوق خفي، ربما ضعيف، لكنه كان موجودًا، زاد بقربها منه، واختلط بالخوف عليها بعد أن علم بتعبها.

اقترب من خدها وطبع قبلة حانية طويلة على خدها الأيمن، فتحت على أثرها عينيها في خمول وابتسمت له في نعومة، ثم سقطت في النوم من جديد وهو يمسح بكفه على رأسها، نهض من جوارها وألقى عليها الغطاء، ارتدى ملابسه وانصرف.

بات ليلته على سريره يفكر، هل يتزوجها؟! هل يخبر أمه بما جرى بينهما؟! أم يخبرها فقط أنه يريد أن يتزوجها؟! وماذا سيكون رد فعلها حين يخبرها أنه يريد أن يتزوج من امرأة مترملة؟

في مساء اليوم التالي، دق على باب ليلى، والشمس لم تكد تبلغ مغربها بعد، فتحت له وعلامات الاستغراب تملأ وجهها، تلفتت حولها تنظر مَن في الطريق، فوجدت بضع أُناس ما زالوا يسيرون فيه، تحركت للخلف في سرعة حتى يدخل دون أن يشعر به أحد، لكنه ظل واقفًا على الباب، وسألها في هدوء:

- أتتزوجيني؟

اتسع فاها في دهشة ممزوجة بفرح وهي تغلقه بكفها، اغرورقت عيناها بدموع، لم تعرف لحلاوتها طعم من قبل، كادت أن تسقط مغشية عليها، أحست أن الأرض تدور بها، مد محمود يده يسندها، قائلًا:

- أرجوكي لا تسقطي الآن، الناس حولنا.

تمالكت نفسها، وسندت بجسدها على الباب، وهي تقول بصوت مخنوق من دموعها:

- لن أسقط وأنا معك.

رد مبتسمًا:

- هذا يعني أنكِ موافقة على زواجي بكِ؟

أجابت في لهفة:

- بل أوافق على زواجي بك.

ولولا أنهما كانا على باب الدار والناس من حولهما، لألقت نفسها بين ذراعيه في سعادة، ولاحتضنها في قوة واعتصرها بين ساعديه، لكنهما صمتا، وامتنعا عن الكلام، والصمت في العينين، هو صرخة المحبين.

عاد إلى البيت، وأثناء تناول العشاء مع أمه ورقية زوجة أبيه، نطق في تردد:

- لقد قررت أن أتزوج.

تبادلت السيدتان النظرات، واتسعت ابتساماتهما، وقالت أمه:

- أخيرًا يا محمود قررت أن تُفرحني بك، وتحضر لي أحفادًا أحملهم قبل أن أموت.

نطقت رقية في سعادة:

- ليتني تعلمت الزغاريط من قبل، حتى أُزغرط لك الآن يا محمود، ألف مبروك، عروستك عندي أنا، بنت الشيخ...

قاطعها محمود في لطف:

- أنا أعلم أنكِ ستختاري لي أجمل الفتيات وأحسنهم، ولكن قد وقع اختياري على إحداهن.

نطقت أمه في لهفة:

- أخبرني من هي وسأخطبها لك الليلة.

تردد محمود وهلة، ثم حسم أمره وقال:

ليلى، جارتنا ليلى.

ضربت أمه يدها على صدرها وهي تقول في جزع:

- ليلى أرملة محروس؟!!

وتابعت زوجة أبيه القول:

- هل عليك ندر يا بني حتى تتزوج أرملة، وأكبر منك سنًا أيضًا؟!!

وضع اللقمة من يده على الطبلية وقال في صوت بدا يحمل رنة غضب:

- هذا لا يعيبها، أنتما الاثنتان أرملتان، لا أعتقد أن هذا يعيبكما أو يصيب سمعتكما بشيء مشين.

ساد الصمت لحظات، ثم قطعته أمه وهي تقول في محاولة لتهدئته ومراجعته عما يفكر فيه:

- ليلى جميلة، ولكن البكارى كثير وأجمل منها، دعني أزوجك من بكر تفرح بها وتكون أنت أول بختها.

تابعت رُقية مكملة:

- ربما أغواك جمالها وليونتها في الرايحة والجاية، وتركت في نفسك رغبة إليها، ستزول مع زوجة أخرى بكر صغيرة تمتعك وتتمتع بها.

نهض محمود واقفًا وهو يقول:

- لقد حسمت أمري بالفعل، لا أريد أن أغضبكما ولكني نويت، ولا أريد أن أتزوج وأنتما غير راضيتين أو أتزوج وأبتعد عنكما، أريد أن أتزوجها وأحضرها لتعيش معنا هنا.

تركهما وانصرف إلى غرفته، وتركهما يتبادلان النظرات وهما في حيرة من أمرهما، كانا ينتظران هذا اليوم بفارغ الصبر، خصوصًا أُمه، لكنه فاجأهما باختياره لامرأة مترملة، تكبره في السن، بل وعاقر أيضًا لا تنجب، بات ليلته متأرقًا يرتب كيف يتصرف إن استمرَّا على رفضهما، هل يتزوج ليلى ويعيش معها في دار زوجها الأول، ويكون جوار أمه وزوجه أبيه، أم يتخذ بيتًا آخر بعيدًا عنهما، وكيف يبتعد عنهن وقد صرن كبارًا؟! لا يستطيعا تصريف أمورهما كسابق عهدهما، ولم يعد يقدر على الابتعاد عنهما، ألم يكفهما فترة غيابه؟ لقد تركهما فترة الحرب، وهي فترة ليست بالقصيرة، وسيكون من الصعب عليهما وعليه أيضًا أن يبتعد ويتركهما يعيشا في البيت لحالهما مرة أخرى، ظل ساهرًا حتى غلبه النعاس وهو يسمع المآذن ترفع آذان الفجر.

استيقظ في الصباح على صوت أمه، نهض فزعًا من نومته؛ لأنه لم يتعود على أن توقظه أمه، وهو يسأل:

- ماذا هناك؟

جلست جواره في هدوء وهي تربت على صدره:

- لا شيء يا ولدي، أردت أن أُخبرك أننا لن نقف أمامك، وأمام رغبتك في الزواج من ليلى، فهي على كل حال لم نرى منها ما يسيء أو يضر، وأهلها أُناس طيبون، سنزورها اليوم أنا والست رقية، ثم نذهب بعدها لزيارة أهلها.

لم يجد ما يفعله سوى أن يحني رأسه يقبل يدها في حب، وهي تمسح على رأسه وتربت على كتفه، تركته وقد انشرح صدره، بعد أن بات ليلته في كربٍ يفكر ويدبر، تناول إفطاره معهما على عجل، وخرج مسرعًا، يدق على باب ليلى، يبشرها بأخبار فرحت لها، ويخبرها بما سيكون من والدته والسيدة رُقية، وفي أيام تمت الزيجة، دون فرح أو بهرجة أو احتفال، في حضور والدها وأمها وأخواتها، وعادت معه لبيته، بعد أن فرش لها غرفته بفرش جديد، وسرير بأعمدة نحاسية لامعة، مغطى بناموسية وردية اللون، يليق بعروسة، ورغم أنها لم تكن ليلته الأولى معها، إلا أنها كانت أكثر جمالًا وبهاءًا عن كل مرة رآها فيها، سعادتها أضفت عليها حُسنًا، وجعلتها تبدو كفتاة صغيرة تتزوح لأول مرة، حين أقبل عليها، كانت جالسة على طرف السرير في حياء لم يألفه منها، لم تنهض وتحتضنه أو تقبله كما تعودت، اليوم هي عروس خجلى، رفع الخمار الذي يخفي وجهها، وأمسك ذقنها بأنامله ورفع وجهها لتنظر إليه، داعب وجنتيها الناعمتين، لثم شفتيها الرطبتين بشفتيه، فأغمضت عيناها لتتذوق طعم قبلته، كأنها أول قبلة لها في الحياة، جلس جوارها، فألقت برأسها في صدره كلبوة تحتمي بعرين أسدها، ولفَّت يدها حول خصره، كأنها تخشى أن تفلته فيضيع منها، ضمها إليها في قوة، أحست بالدفء والسكينة بين ضلوعه، أراحها على السرير ورقد جوارها، جذبها إليه وأحاطها بذراعيه من جديد، ضمته في شوق بين أهدابها الساجية، احتضنته بذراعيها، وأحاطته بساعديها، أسقته من رحيق شفتيها، باتا ليلتهما متعانقين، دون أن يخلعا ردائهما، نامت عيون ليلى وقلبها يرقص في سعادة بين ضلوعها، تحقق حلم لم يراودها إلا لحظة، ظنت فيها أنها واهمة.

عاشا أيامهما في هدوء وسعادة يُحسدا عليها، رغم أن أمه السيدة جميلة وزجة أبيه السيدة رُقية، كانتا تعاملانها في تحفظ ممزوج بشيء من الجفاء، إلا أن كل هذا قد زال بعد أن بشرهما محمود بأن ليلى تحمل في بطنها طفلهما الأول.

انقلب الحال، فأصبح غير الحال، صارت ليلى سيدة الدار المدللة، تطلب ما تشتهي، وتأكل ما تفكر فيه، منعوها من أعمال البيت، وجُعل لها البيت واحةً للراحة والهناء، جاءها المخاض في شهرها السابع، فأرسلت السيدة جميلة تستدعي الداية في عجل، وأرسلت من ينادي محمود من عمله، الذي ترك ورشته وهرول إلى البيت في خوف، دخل البيت وصراخ ليلى يَملأ جنبات الدار، فسأل في جزع:

- ماذا يحدث؟ هل هي بخير؟

نادته السيدة رُقية الجالسة على الكنبة، وهي تربت على الوسادة المجاورة لها، تدعوه للجلوس عليها وهي تقول:

- اهدأ، كل شيء على ما يرام، كثيٌر من النساء يلدن في شهرهن السابع.

رد في توتر:

- لقد تركتها في الصباح وكانت بخير، لم تشك من آلام ولادة ولا حتى مغص بسيط.

ربتت على ساقيه قائلة:

- ادعُ لها الله أن تنهض في سلام.

رأى التوتر في ملامح أمه وهي تهرول بين الغرفة التي تلد فيها ليلى، وبين مطبخها، وبين باب الدار تستدعي إحدى جاراتها،

وصلت أم ليلى في الحين، خلعت عن كتفيها عباءتها وألقتها جانبًا وهي تدخل مسرعة للغرفة، وصراخ ليلى لا ينقطع، ثم انقطع الصراخ فجأة، وساد الصمت، هدوء هز أركان البيت، أثار الرجفة في ساقي محمود وهو جالس، لم تمض لحظات حتى علا صراخ أم ليلى، والسيدة جميلة من الداخل، نهض في فزع واقتحم الغرفة صارخًا:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟!

دخل والداية تلف المولود في قماشة بيضاء، وتضعه جوار ليلى الذي مال وجهها على جانبه الأيسر وهي تقول:

- يعوض عليك ربنا.

فسأل في رعب:

- وليلى؟!!

ردت أمه من بين صرختها:

- الاثنان راحَا يا محموووووود.

سقط محمود على الأرض كمن ضربته صاعقة من السماء، لم تتحمل ركبتيه الصمود، ولم ينطق لسانه بكلمه، زحف حتى وصل إلى السرير، حملته ساقاه في ضعف، حتى جلس جوار ليلى، رفع رأسها وضمها إليه ضمته الأخيرة، لم يسأل عن المولود فهو لم يقابله ولم يعرفه من قبل، أما ليلى كانت فرحته وزهرته في فترة حياته الأخيرة من يوم أن تزوجها، لم ير معها إلا طعم الفرح والسعادة، حتى من قبل أن يتزوجا، كانت الصديق الذي يسمع شكواه، تضمه إليها في حنان أقرب إلى حنان الأم، كانت له الحياة.

تمت مراسم الجنازة في هدوء، ودفنت مع وليدها في مقابر الورداني، بعد أن رفض محمود أن يدفنهما في غير مدافنهما، استقبل العزاء في البيت ثلاثة أيام، أغلق فيها ورشته حدادًا، بدا متماسكًا صلبًا أمام الناس، إلا أنه كان يدفن رأسه ليلاً في مضجع ليلى، يستنشق رائحتها التي لم تزُل بعد، باكيًا على فراقها، حتى بعد انقضاء أيام العزاء، وعودته للعمل في الورشة، ومحاولاته في دفن نفسه في العمل، ظل على حزنه وبكائه ليلى في ظلمات ليله، كأن الأرض خلت من الحياة بعدها.

كيف استطعتي أن تعبري الدفاعات والمتاريس التي نصبتها حول قلبي.. لتطعنيه بسحر عينيكي.. ثم ترحلي بعد أن استبحتي سفك دمي في الأشهر الحرم.. وتتركيني غارقًا في ذكرى حلاوة طعنتك..

أحست أمه بما يغرق نفسه فيه، وباهتمامه الزائد بالورشة وعمله، ظل على هذا عامًا ويزيد، حتى جاء يوم لم تستطع بعده الصبر أكثر، طلبت منه أن يتزوج مرة أخرى، رفض الأمر كأنه لا يخصه أو يعنيه ثم قال:

- ليس لي رغبة في امرأة أخرى، اكتفيت بليلى واحدة في حياتي.

لم تتركه، ألحت في طلبها مرات ومرات وهو على رفضه، صمَّمت أكثر على أن ينفِّذ رغبتها، مرت سنوات جاوز فيها الثلاثين وهو على نفس الحالة من الرفض، طعنت أمه في السن وازدادت السيدة رُقية مرضًا وبات نظرها أضعف من أن تُبصر ملامحه، حتى جاء اليوم الذي قالت له فيه غاضبة:

- سأخطب لك وسآتي لك بالعروسة هنا غصبًا عنك، لن أدعك تعيش بقية حياتك مترهبنًا.

ألحت عليه أيضًا رُقية زوجة أبيه التي تدهورت حالتها الصحية أكثر في فترتها الأخيرة، وبعد معاناة الجميع بين الإلحاح والرفض، رضخ، لم يستطع أن يقاوم أمام إلحاح المرأتين، حينها كان في الثالثة والثلاثين، لما دفعته أمه للزواج دفعًا، لكن هذه المرة اختارت له هي، فتاة من إحدى البيوت الطيبة، بعد أن لفت، ودارت، ودخلت بيوت عدة.

اختارت له أخيرًا بعد بضعة أسابيع من البحث والفرز والتأني، مريم بنت السيد مصطفى عبدالرحمن واحد من أشهر صانعي الأسلحة في سوق السلاح، كان يصنع الأسلحة البيضاء كالسيوف والسكاكين، بالإضافة إلى إصلاح بعض الأسلحة كالغدارات، كان يتمتع بسيرة طيبة بين جيرانه، وأقرانه، وبالطبع محمود ورث عن أبيه سمعته وسيرته الحسنة أيضًا، ولم يكن أحد يعرف عن حياته السابقة الخفية التي قضاها قبل سفره لجزيرة العرب شيئًا، اتخذ بيتًا جديدًا في الرويعي، لم يقدر أن يتزوج بأخرى ويدخل بها في بيت ليلى، وفي غرفتها، أو على سريرها.

كانت مريم على علم بحبه الشديد وتعلقه بزوجته الأولى، تقبلت الأمر وتعاطفت معه، لم تكن تغضب حين يخطئ ويناديها بليلى أحيانًا، أو حين تراه شاردًا ساكنًا لا يتكلم، كانت في داخلها تعرف أنه يفكر فيها، ويتذكر ذكرياته معها، إلا أنها كانت تُصبِّر نفسها وتقول لنفسها: «لن أغار من امرأة ماتت ورحلت عن دنيانا».

ورغم أنه كان يعاملها بلطف، إلا أنها كانت تشعر أنها لم تزل خارج قلبه، فقط تعيش معه دنياه، أقسمت في داخلها أن تعوضه عنها وأن تجذبه إليها وتنسيه ليلى ودنياه السابقة،

داومت على أن توقظه صباحًا وتقبله، تُجهز له ملابسه للخروج، وتُعد له أخرى حين عودته، اهتمت بكل تفاصيل حياته اليومية، حتى إنها كانت ترسل لها بعض الطعام الخفيف، أو بعضًا من حلويات تعدها بنفسها وترسلها إليه في الورشة مع مرسال، تستقبله في المساء بابتسامة لا تختفي مهما كان بها من تعب، تحضر له العشاء، وتساعد أمه وزوجه أبيه، لإرضائه، لم تخجل أن تناوله بعض اللقيمات في فمه أمام أمه، والسيدة رُقية، فكان يتقبلها في خجل، مربتًا على يدها شاكرًا، حتى أتى يوم أخبرته فيها بأنه حبلى، ابتسم في سعادة واحتضنها، فغاصت بين ذراعيه، لتشعر بهدوء مع دقات قلبه الرتيبة.

لم تترك نفسها أثيرة لفراش الراحة أثناء الحمل، ظلت على حالها كتفًا بكتف مع سيدات الدار الأُخريات، حتى لما ماتت السيدة رقُية وهي في آخر شهرها الخامس، وقفت تساعد في العزاء واستقبال المعزيات، وإعداد الطعام ولم تترك السيدة جميلة لحالها، طوال فترة العزاء والحداد، من بداية حملها شعرت أن محمود أكثر قربًا لها عن ذكرى ليلى، ربما لم ينسه بعد، لكن المهم لها الآن أنها تشعر بقربه منها، ووجوده جوارها بعقله وقلبه، وليس بجسده فقط، على الأقل أغلب الأوقات، ولما جاءت لحظة الولادة، عاودت محمود ذكرياته الأليمة، شعر بخوف شديد أن يتكرر ما حدث مع ليلى، وأن يفقد مريم أيضًا وطفله من جديد، اليوم هو بحاجة لهذا الطفل، ليشعر أن له فرع على الأرض، ليشعر أن عنده سببًا للحياة من أجله، تعالى صراخ مريم من الغرفة، رأى نفس ما حدث من قبل، أمه رغم ضعفها وتعبها مع الأيام، تتحرك جيئة وعودة بين المطبخ والغرفة، أم مريم التي وصلت وخلعت عباءتها وألقت بها على

الكنبة جواره، هبَّ من جلسته وتحرك ناحية الباب ليبتعد عن الدار حتى تصله الأخبار، فلم يعد يستطيع أن يتحمل ما حدث مرة أخرى، فتح باب الدار وقبل أن يخطو منه للخارج، ارتفع صراخ طفل من الغرفة، اخترق أذنه كألف آلة موسيقية، تطرب لها الآذان، عاد مسرعًا يقتحم باب الغرفة، وجد مريم منهكة الملامح تحتضن رضيعها في حب وحنان، استقبلته أمه بضمة قوية وهي تقول:

- أخيرًا رأيت خلفك يا بني.

والداية تلملم في حاجاتها وهي تقول:

- مبروك ما جالك، ربنا عوض عليك بخير، ولد زي الفل.

اتجه ناحية مريم، ضم رأسها في صدره في قوة مليئة بحب وحنان:

- حمدًا لله على سلامتك.

ثم حمل محمود الوليد ورفعه لأعلى وهو يقول:

- علي سأسميه علي.. علي محمود علي أحمد الورداني.

ارتفعت أصوات الزغاريط من أم مريم والداية، ثم أعقبها زغاريط من الجيران بعد أن علموا بالخبر.

استمرت الحياة هادئة، مستقرة، رزق فيها السيد محمود بحسن من بعد علي ثم بهند، لم يعكر صفو حياتهم إلا وفاة أمه السيدة مريم، بعد أن طَعنت في السن، انتقلت إلى ربها وهي تحمل هند على ساقيها المتربعتين، تهدهدها وتغني لها.

رحلت في هدوء، وأبكت أهل الدار من ولدٍ وزوجة ولد وأحفاد، كانوا في تعلق شديد بها، حتى هند التي كانت بضعة أشهر ولم

تكمل العام، شعرت بفقدها وغيابها عن الدار، فكانت تبكي وهي تبحث عنها في غرفتها، وفي أرجاء الدار وتسأل عن مكانها أين ذهبت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ١٦ -

كان الأطباء في الغالب من جالية بلاد المغرب يطببون بالحجامة والكي والفصد، ولم يكن هناك أي نوع من مدارس تعليم الطب في البلاد، لكن بعض هؤلاء الأطباء المغاربة كانوا يلقون دروسًا من تلقاء أنفسهم على من يرغب في تلك الصناعة من أهل البلاد أو غيرهم في البيمارستان المنصوري بالنحاسين، أو في أروقة الجامع الأزهر، أو في بيوتهم، وكانوا يتعلمون مما كُتب في العصور الإسلامية القديمة، كعصر العباسيين أو الفاطميين أو غيرهما.

في البداية كانت رغبة محمد علي باشا في وجود طبيب للجيش، فاستقدم أحدهم من أوروبا، منعًا لتفشي الأمراض في جيشه، استقدم كلوت بك وهو فرنسي الجنس والنزعة، واسمه الأصلي أنطون برطلمي كلوت، وُلد في جرينوبل بفرنسا عام ١٧٩٣ من أبوين فقيرين، عاش حياته في فقر وضيق، رغم ذلك وعلى صغره كان مولعًا بتشريح الحشرات ودرس طبائعها، انتقل إلى برينول بعد وفاة والده، عمل مساعدًا لصديق والده الدكتور سابيه، يرافقه في أعماله الطبية، ويتمرَّن على الجراحة، وكان كلوت يطالع ذلك العلم بنفسه لساعات، حتى قرأ كتاب الجراحة من تأليف لافا، فرأى أن برينول لا تفي بما تجنح إليه نفسه، ولا تروي مطامعه، فنزح إلى مرسيليا رغم إرادة والدته التي كانت شديدة التعلق به، لكنه كبح جماح عواطفه وأصر على الرحيل، ولم يلاق فيها إلا الفقر والفشل، فاضطر إلى العمل حلاقًا، عاد بعدها إلى بلدته، والتحق بالدراسة في مستشفاها بعد تكرار الالتماس، أتم دروسه رغم فقره عام ١٨١٧، وعين طبيبًا صحيًّا ثم نال الدكتوراة عام ١٨٢٠ بشق الأنفس نتيجة فقره الشديد،

سافر بعدها عائدًا إلى مرسيليا وعمل فيها طبيبًا ثانيًا بمستشفى الصدقة ومستشارًا جراحيًّا بمستشفى الأيتام، ثم أقيل بعد فترة، في تلك الأيام كان محمد علي قد أوكل لمسيو تورنو -وكان تاجرًا فرنسيًّا- اختيار من يليق بمنصب طبيب لجيش البلاد، فكان أن تقابل مع كلوت عام ١٨٢٥ وعرض عليه المنصب فوافق لما علم أن البلاد تفتقر إلى الطب وتحتاج إلى إصلاح طبي واسع.

عهد إليه محمد علي تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري، وجعله رئيس أطباء الجيش فعني بتنظيم هذه الإدارة عناية تامة، بعد فترة أشار على محمد علي باشا بإنشاء مستشفى عسكري بأبي زعبل بجوار المعسكر العام، فوافق على اقتراحه وأنشأ المستشفى الذي صار فيما بعد مستشفى عامًّا لمعالجة الجنود وغيرهم، ثم خطر له أن ينشئ بجوار المستشفى المذكور مدرسة لتخريج الأطباء من أبناء البلاد.

فأصدر محمد علي أوامره بالشروع في بناء مدرسة الطب سنة ١٨٢٧ استجابة لاقتراح كلوت بك، وكان مقرها في أبي زعبل حيث المستشفى العسكري، فأنشئت المدرسة بالمستشفى؛ لأنه المكان الوحيد المناسب لإيواء المدرسة وذلك لتوفر وسائل التعليم الطبي والتمرين كان الغرض منها في البداية تخريج الأطباء المصريين للجيش، ثم صار الغرض عامًّا لمَّا صار الأطباء يؤدون الأعمال الصحية للجيش وللبلاد عامة.

اختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الأزهر في البداية، وتولى إدارتها وإدارة المستشفى كلوت بك، الذي اختار لها طائفة من خيرة الأساتذة الأوروبيين ومعظمهم من الفرنسيين يُدرِّسون علوم التشريح والجراحة، والأمراض الباطنية، والمادة الطبية، وعلم الصحة، والصيدلة، والطب الشرعي، والطبيعة،

والكيمياء، والنبات، وكان فيها أساتذة آخرون لتدريس اللغة الفرنسية للتلاميذ الأزهريين.

كان المقرر جعل التعليم باللغة العربية، لكن الأساتذة الأجانب الذين حضروا لم يكونوا على دراية باللغة العربية، فتم اختيار مترجمون لهم يجيدون اللغتين الفرنسية والعربية، فكان المدرس يأتي للتدريس ومعه المترجم فيلقي الدرس بالفرنسية وينقله المترجم إلى العربية، ويكتبه التلاميذ بخطوطهم في كراريسهم، وألحقت بالمستشفى حديقة للنبات فيها كل ما تُنبت الأرض من العقاقير والنباتات النادرة.

وقد ألحق بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة، ثم مدرسة للقابلات والولادة، واختيرت لمدرسة الولادة، طائفة من السودانيات والحبشيات تعلمن فيها اللغة العربية وفن الولادة، بعد أن واجهتهن صعوبة كبيرة في العثور على طالبات مصريات للمدرسة.

وبمشورة أصدقائه الفرنسيين، وجه محمد علي باشا عنايته للوثائق وضبط إداراتها والسيطرة عليها، فأنشأ محمد علي الدفتر خانة عام ١٨٢٨ بهدف جمع وتنظيم إدارة الوثائق.

بعد خمس سنوات من إنشاء المدرسة تخرجت الطائفة الأولى، اختير من بينهم العشرون المتفوقون على أقرانهم، بقي منهم ثمانية في المدرسة في وظيفة معيدين للدروس، وأرسل الاثنا عشر الباقون إلى باريس لإتقان علوم الطب وإتمامها، فلما عادوا عُيِّنُوا أساتذة في المدرسة.

في عام ١٨٣٢ أنعم محمد علي باشا على دكتور كلوت بلقب بك، دون الحاجة للتخلي عن دينه، عندما قام هو وتلاميذه

بإنقاذ ستين ألف طفل من وباء الجدري عندما طبق نظام التطعيم السنوي على الأطفال وكذلك مقاومته لوباء الكوليرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ١٧ -

مدينة دمياط في تلك الأيام كانت مدينة كبيرة، يعج ميناؤها بالحركة، يختلط في شوارعها الأجانب والمصريون على اختلاف انتماءاتهم وألوانهم ودينهم، شهدت المدينة تمييزًا ضد الأجانب والأقليات؛ ذلك لأنها كانت مقر سجن الجنود الأجانب الفارِّين من جيش محمد علي، كما كانت منفى للجماعات السياسية أو الأشخاص غير المرغوب فيهم أو المغضوب عليهم، وكان يُنظر إلى المسيحيين فيها على أنهم ممن تخلفوا منذ عهد الحملات الصليبية على البلاد، ورغم تصرفات الوالي وأوامره الدائمة بعدم التفرقة في التعامل بين المسلمين والمسيحيين في كل أنحاء البلاد، وأن القانون مفروض على الكل جمعاء وسواسية، إلا أن المدينة لم تخلُ كسائر المدن من الأحداث الطائفية التي يشعلها جهلاء المدينة، فقد حدث في المدينة عدد من الحوادث الطائفية، من قبل كان يتم إنهاؤها أغلب الأوقات بالتصالح عن طريق الشيوخ والعلماء وقساوسة البلد، لكن في يوم دافئ من أيام شهر مارس، بدأت مشاجرة كان طرفاها باسيلي الخولي وهو موظف مسيحي بقنصلية الإمبراطورية النمساوية، ودرويش التاجوري التاجر السكندري المسلم، دبَّت بينهما مشاجرة على خلفية معاملات مالية، لكنها سرعان ما تحولت إلى خلاف طائفي، تعظم ليصبح معركة دامية بين المسلمين والمسيحيين في شوارع المدينة، تلك الحادثة تسببت في شحن النفوس وتعبئتها من كلا الطرفين، فأصبح كل طرف يتربص بالآخر، ينتظر منه هفوة ليشعل على أثرها النار، لينفخ فيها حتى تحرق الأخضر واليابس.

ورغم محاولات العقلاء في تهدئة النفوس، إلا أنه بعد أيام عدة حدث احتكاك بين الناس على الطريق المؤدي للكنيسة، فتجمهر الناس مشحونين بأحداث الأيام السابقة، أتى مفتي المدينة وكان بالقرب منهم، في محاولة لنزع الفتيل قبل الاشتعال، حدثه بعض الواقفين عن أن سيدهم بشاي مارسيدهم تطاول على الإسلام والمسلمين وأساء للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم، حاول حل الموقف وإنهائه، لكنه لم ينجح نتيجة الجهل والعمى الذي في القلوب، فلجأ العسكر في المدينة إلى إنهاء الموقف في سرعة، خوفًا من اشتعال الفتنة والاضطرابات من جديد، وألقوا القبض على مارسيدهم ووجهوا له تهمة ازدراء الإسلام بناءًا على ما قيل من المتجمهرين.

تمت المحاكمة في حضور المحافظ خليل أغا والشيخ علي خفاجة والشيخ البدري ونقيب الأشراف في دمياط، مع نفر من التجار، وأميرلاي الرديف، وبالطبع تمت إدانته، بعد أن شهد عليه اثنان أحدهما بربري والآخر حمَّار، حُكم عليه بالاستتابة أو الجلد حتى الموت، هلل الناس وفرحوا بالحكم، وهاجوا على الرجل في المحكمة، وعمت الفوضى المكان، واضطربت المحكمة، وفقد العسكر السيطرة على الأمور، اشتعل الموقف في دقائق وتحول تنفيذ الحكم على مارسيدهم إلى فوضى تامة لا سيطرة فيها لأي شخص على أي شيء، العامة تملكهم الجنون والغضب الأعمى، اختطفوا مارسيدهم من أيدي العسكر، وتجاذبوا جسده فيما بينهم تنفيذًا لحكمهم الشخصي عليه، قاموا بجلده حتى سالت منه الدماء، وعذبوه وسحلوه في طرقات المدينة، ثم أركبوه جاموسة بالمقلوب اتباعًا للعرف السائد للتجريس بالناس، وطافوا به في المدينة، وهم ينخسونه بسياخ

حديدية بين الحين والحين، تحولت المدينة كلها لحالة من الجنون والفوضى كمن أصابهم مرض معدٍ تفشى بينهم وانتشر في أبدانهم وقلوبهم، تجمعوا كالذئاب المسعورة التي تلتف حول فريستها، أعماهم الغضب والجهل، وساقتهم الحماقة كما تساق الدواب، حتى إن أحد الموجودين أفرغ على رأس الرجل القطران الساخن وهو حيٌّ، ولم تهزهم صراخاته ولا توسلاته، ولم يتركوه حتى صار على وشك الموت، فألقوه أمام الدار، فحمل إلى منزله حيث توفي بعد خمسة أيام على أثر العذابات التي احتملها.

وصل الأمر إلى محمد علي باشا، فثارت غضبته على عدم تنفيذ القانون، وتراخي المسئولين وجنوده في دمياط، أرسل من يحقق في الفوضى التي حلت بالمدينة، وكيف آل الأمر إلى هذه الفوضى التامة، بعد تقاعس الجنود وتخليهم عن أوامرهم الأصلية.

وتمت إدانة المحافظ والقاضي والشيخ البدري وحكم عليهم بتجريدهم من مناصبهم؛ لأنهم ساهموا في خلق الأحداث بتقاعسهم عن منعها، وعدم الأخذ بالحزم والشدة لتنفيذ الحق والقانون.

شُيعت جنازة مارسيدهم رسميًا، بأمر الباشا الوالي، الذي أمر بتكريم ذكراه في كل أنحاء مصر وأصدر أمره للمرة الأولى برفع الأعلام الكنسية والصلبان في الجنازة، استقبلت الطوائف المسيحية الخبر بالابتهاج، وسار الموكب الجنائزي في الطريق يتقدمه الكهنة في ملابسهم الكهنوتية لأول مرة في العلن، وعلى رأسهم القمص يوسف ميخائيل وطافوا أرجاء دمياط، مع مجموعة من الشمامسة، على مرأى ومسمع العامة من الطرفين، حتى وصلوا بالجثمان والجنازة إلى موقع كنيسة مارجرجس،

حيث أتموا مراسم الصلاة، وقاموا بدفنه بأرض الكنيسة، حيث مدافن أقباط أهل دمياط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٨-

القاهرة ١٨٣٥

الثاني عشر من رمضان..

والجو ما زال على حرارته المرتفعة، والناس في صيامهم متماسكون في إخلاص، من مطلع الفجر إلى غروب الشمس، إلا من غضب عليه ربه وأفطر سرًّا أو جهرًا على شربة ماء وبضع لقيمات، البعض يجلس عاطلًا ممسكًا بعصا مزركشة أو مسبحة في يده، وهناك أولادٌ يصومون لأول مرة وربما بعض الرجال أيضًا، يسلون أنفسهم ببعض الألعاب الصبيانية، ليظهر عليهم أن الصيام لم ينجح في مساعدتهم على تهذيب حدة طبعهم، فكانوا يتناحرون ويتبادلون الألفاظ والسباب.

انشغل الناس وامتلأت أحاديثهم في هذه الأيام بحال النيل الذي يرتفع من فترة واستمر حتى اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس، ويسبب لهم قلقًا شديدًا، وخوفًا من تفشي الطاعون حينما تنحسر مياه الفيضان، لم يتأخر انحسار الماء من قبل كل هذه الفترة من قبل، لقد غمرت المياة الجزء الأسفل من بعض المنازل المنخفضة، بل ربما وصلت إلى ارتفاع قدم أو أكثر قليلًا في بعض شوارع القاهرة وتدفقت إلى العديد من البيوت.

كما شغلهم في الفترة السابقة، الوباء الممض الذي عم بين الأبقار في الأشهر الثلاث التي سبقت رمضان، سرى الخوف بين الناس كالنار في الهشيم وخشوا أن يتحول إلى طاعون بين الناس يفتك بهم، الكل سمع حكايات كثيرة عن معاناة الناس من تفشي هذا الوباء اللعين من قبل، امتنع الناس من حينها عن تناول اللحوم وشرائها، الخسارة الفادحة عانى منها الفلاحون البائسون الذين

يمتلكون ماشية، أما أثرياء البلد كانت خسارتهم باهظة جدًّا، العديد من الأبقار والجاموس الميت شُهدت راقدة في النهر وعلى جانبيه، وحتى الآن ما يزال هناك أعداد كبيرة من المواشي تموت في كل أرجاء البلاد.

لم تكن تلك السنة الأول التي يصوم فيها علي وحسن، لكن كانت الأولى لهند التي أصرت على الصوم والتماسك حتى أذان المغرب من أول يوم، رغم شدة الحر.

وقفت في مشربية النافذة المطلة على الشارع أمام البيت، تتفرج على الغَادِينَ والرَّائِحِينَ، قبل أن يعلو صوت المؤذن بالمغرب، علي وحسن كفَّا عن الذهاب إلى الورشة من أول الشهر، لشدة الحر وكسلهم، رغم أنهم لا يعملون فيها، بل ربما يذهبون تمضية لوقتهم، أو إرضاءً لأبيهم، ينامان طوال النهار تقريبًا، ولا يستيقظان إلا بعد العصر، أو قبيل المغرب بقليل، حين تنادي عليهم هند عندما ترى والدها يقترب ويظهر على ناصية الشارع، واليوم ما أن لمحته حتى جرت إلى غرفتهم تصرخ منادية عليهما بصوتها الطفولي وسنواتها الخمس وبراءتها قائلة:

- استيقظا.. استيقظا.. محمود الورداني وصل على أول الشارع.

ابتسمت الأم في الدور الأرضي وهي تضع حلة الأرز في الفرن وتنهض ممسكة ببطنها المنتفخة قليلًا التي تحمل جنينًا في شهره الثالث، بعد أن سمعت صوت زينب تنادي على إخوتها، قفز الاثنان من على السرير، كمن مسهم من الشيطان مسٌّ، يتخبطون في بعضهما ويتسابقان إلى غسل وجههما ببعض الماء، لإزالة أثر النوم وربما بعض من آثار السهر، قبل أن يصل السيد محمود الورداني ويرى عليهما آثار نوم النهار ويوبخهما، ما إن

دخل الأب البيت حتى استقبلته هند قافزة عليه فاحتضنها وحملها على ذراعيه، بينما علي وحسن ينزلان من على السلم ذي الدرابزين الخشبي الذي يئن بخفوت تحت أقدامهما الصغيرة، اقتربا ليسلما على والديهما ويقبلان يديه، ضحكت هند وقالت كما تفعل في كل مرة:

- أبي، إن علي وحسن كانا نائمين، واستيقظا حين علما بوصولك.

نظر إليها الولدان في غيظ وضيق، والأب يبتسم في حنان ويحتضنها سائلًا:

- وأنتِ ما رأيك؟ ماذا نفعل معهما؟

ردت مبتسمة:

- نتركهما، ربما غدًا يكبران ويعقلان.

أنزلها على الأرض وهو يوجه حديثه إلى الولدين:

- أنتما تنامان طول النهار ولا تشعران بحلاوة الصوم كما تفعل هند.

رد عليه الأصغر مبتسمًا بركن فمه الأيمن ابتسامة صغيرة في خبث:

- نوم الصائم عبادة.

ضحكت السيدة مريم وهي تقول:

- ما زلوا صغارًا، لا تكن حازمًا معهم في هذه الأيام، تلك أيام مباركة.

جلس محمود الورداني متكئًا على الدكة بعد أن دخل غرفة الجلوس وهند تجري تجلس ملاصقة فيه وهو يتعجب من قول

زوجته:

- أين هذا الحزم؟ لقد امتنعا عن المجيء للورشة نهارًا، وهما غير منتظمين في الذهاب للشيخ عبدالله القناوي ليحفظهما القرآن، وفوق هذا ينامان طوال النهار فتضيع عليهما صلاتا الظهر والعصر، وأحيانًا ينامان قبيل أذان الفجر بقليل فتضيع عليهما صلاة الصبح أيضًا.

رد علي:

- نحن نستيقظ نصلي الظهر وننام ثم نستيقظ لنصلي العصر...

قاطعته هند وهي تحرك يديها الصغيرتين وتضمهما على صدرها قائلة:

- وننام أيضًا.

ضمها إليه أبوها في حب وحنان وهم يضحكون جميعًا على قولها وطريقتها، نهضت مريم تتابع الأكل الذي وضعته في الفرن، وتركتهم جالسين وهند تواصل حديثها مع والدها:

- اليوم وأنا أقف في المشربية في انتظارك لمحت امرأة تقود رجلًا ضريرًا من يده، تحمل غليونًا جاهزًا للتدخين، الرجل عجوزٌ وظهره محنيٌّ، وحزنتُ لأنه كان يبدو عليه التعب والعطش من الصيام وخُفت أن يلحقه أذى من الصيام أو يموت، فقد كان يسعل في شدة.

رد الورداني وهو يربت عليها:

- إن الله سيكافئهما بثواب عظيم لتحملهما الصيام في هذا الحر، الله يعينهما كما يعيننا على الصوم في هذه الأيام.

تساءلت من جديد:

- لكن أبانوب والسيد إبراهيم والسيدة عصابات يشريان الماء في السر، لقد رأيتهم من قبل.

أجاب علي:

- لقد قلت لك أكثر من مرة إن اسمها إليصابات وليس عصابات، كما أنهم غير مسلمين مثلنا.

ردت في استغراب شديد وتعجب بدا على ملامحها الدقيقة:

- وهل هذا سببٌ ليفطروا من أجله في رمضان.

ارتفعت ضحكاتهم والأب يقول:

- إن الصوم في رمضان للمسلمين فقط، وهم لهم أيام أخرى يصومونها، كما أن صومهم مختلف عنا.

تواصلت الضحكات من الداخل مع صوت طرقات على باب البيت تُسمِع الأم التي تجلس أمام الفرن تُخرج الطعام الذي طاب واستوى مع اقتراب موعد المغرب، ورجل بالخارج ينادي بصوت عميق كأنه منبعث من بطن بئر سحيق:

- «سقاااااااا، يارب عوض علياااااااا».

الأهالي كلهم في المحروسة يعتمدون على ماء النيل الذي يجري في الناحية الغربية للمدينة، والسقا يغدو ويروح بضع مرات عليهم في اليوم حاملًا المياه في قربة من جلد الماعز مرتديًا سروالًا قصيرًا بلون أزرق، قربته نظيفة، يأتي بالماء من المناطق البعيدة عن الشواطيء القريبة من الناس وعن المراحيض ومساقي الحيوانات، والسقا الذي يستخدم حمارًا يعلق دائمًا جرسًا في رقبته، فينتبه الناس لمجيئه، لكنه يدق الباب على بعض الزبائن المخصوصين كالسيد محمود الورداني أو السيد

إبراهيم مرقص وغيرهم؛ لأنهم يوصونه بذلك، ويكرمونه ببعض المال الإضافي.

ملأت مريم منه الماء الذي تحتاجه في دارها، وبدأت في تجهيز الطعام في المغارف مع أصوات الرحمة التي ترددت من المآذن لتعلن انقضاء صوم يوم حار آخر من أيام رمضان.

الناس يشعرون بسبب الصوم في هذا الحر القارص بضعف شديد يحول دون تناولهم وجبة الأفطار كاملة، فيشقون صيامهم بتمرتين أو أكثر والبعض يشقه بفنجان قهوة، ومن ثم يذهبون لصلاة المغرب ثم يعودون إلى بيوتهم، منهم من يتناول إفطاره بنهم، ومنهم من يأكل بضع لقيمات خفيفات، أما الذي يأكل بنهم فيثقل جسده وغالبًا لا يقوى على النهوض لصلاة العشاء ويسقط غارقًا في النوم، والآخرون يذهبون لصلاة العشاء والتراويح ثم يعودوا لإكمال إفطارهم.

أبانوب كان في سن قريبة من علي وحسن، كان في العاشرة من عمره، مقربًا لهم يلعب معهما ويتزاوران فيما بينهم، وتَعود في رمضان ألا يتقابلا إلا بعد أذان المغرب؛ لأن علي وحسن يسهران معظم الليل معه وينامان طوال النهار غالبًا، وهو رغم سهره كان يستيقظ ظهرًا ويجلس في البيت لا يفعل شيئًا حتى يتقابل مع أصحابه بعد المغرب أو بعد العشاء أحيانًا، معظم الأيام يتجهون إلى سوق الحلوانيين الذي كانت تروق لهم رؤيته أكثر في شهر رمضان، فهو من أبهج الأسواق ومن أحسن الأشياء منظرًا بالنسبة لهم وربما بالنسبة للكبار أيضًا؛ حيث كان يصنع فيه من السكر أشكال خيول، وسباع، وغيرها تسمى «العلاليق»، يطوفون في الشوارع أحيانًا خلف المنادي الذي يأتي بعد صلاة العشاء في الأحياء المختلفة، يقرع طبلته الصغيرة عند كل باب

ويحيي أهل البيت ببعض كلمات الإطراء، وهذا المنادي يعود مرة أخرى قبل أذان الفجر بحوالي الساعة والنصف محدثًا رقعًا على طبلته يواظب عليه حتى يوقظ أهل كل بيت طلب منه هذه الخدمة، ينادي على الأطفال بأسمائهم طفلًا طفلًا، السيد إبراهيم مرقص كان يوصيه أيضًا أن ينادي على ابنه الوحيد أبانوب حتى لا يشعر أنه غريبٌ أو مختلفٌ عن جيرانه وأصحابه، بل لم يكن يعترض حين يخرج أبانوب مع علي وحسن وهند بعد العشاء للعب بالفوانيس والبمب والصواريخ وغناء الأغاني الرمضانية الشهيرة «وحوي.. يا وحوي.. إيَّاحا» وغيرها، وبالطبع لم يكن بيته يخلو من الكنافة والقطائف وكل ما اشتهر به شهر رمضان من ياميش وزبيب وجوز الهند.

أشهر من قاموا بالتسحير شخص يدعى «ابن نقطة»، وهو المسحراتي الخاص للسلطان الناصر محمد، وكان «ابن نقطة» شيخ طائفة المسحراتية في عصره وصاحب فن «القومة» للتسحير؛ حيث كان يغني في آخر كل بيت غنائي بقوله «قوما للسحور» ينبه به رب المنزل ويذكر فيه مدحه والدعاء له، وقد تبعه في أسلوبه أغلب المسحراتية في المحروسة الذين يجوبونها عشاءًا وفجرًا.

في الفجر انطلق المدفع محدثًا دويًّا شديدًا ارتجت له البيوت والمدينة من أساسها، فالأهالي يتركون النوافذ الزجاجية على المشربيات الخشبية المنقوشة مفتوحة، فكان الصوت يخترق البيوت ويصل إلى الداخل في قوة.

بعد أسبوع انتهى الفيضان، وكما لو كان مكتوبًا على الأهالي الاستمرار في شيء من المعاناة، فقد هبت عاصفة هوائية غير عادية مصحوبة بسحب من الغبار، لشدتها يغلق السائرون

أعينهم خوفًا عليها، ويلفون وجوههم بأقمشة بيضاء يكاد لا يبصرون من خلفها، فكان مجال الإبصار أمام الناس قليلًا في تلك الأيام، ظل الأطفال محبوسين في منازلهم خلف النوافذ الزجاجية التي أغلقت على المشربيات في البيوت منتظرين بصبر العاصفة حتى تهدأ ويهدأ إلى حد ما عنفوانها، بالطبع غطَّى السيد محمود الورداني أعلى البيت بقماش متين عليه طبقة من الشمع، تحمي من بداخله من الجو العاصف والتراب.

تحولت أيام رمضان على الأطفال إلى أيام حبس إجباري يمنعهم من اللعب والخروج والاستمتاع بليالي رمضان والفرجة على الناس في الشوارع وعلى حلقات الذكر في الأزهر أو بقيه الجوامع، حتى أبانوب لم يأت لزيارتهم طوال فترة العاصفة، ولما هدأت قليلًا وباتت الرؤية أوضح إلى حد ما، خرج الإخوة الثلاثة خارج البيت ليلقوا نظرة على المدينة، فلم يستطيعوا سوى رؤية أعالي المآذن فوق بحر من الغبار، وأشجار النخيل الشامخة تنحني في خشوع أمام شدة اندفاع الريح، شعرت مريم بالهواء المندفع من باب الدار فصرخت في أطفالها بصوت عالٍ وهي تجري في اندفاع ناحية الباب:

- ادخلوا يا مجانين، أليس فيكم عقل رشيد يميز سوء الجو وخطورته.

سحبت هند الأقرب إليها التي كانت تتعلق بيد «علي» للداخل وتبعها علي وحسن، والأم تواصل صراخها وتعنيفها لهم، لم تكن العاصفة مجرد زوبعة أو كرياح الخماسين أو السموم، إنما هي ريح قوية جارفة تأتي من الشمال الشرقي.

ثم هدأت العاصفة فجأة، ثم أتبعها هدوء تام كما سبقها، كأن شيئًا لم يكن، وفي أواخر أيام شهر أغسطس بدأ انخفاض مياه النيل رغم أن ارتفاعه كان شديدًا في الأيام الأخيرة.

انقضت باقي أيام الشهر، وأعلنت المحكمة الشرعية بعد محاولة استطلاع هلال شوال أن شهر رمضان سينقضي بعد اليوم المتمم له بعد أن غم عليهم رؤية هلال شوال. استعدت السيدة مريم كسائر جاراتها بالكحك في آخر أيام رمضان، لكن دون أن تنقش عليه كل واشكر هذه المرة فهو كحك لأهل البيت والضيوف.

طقس زيارة الحمام العمومي من ضمن استعدادتها واستعداد أغلب سيدات المحروسة للعيد، فهو ليس فقط من أجل الحموم، ولكنه لإزالة الإرهاق والشعور بالكسل أو التعب، خصوصًا مع الطقس الحار لتلك الأيام، وللشعور الذي يغمر الجسم بالراحة والسكينة بعد زيارة الحمام؛ لذلك هي تجد في عملية الاستحمام ذاتها سعادة كبيرة، كما أنها تريد أن تستعد للقاء امتنع عنه السيد محمود الورداني طوال شهر رمضان، رغم أنها كانت تلمح له أحيانًا به، وبإمكانية حدوثه ما بين المغرب والفجر، إلا أنه كان يتهرب منها دون سبب واضح، فخمنت أنه ربما بسبب الصيام وإرهاقه، أو رداءة الجو الذي لا يشجع على شيء.

أيضًا لأنها أحيانًا ما تتقابل مع بعض النسوة اللائي لا تراهن بانتظام في أيامها العادية. اتفقت مع جارتها إليصابات على الذهاب واصطحبت معها هند، بعد أن أرسلتا مع مرسال ما يحتاجانه هناك من أردية وقباقيب وإناء نحاسي كبير للماء الساخن، وطاستين من النحاس وبعض المناشف.

الحمامات أغلبها ذات طراز واحد تقريبًا وتحمل نفس المظهر، الواجهة مزركشة بالأحمر والأبيض ومن الداخل الغرف أرضها من الرخام، بعد المدخل هناك بهو فسيح وغرف للاستراحة، خلعت مريم وإليصابات فيها أرديتهن قبل الدخول إلى الغرفة الساخنة وهو نفس المكان الذي يعاودن فيه ارتداء ملابسهن بعد الاستحمام، وبالطبع فعلت هند مثلهما، استرخيا على مصطبة عريضة من الرخام مغطى بالحصر، بعد أن لفا نفسيهما بقطعة واسعة من القماش من تحت الإبط وتركا أكتافهما عارية وشعرهن مكشوف، في وسط الغرفة نافورة من الماء البارد لها شكل بديع، وصوت رقرقة الماء المنساب فيها يدفع المرء لا إراديًّا للاسترخاء والتخلص من تعب السنين، مروا عبر غرفة معتدلة التدفئة إلى البهو الرئيسي الداخلي؛ حيث كانت الحرارة شديدة جدًّا، حتى إن هند شعرت بسخونة المكان والبخار الذي عبأ البهو، لكن أمها طمأنتها بأن هذا الشعور سيزول وتتعود على الحرارة بعد قليل، البهو على شكل صليب بأربع حنايا، تغطي المنطقة الوسطى منه قبة، والأرض كباقي الغرف من الرخام الأبيض لكن يتخلله هنا بعض من الرخام الأسود بطريقة فنية في تجانس بديع، مع قطع صغيرة من الآجر الأحمر، بينها في منتصف البهو مصطبة عالية تسمح بالجلوس عليها، ينبعث من وسطها نافورة من الماء الساخن، وجوارها مغطس يُصبُ فيه الماء الساخن من أنبوبة في سقف القبة باستمرار، الحمام مزدحم إلى حد ما ربما بسبب التوقيت، ففيه ما لا يقل عن خمس وعشرين امرأة من كافة الأعمار، وكثيرًا من الفتيات المراهقات والأطفال، أغلب النساء والفتيات عاريات تمامًا دون حياء منهن، لم يتعرف فيهن على أحد، الكل هنا سواء، سواء أكانت زنجية ببشرة سوداء أبنوسية لامعة أو حتى بيضاء ببشرة

ناصعة، في خليط عجيب يتجاذبون أطراف الأحاديث والنميمة في حلقات بكل بساطة دون إكتراث من إحداهن كونهن عرايا، كأنهن بكامل ملابسهن وزيناتهن، غير أن هناك أخريات يتجولن أو يجلسن حول النافورة، جذبت إليصابات قطعة القماش لتستر كتفها العاري وهي تقول لزينب:

- ما بال هؤلاء النسوة اللاتي غاب عنهن الحياء؟ اللي اختشوا ماتوا.

أحكمت مريم القماش حول جسدها أيضًا وهي تمصمص بشفتيها:

- عندك حق، دعينا نذهب إلى الغرفة الخاصة مباشرة، لن أستطيع أن أجلس هنا، فنحن لا نعرف إحداهن كذلك.

اعتادت هند على الشعور بالحرارة والبخار الساخن الذي واجهها لحظة دخول الغرفة الحارة، رغم أنه كان قويًّا، فالسخونة شديدة الوطأة حتى إن إليصابات ذكرت لمريم أن البخار الساخن ربما يلهب جلد هند الرقيق.

دخلت عليهن إحدى البلانات وبدأت في تكبيس بسيط للجسد، تبعته بطقطقة للمفاصل ثم بعده بدأت في عملية الحك بمبرد، البلانات العاملات هنا يستخدمن نوعًا خشنًا للأقدام وآخر ناعم للجسد، واستخدمن لهند كيسًا صغيرًا من الصوف الخشن، غطت الرغوة الناتجة الرأسَ والوجه نتيجة فرك الصابون بحفنة من ليف شجر النخيل ملمسها ناعم ومريح للبدن، ضحكت هند وهي ترى أمها وإليصابات عائمتين وسط الرغوة وهي تلعب بالرغوة التي حولها أيضًا وتحاول أن تمسكها بين كفيها الصغيرين، صبت الفتيات العاملات عليهن الماء الساخن لإزالة

الصابون تمامًا وأعادوا الترغية والشطف مرتين أخريين، وفي النهاية قامت إحدى البلأّنات بالتصبين والفرك برقة متناهية وبطريقة لطيفة حتى شعرت زينب وإليصابات وحتى هند بمتعة حقيقية بعد أن أحسوا براحة البدن والجلد بعد نهاية الفرك.

نهضن ولفت الفتيات حواليهن قطعة عريضة من القماش الجاف كإزار الحمام، اتجهن بعدها إلى غرفه للاستراحة حيث تم تجفيفهن تمامًا، ثم أعادوا ارتداء ملابسهن وجلسن يرتحن مع شعورهن بالاسترخاء، وهن يتبادلن أطراف الحديث عن مناظر النساء بالداخل، وعن مهارة البلانة الأخيرة في الفرك وصراخ الأطفال ينبعث من الداخل يصم الآذان، بينما هند سقطت في سبات عميق على حجر أمها.

السيد محمود الورداني استعد للعيد باصطحابه لعلي وحسن إلى الحلاق، ورغم أن الحلاقة أمر يدعو للملل خصوصًا لعلي وحسن إلا أنه كان أمرًا لا بد منه قبل العيد، جلسوا على كرسي خشبي غير مريح داخل الدكانة، مستندين إلى الجدار، وانتظرا بعض الوقت ولم يكن بالوقت القليل حتى حان دورهما، جلس السيد محمود على كرسي الحلاقة بعد أن خلع عمامته، فشرع الحلاق في عمله على الفور بتمشيط الشعر، ثم بدأ في القص باستخدام أدواته المقص والمشط، في حركات سريعة ماهرة، كأنه فنان يرسم لوحة باستخدام المقص والمشط عوضًا عن الفرشاة والألوان، ولسانه مستمر في الحركة لا يكف عن الكلام ناشرًا عديد أخباره التي لا يعرفها إلا هو.. وهو فقط..، كأن الأخبار تأتي إليه من بصاصين محترفين لا يفشون الأسرار إلا له، ومع عودة اهتمامه برأس الزبون على الكرسي قاطعًا كلامه الجاذب لاهتمام السامعين، دخل السيد إبراهيم مرقص دكانة

الحلاق مع ولده أبانوب، وألقى على الجالسين التحية، ثم وجه كلامه إلى محمود الجالس على كرسي الحلاقة:

- نعيمًا مقدمًا.

فرد عليه شاكرًا:

- أنعم الله عليك.

في الأيام العادية غير أيام رمضان، كان الحلاق سيترك زبونه الجالس على كرسي الحلاقة كائنًا مَن كان، ويتوجه لإعداد القهوة للزبون الجديد الذي وصل مع أرجيلة، ويدخن الجالس على كرسي الحلاقة أيضًا بقية حجر أرجيلته التي ربما لم ينهها أو قام بتغييرها من قبل مرات عدة أثناء جلوسه في الانتظار الممل، رحَّب علي وحسن بأبانوب ثم استأذن كلٌّ من والده ثم خرجوا معًا للشارع للفرجة على الناس ومن أجل بعض اللعب حتى يحين دورهم.

وضع الأسطى عبد الرزاق الحلاق ساقًا معدنية مثبتة من طرفها في الحائط، وحاملة في الطرف الآخر المقوس آنية معدن على شكل قمع مثقوبة ثقبًا ضيقًا بينما تحت ذقن السيد محمود صحنًا للحية من المعدن مستديرة، ينسكب من الآنية المعلقة سلسول من الماء الفاتر على رأس السيد محمود لغسل الوجه والرأس والرقبة بالصابون، واستغرق عبد الرزاق وقتًا طويلًافى حك الشعر ومنابته بأظافرة الحادة كأسنان المشط، جفف الوجه والرأس بمنديل ثم الرأس بمنديل آخر، ثم رطب اللحية ببعض الماء، وتناول الموسي الذي شحذه باستخدام حجر السن وقطعة من الجلد المعلقة في ظهر الكرسي، حتى أصبح جاهزًا للاستخدام.

ارتكز الحلاق بقدمه اليسرى على كرسي خشبي وسند رأس زبونه على ركبته بعد تغطيتها بالمنديل، وبدأ في إزاله الشعر من أعلى الخد الأيسر إلى أسفلها، ثم انتقل للأيمن وكرر نفس الحركة، ثم ساوى الشارب بعد أن طلب من زبونه أن يضم شفتيه ليحدد جوانب الشوارب، عاود الحلاق حديثه عن آخر أخبار الحارات والشوارع المحيطة بدكانته بينما يزيل ما في الوجه من الشعرات الشاذة النافرة التي لم يزلها الموسي، وعمد بمقراطيه إلى فتحتي الأنف فقص ما فيها من شعر، أما الأذنان فغسلهما بوضع ماء فاتر فيهما، وأزال ما في صوان الأذن وفتحتها بآلة صغيرة عنده، عقب الانتهاء قَدَّم صبي الحلاق الصغير مرآة إلى السيد محمود الذي أمعن النظر فيها لنفسه، ثم أثنى على حلاقة الأسطى عبد الرزاق بأن قال:

- تسلم إيدك يا عم عبدالرزاق.

فما كان من الأسطى عبدالرزاق إلا أن ابتسم في انشكاح ومشط شعر الرأس مرة أخرى ثم غطاها بالعمامة التي كان يرتديها السيد محمود حين مجيئه.

وجاء الدور على «علي» الذي كرر معه نفس الحركات في تسوية وتجميل شعر الرأس، لكن بالطبع لم يكن بلغ كفاية لحلق لحية أو تشذيبها، وبعد أن انتهى الحلاق من حسن أيضًا، ناوله السيد محمود بضع قطع من الفضة ذات العشرين قرشًا المعروفة بالريال الفضي، انصرفوا بعد أن سلم على الجالسين في انتظار دورهم وحيا جاره وولده الذي ودع صاحبيه قبل انصرافهما مع أبيهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ١٩ -

لم ينس محمد علي باشا طوال السنين التي مضت المعاناة التي لقيها من قبل من تمرد الجنود عليه بواعز منه أو حتى من غيره، فقد عانى هو أيضًا فترة من تمردهم، ولم ينس ما خطط له من قبل من التخلص من المتمردين من الجنوط الأرناؤوط والدلاة وغيرهم، ورغبته في وجود جيش مصري يسير على أحدث النظم والأساليب التي كانت موجودة في ذلك الوقت والذي شاهد مثلها معمولًا به في الجيش الفرنسي والإنجليزي وسائر الجيوش النظامية، ليحمي بهذا الجيش مصر ويحقق طموحاته في التوسع والفتوحات الخارجية.

بعد عودة حملته الأولى من جزيرة العرب شرع في الإعداد الفعلي لتهيئة الظروف وإعدادها لبناء هذا الجيش، فكان يجب أن يجد الجيش كفايته من السلاح والذخيرة ومختلف العتاد الحربي، وكل ما كان يبنيه أو ينشئه كان هدفه في الأساس خدمة صناعة الجيش، فمدرسة الطب ترجع إلى تخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش، وتطور الزراعة وزيادة الحاصلات الزراعية واحتكارها من قِبل الحكومة لخدمة تموين الجيش في الأساس، حتى مصانع الغزل والنسيج كان الغرض منها توفير احتياجات الجيش من الكساء، ولتوفير احتياجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة قام بإنشاء المصانع الحربية المختلفة في أرجاء مصر، وبالطبع المهندسين من المهندسخانة ساهموا وأشرفوا على بناء ثكنات الجنود والمعسكرات والمستشفيات التي يحتاجونها، أما البعثات إلى أوروبا فساعدته على وجود عدد كافٍ في البداية من الضباط، والعلماء، والمهندسين ممن يتصلون من قريب أو من بعيد بالأدوات الحربية.

بدأ محمد علي باشا أولى محاولاته للنهوض بالصناعة الحربية في سنة ١٨١٥م على يد أحد الضباط الفرنسيين واسمه جونتار دي فينور، أمر بالبدء في تدريب فرقة من جنود ابنه إسماعيل باشا على النظام الجديد، وصارح الجنود بذلك بنفسه لمَّا ذهب إليهم في بولاق، وأعلن أن من يخالف التعليمات التي سيتلقاها سيعاقب على تمرده، اعترض بعض الجنود على ما يريده الباشا الوالي، فأصدر أوامره بطردهم على الفور ومصادرة كل ما لديهم، حتى ملابسهم التي على أجسادهم، حاول البعض منهم في حينها التصدي لما يُفعل به فقوبل من حراس محمد علي باشا والجنود التابعين له بالضرب.

غادر محمد علي باشا بولاق واتجه إلى شبرا، وبمجرد رحيله اجتمع الجنود معًا وتبادلوا عبارات الغضب التي كتموها بعد ما رأوا ما فُعل بأصحابهم، أبدى الجنود تذمرهم لأكابرهم من القادة، وانتهز بعض رؤسائهم هذا التذمر من الجنود في رغبة محمد علي تنفيذ نظام جديد عليهم، ودبروا مؤامرة لخلعه، فذهبوا إلى عابدين بك العائد من جزيرة العرب مع الحملة التي كانت هناك، وكان من رؤساء الأرناؤوط، واتفقوا معه أن يهاجموا محمد علي في قصره بالأزبكية في الفجر، استأذنهم عابدين بك قليلًا للقيام ببعض أشغاله الخاصة، وتركهم جالسين على الوليمة التي قدمها لهم، غيَّر من هيئته وخرج متخفيًا إلى الأزبكية، دخل على الباشا الذي أبدى استغرابه من هيئته في قصره، أفضى عابدين بك إليه بكل ما قيل ورُتب في جلسته مع المتآمرين، ورجع إلى أصحابه وهم لا يشعرون بخروجه أو عودته، أمر محمد علي بعض الجنود بمحاوطة القصر، واتخذ هو طريق الصعود إلى القلعة مع عساكر طاهر باشا، وفي الفجر

جاء المتأمرون وجنودهم، فقابلهم الجنود الذين يحاصرون القصر، أطلقوا عليهم الرصاص، ومنعوهم من دخول القصر، مات منهم عدد لا بأس به، فتراجعوا وعادوا متخذين الطريق إلى القلعة وتجمعوا بالرميلة وقرميدان، انتشروا في الأسواق واعتدوا على الناس وبضائعهم وأموالهم، فلم يجد محمد علي باشا بد من التراجع عن قراره بتفيذ النظام الجديد على الجيش؛ لأن وضعه الحالي لا يسمح بدخول معركة مع جنود متمردين في وسط العاصمة، هادنهم لكنه أبدى استياءه من تمردهم، وأمر بتعويض التجار والناس عما افتعله الجنود في أسواقهم وأموالهم، وترك تقدير التعويض للسيد محمد المحروقي كبير التجار، وخلال الخمس سنوات التي تلت قام بتوزيع هؤلاء الجنود خارج حدود العاصمة لتشتيت جمعهم، قام بتوزيعهم على الثغور في دمياط ورشيد، والبلاد على فرعي النيل، وحتى لا يثير ريبتهم أرسل معهم قادة من أبنائه مثل إسماعيل باشا وطوسون باشا الذي توفي وسطهم جوار رشيد.

أعاد محمد علي باشا في سنة ١٨٢٠م محاولاته لتحديث نظام الجيش، وأبدى نيته في إقامة مدرسة حربية، ولم يجد مانعًا من استحضار ضباط ومعلمين أوربيين على علم بأساليب وأنظمة الجيوش الحديثة لتعليم صفوفه، وكانت البداية من خلال الكولونيل الفرنسي سيفيز Seves- سليمان باشا الفرنساوي فيما بعد، فرنسي الأصل وُلد في ليون، قاتل في صفوف الجيش الفرنسي تحت إمرة نابليون حتى بلغ رتبة الكولونيل، ثم خرج من الجندية وعمل بالزراعة والتجارة، وفي يوم طلب من صديقه الكونت سيجور أن يسعى إليه لدى أحد شاة العجم أن يعهد إليه بتدريب جيشه، فنصحه بالقدوم إلى مصر، فجاء وقابل محمد

علي باشا الذي أعجب به وبحديثه الذي وجده متوافقًا مع رغباته فعهد إليه بإعادة تنظيم الجيش المصري على النظام الحديث.

قدم للكولونيل خمسمائة فرد من مماليكه الخاصين، وطلب من رجاله أن يفعلوا بالمثل، وذهب بهم إلى أسوان بعيدًا عن الأعين، حتى لا يثير الضيق والهياج في نفوس الضباط القدامى الكبار حين يروا كولونيل فرنسي يدرب الجيش بدلًا منهم، وحتى يكون الجنود بعيدين عن أماكن اللهو في المحروسة، في تلك الفترة جمع محمد علي باشا كل الأطفال المتشردين في شوارع مصر كلها، وكان عددهم ما يقرب من ثلاثمائة ألف متشرد، وأرسلهم إلى معسكر في عهدة الكولونيل سيفيز، ليتعلموا القراءة والكتابة واللغة الفرنسية، والحرف اليدوية.

أنشأ بأسوان أربع ثكنات فسيحة لإقامتهم، على بعد ثلثي ساعة من قصر وبستان محمد بك لاظ أوغلي، وأمدها بكل ما تحتاجه من الأدوات، لقي الكولونيل صعوبات جمة في تدريب هؤلاء المماليك الذين اعتادوا على عدم النظام والصخب والتمرد من آن لآخر، ولم يعتادوا من أساليب الحرب غير المواجهة بالكر والفر، غير أن تدريبهم من قِبل ضابط أوروبي مسيحي كان أمرًا جديدًا عليهم وغير محبب، فكانت نفوسهم تعاودهم بالرغبة في التمرد وتدبير المؤمرات والتخلص من الضابط الأوروبي، فأطلق أحد العساكر ذات مرة طلقة من الرصاص ناحية الكولونيل وهو يمرنهم، لكنها انحرفت قليلًا ومرت جوار أذنه حتى سمع صفيرها، لم يتزعزع في وقفته ولم يضطرب، بل وقف رابط الجأش واستمر في عمله وأمرهم بإعادة إطلاق النار، وفي مرة هدده بعضهم بالقتل، فطلب منهم أن يبارزوه واحدًا تلو الآخر،

فإن قتلوه كان قتلًا شريفًا في مبارزة، لا قتل غدرٍ وخيانة، فكان لشجاعته في طلب القتال عمل السحر بينهم؛ لأن مقياسهم للجندي هو شجاعته في القتال وجرأته، صاروا بعد ذلك مع الوقت من أخلص أوليائه، لا يمنحوه إلا الطاعة والتقدير، استمر في تدريبهم ثلاث سنوات، واستمر على ذلك حتى تكوَّن من تلاميذه الهيئات الأولى للضباط.

كان يصحب الكولونيل خلال التدريبات أحيانًا إبراهيم باشا فساعد ذلك على حمل المتدربين على الطاعة واتباع النظام الجديد، أما الذين تعلموا وتغيرت حياتهم من المتشردين احتفظ محمد علي باشا بالنوابغ منهم، وأرسل الباقين فيما بعد كخبراء للمناطق التابعة له التي تفتقر لتلك الحرف، وأنشأ لهم المواني حتى يستطيعوا أن يتواصلوا بإنتاجهم مع الدول المطلة على المتوسط لصالح مصر.

حَمْلُ المصريين على التجنيد الإجباري كان أمرًا يصعب تنفيذه؛ لأن المصريين لم يعتادوا على التجنيد في عهود المماليك السابقة، فخشي محمد علي باشا أن يثوروا عليه عندما يجدون أن التجنيد الإجباري عبئًا جديدًا قد أضيف للضرائب المفروضة عليهم، أو معه تقل الأعداد التي تقوم بالزراعة فيقل الإنتاج، ولم يكن محمد علي باشا يريد تجنيد أرناؤوط أو عثمانيين في الجيش الجديد، فشرع في تجنيد السودانيين من سكان كردفان وسنار، فجاءه إسماعيل باشا وصهره الدفتردار بحوالي عشرين ألفًا من السودانيين، تدربوا في بني عدي بالقرب من منفلوط على أيدي الضباط الذين تخرجوا من مدرسة أسوان الحربية، لكن عددًا كبيرًا من هؤلاء الجنود مات لضعف بنيتهم، وعدم قدرتهم على التكيف مع جو البلاد والتدريبات، غير أنهم لم يتحملوا أعباء

الجندية، فأعاد محمد علي باشا فكرة تجنيد مصريين، وهي ما كانت تصادف هواه من البداية، وأنشأ ثكنات جديدة لتدريبهم في فرشوط.

ورغم ما لقيه من نفور الفلاحين المصريين وسخطهم من فكرة تجنيدهم الإجبارية، إلا أنه لم يتراجع عن تنفيذها مرة أخرى، فليس هناك بديل عن دفاع المصريين عن أراضيهم ودولتهم بأنفسهم، انتظم الفلاحون في البداية في الجندية مكرهين، وسيقوا إلى المعسكرات بعد القبض عليهم من قِبل الحكومة بالقوة غصبًا، كان البعض يحاول التهرب بإصابة أنفسهم بإعاقات، فعمد كثير إلى قطع سبابته، فيصبح ناقصًا ولا يصلح للجندية، وآخرون كانوا يضعون سُمًّا كان مخصصًا للفئران في أعينهم، فيصابون بعمى مؤقت، اكتشف القائمون على التجنيد هذا، وأخبروا الوالي، فأمر بالقبض على الأمهات التي يساعدن أبناءهن في إعاقة أنفسهم، وطلب من رجاله جمع كل قاطعي سبابتهم أو من أصاب نفسه بعاهة، ليستخدمهم في أورطة خاصة للمعاقين، حتى اعتاد الناس على التجنيد الإجباري، ومنهم من وجدها أحسن حالًا من معيشتهم السابقة في القرى، فالزي العسكري ومظهره جعلهم أكثر رقيًّا، والطعام أفضل، فكانوا يأكلون بأمر الوالي رزًا مفلفلًا، ولحمًا محمرًا ثلاث مرات في الإسبوع، وهذا ما لم يكن يناله أي منهم في داره وسط أهله، مع الوقت زال عنهم شعورهم السابق بالضعف والمهانة الذي غرسه في نفوسهم العثمانيون والمماليك من قبل، فباتوا يفتخرون بكونهم من جنود محمد علي باشا ومن وضعهم الجديد، يقابلون غطرسة العثمانيين بمثلها، ويرفضون مناداتهم بالفلاحين بعد أن صاروا جنودًا.

مع بداية يناير من عام ١٨٢٣ اكتملت ست كتائب من الجيش النظامي، أو كما يسمونها الأوُرطة، وبعد عام آخر من التدريبات المكثفة، نزل الأورط النظامية إلى القاهرة، وقام بضعة آلاف من المشاة بكامل أسلحتهم وعدتهم وعتادهم، بمناورات حربية في الخانكة أمام الوالي، وهم يرتدون صديري، وسروالًا واسعًا مربوطًا على الوسط، ومتمنطقين بحزام وعلى رأسهم طربوش أحمر، ويتميز الضباط عن الجنود بالتطريز الذي يزين زيهم ذا اللون الأحمر، ابتهج محمد علي باشا بنجاح مسعاه، ووصوله لما أراد وخطط له طوال سنين مضت، وأمر بإنشاء معسكر عامٍّ للجيش النظامي الجديد في الخانكة، كان يحتوي من عشرين إلفٍ إلى خمسة وعشرين ألفٍ من الجنود النظاميين على الدوام، وبدأ بتكليفهم في الحروب، فبعث أول أورطاته إلى الحجاز، لإخماد الثورات التي تقوم من حين لآخر، والثانية إلى السودان، وأرسل الأربعة الأخرى إلى بلاد المورة لمحاربة اليونانيين تحت إمرة ابنه إبراهيم باشا.

اتسعت دائرة التجنيد بعد ذلك، واستجلب محمد علي باشا ضباطًا فرنسيين جدد ليعاونوه في تنظيم الجيش، وبدأت تتكون طوائف من الضباط المصريين على أيديهم، أرسل منهم طائفة لإتمام تعليمهم الحربي في أوروبا، ثم عادوا ليحلوا محل المعلمين الأجانب، وأصبح هناك مدارس حربية عدة غير الموجودة في أسوان وفرشوط، فأنشأ غيرها في النخيلة وأخرى في جرجا، حتى أنه أنشأ مدرسة تجهيزية للتعليم الحربي بقصر العيني، قوامها نحو خمسمائة طالب، نقلها بعد فترة إلى أبي زعبل بعد أن خُصص قصر العيني لمدرسة الطب، حيث كانوا في

تلك المدرسة التجهيزية يتم إعدادهم لدخول المدارس الحربية والبحرية، ثم للمدارس العليا من بعدها.

بعد عودة إبراهيم باشا من حرب المورة، حدث والده عن نظام الخيالة الفرنسيين الذي شاهده، وأشار عليه بتشكيل فرق خيالة، فأعجب محمد علي باشا بالفكرة، وأرسل يستدعي معلمين من أوروبا للتدريس في المدرسة الحربية للفرسان التي أنشأها بالجيزة في قصر مراد بك، تولى تنظيمها مسيو فارين Varin، وارتدى الطلبة فيها زيًّا مطابقًا لزي الفرسان الفرنسيين ما عدا القبعة، فكانوا يلبسون في الشتاء صديري أزرق اللون، وبعضهم يرتديه أحمر، وفي الصيف يرتدي رجال الجيش كلهم ملابس بيضاء من قماش القطن السميك، بينما في الشتاء قماش الجوخ.

اتبعت المدرسة نفس نظام مدرسة سويمور Saumur الحربية الموجودة بفرنسا، وطور المدرسة الحربية الموجودة في الخانكة وجعلها على أحدث النظم، وجعلها لتنظيم وتدريب فرق المشاة، وجعل في طرة مدرسة حربية للطوبجية تحت إدارة الأسباني الميرلاي الدون أنطونيو دي سيجرا Seguera، ثم اقترح عليه عثمان نور الدين باشا ذات يوم أن يُنشئ مدرسة أركان حرب بالخانكة بالقرب من المعسكر العام للجيش، ففعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٢٠ -

في طريق العودة وهن على ظهر الحمير قالت مريم:

- أنا لم أزر الحسين من قبل أن يأتي رمضان بفترة، لا بد أن أذهب اليوم قبل أن أُعاود الرجوع للبيت، ما رأيك أن تأتى معي؟

دُهشت إليصابات من قول مريم؛ لأنها تعرف أنه من الصعب جدًّا أن يدخل الجامع مسيحي قبطي أو حتى غير قبطي، فردت في دهشة:

- وكيف أدخل؟

ردت مريم في بساطة:

- ستدخلين معي وكأنك مسلمة ولن يشك أحد في أمرك.

فكرت قليلًا في الأمر، فأحست أن عندها من الشغف لاستكشاف أماكن لم تدخلها من قبل، وتعد من المحرمات عليها زيارتها في هذا البلد، لكنها تعرف أنه إذا صادف وحدث شك في أمرها أو عرفها أحدهم أو إحداهن، أو لم تبد كالمسلمات في تصرفاتها فسوف تتعرض لشر طردة، ويكال لها اللوم والإهانة وربما الضرب أيضًا، فرغم أن ملامحها الصعيدية السمراء لا تبدو قبطية ظاهرة كسائر الأقباط التي تكون ملامحهم القبطية جلية، إلا أن الأقباط في الغالب يعرفون من طريقة سيرهم، فهم في وجوم شبه دائم وخوف واكتئاب ملازم كأن الحزن لا ينفك عنهم، البعض يظن أن ظهورهم بهذا المظهر، نتيجة الشدة المراعاة في تربيتهم والطرق والأساليب المتبعة في قيامهم بفروض دينهم، وأن سبب وجوم ملامحهم هو أنهم تربوا ونشأوا على الالتزام بتعاليم الكنيسة القبطية، التي

تُعرف أنها كنيسة ذات اتجاه نسكي، صلواتها طويلة وأصوامها كثير، لكن هذا الوجوم هو من الضيق الذي يحيا فيه الأقباط في ظل الأحداث الطائفية التي تحدث بين الفينة والفينة، فأورثتهم وجوهًا محفورة بالوجوم نتيجة ما يتعرضون له من اعتداء من بعض الجهلاء المسلمين، أو المدعين بتشددهم أنهم ينظفون البلاد ويطهرونها، من المسيحيين الكفرة الأنجاس.

حتى قديمًا في أحداث المظاهرات ضد الفرنساوية أيام الحملة الفرنسية، كان بعض الناس يستغل الهرج والمرج السائر في البلاد، ويعتدي على بيوت الأقباط المسيحيين وينهب أموالهم، باعتبارهم على نفس ملة الفرنساوية، وأن أموالهم وديارهم مستباحة وحلٌّ لهم، سواء كانوا مسيحيين أقباط أو أرمن، وذلك رغم أن من المسيحيين من كان يقف جوارهم في صفوف المقاومة، لكن الجهل والعمى كان متفشيًا بين بعضهم، وإلى وقت قريب كان يُفرض على المسيحيين أن يرتدوا أزياء معينة كانت قد فُرضت عليهم من قِبل السلطنة العثمانية بغرض الاستهزاء بهم أو تمييزهم عن المسلمين، كانوا مرغمين على ارتداء أزياء زرقاء وسوداء، وعدم لبس العمائم البيضاء، فكانوا يسيرون في الطرقات كما لو كانوا موصومين بعار نتيجة اختيارهم لدينهم، بل كانوا ممنوعين حتى من ركوب البغال والخيول، لكن محمد علي باشا منع كل هذا بعد استقرار حكمة في الولاية.

تذكر إليصابات في أحد الأيام من عام ١٨١٤، أن تمردت حامية القاهرة في المحروسة، وهم الطبجية أو جنود المدفعية، فتخوف الناس وأغلقوا حوانيتهم، والتزموا ديارهم، كان عدد الطبجية ما يقرب من الأربعمائة عسكري، طالبوا بنفقات لهم

من الوالي فأمر لهم بخمسة وعشرين كيسًا قُسمت عليهم، فسكتوا وهدأوا قليلًا، يومها وكان يوم خميس نزل كتخدا بك عند جامع الغورية وجلس فيه وأمر أهل السوق بفتح حوانيتهم والجلوس فيها، فامتثلوا متخوفين، وقلوبهم وجلة، مع عدم الراحة والهدوء، وتوقعهم الشر والغدر من عسكر الطبجية، وتعدى السفهاء منهم في بعض الأحايين.

كان من المعتاد أثناء الاحتجاجات حدوث شغب وحوادث سرقة ونهب وتعدي على البيوت، وبيوت المسيحيين كانت المحطة الأولى والأكثر تعرضًا للهجوم عليها، بل وكثيرًا ما تعرض المسيحيون للقتل وسط كل ما يحدث من فوضى في المحروسة مع كل قلق، وكان الوالي يدرك ذلك، فسمح لهم في تلك المرة بحمل السلاح للدفاع عن حياتهم وأولادهم وأموالهم وديارهم، بل هو من أمدهم بالسلاح والبارود، وأمر أن يُتركوا ليفعلوا ما يريدون من تحصينات لحاراتهم ضد الاعتداءات الغوغائية المحتملة، فحصنوا مساكنهم ونواحيهم وحاراتهم وسدوا المنافذ وبنو كرانك واستعدوا بالأسلحة والبنادق.

قالت إليصابات بصوت يحمل رغبة دفينة بعد تردد وتفكير وصمت للحظات ترددت فيها في اتخاذ قرار في الأمر:

- طبعًا أنا أحب أن آتي معك وأشاهد الحسين من الداخل، ولكن ماذا سنفعل إن كشف أحدهم أمرى؟

ردت مريم في ثقة:

- اتركيها على الله لن يكشفك أحدٌ، لكن لو حدث شيءٌ ما دعيني أنا أتصرف واسكتي أنتِ.

فتمتمت محذرة:

- لا نريد أن نتأخر على البيت كذلك، هل جهزتي طعامًا لإفطاركم؟

ردت مريم في بساطة:

- جهزت بعض القنبيط قبل أن أخرج وسلقته، وحين أعود سأقليه في بعض الزيت حتى يكون ساخنًا ساعة المغرب.

وبالفعل أمرا من يسحب الحمير بتغيير اتجاهه، والتوجه ناحيه جامع الحسين، شعرت إليصابات بالتوتر لمّا وقف موكبهم الصغير أمام مسجد الحُسين الذي يعدُّ أقدس مساجد القاهرة، كان ممتلئًا بالنسوة اللائي حضرن إلى قبر الحسين في زيارتهن الأسبوعية على ما يبدو، فأغلب النسوة في المحروسة يداومن على زيارة الحسين أسبوعيًّا مهما كانت الظروف للتبرك بالمقام وصاحبه، كانت معرفتها بالطقوس قليلة أو معدومة لكنها تبعت مريم ومشت جوارها في خشوع، خلعتا نعليهما وحملت مريم هند لتخلع عنها نعلها أيضًا، كان في أقدامهن جوارب من الجلد المراكشي الناعم أصفر اللون، حملوا النعال معهما وتحركا داخل المسجد الذي يقع في الجهه الشمالية من الأزهر، والذي أعيد بناؤه أكثر من مرة من قبل، المنطقة الأمامية عبارة عن رواق أنيق ذي أعمدة عديدة تحمل السقف، والأرضية مغطاة بالسجاد كسائر المساجد، دخلن إلى المكان المدفون فيه رأس الحسين في أعماق أرضه، وهو عبارة عن قاعة مربعة تعلوها قبة، فوق البقعة التي دفن تحتها الأثر نصب مستطيل مغطى بقماش من الحرير الأخضر مطرز على أطرافه بعض الكتابات التي لم يستطعن قرأتها لجهلهن بالقراءة، يحيط بالضريح سياج مرتفع من البرونز المزخرف، وفي الجزء العلوي نماذج من الكتابات المنمقة، الأرض مرصوفة بالرخام النقي الصافي الذي

يتلألأ من شدة نظافته، حملت إليصابات هند على ذراعيها، ربما لتتوارى خلفها من أي شخص ربما يتعرف عليها، طُفن مع الزوار حول الضريح من اليسار إلى اليمين، كانت مريم وبقية الزوار يلمسون الضريح بيمناهم ويقبلونه بشفاههم ثم يضعونها على الجبين، مع تلاوة الفاتحة بصوت خفيض، حذت حذوهم في الحركات وهي تحرك شفتيها كأنها تتلو الفاتحة في خفوت، الكثير من الموجودين رجال ونساء تبدو عليهم التقوى الواضحة والإخلاص فيما يفعلون، حتى إن البعض كان يقبل السياج بورع وصدق في آن واحد، إليصابات شعرت حقيقةً بالخشوع والشجن من الجو المحيط بها فرددت في سرها بعض ما تحفظه سماعيًّا من ترانيم.

خرجن من الحسين واتجهن إلى الأزهر بعد ما طلبت هند وألحت عليهما حتى رضخت السيدتان لها، وطاوعاها في طلبها، ربما لأن الأزهر على مقربة من الحسين ولن يبتعدا كثيرًا، فهو في منتصف الطريق بين الشارع الرئيسي للمدينة وباب الغريب. الأزهر مسجد القاهرة الرئيسي وأول مسجد شُيد في المدينة، والكل يعدَّه جامعة الشرق، كثيرًا ما حدثت فيه عمليات ترميم وتوسيع، فقد شيد بعد ما يقرب من تسعة أشهر من بناء أول حائط للمدينة عام ٩٧٠م تقريبًا، ورغم أنه مبني على مساحة واسعة، إلا أن المنازل الكثيرة المحيطة به من الخارج تجعله لا يبدو بهذا الاتساع من الخارج، فمن ينظر إليه من الشارع الخارجي لا يرى سوى المآذن والمداخل، المسجد له بوابتان رئيسيتان وأربعة مداخل صغرى، ولكل بوابة رئيسية مدخلان ومن فوقهما حجرة للدرس مفتوحة من الأمام والخلف، وككل المساجد، الكل يخلع حذاءه قبل الدخول رغم أن هناك فناء

واسع بين البوابة الرئيسية ومكان الصلاة. البوابة الرئيسية في وسط واجهة المسجد، وهي أقرب المداخل من شارع المدينة الرئيسي، داخل هذه البوابة مباشرة وعلى جانبيها مسجدان صغيران، مررن من بينهما إلى الساحة الكبيرة المرصوفة بالأحجار والتي تحيط بها أروقة ذات أعمدة.

الرواق الرئيسي في مواجهة المدخل، والأروقة التي على الجوانب الثلاثة الأخرى مقسمة إلى عدد من الحجرات يسكن فيها الطلبة القادمون من أنحاء العالم أو من أقاليم مصر، تُفصل الأروقة عن بعضها وعن الساحة بحواجز خشبية تقام بين الأعمدة، وهي صغيرة في الجانب الذي به البوابة الرئيسية؛ إذ لا يوجد هناك سوى صف واحد من الأعمدة، كما يوجد بعض منها في الطابق العلوي أيضًا، ويخصص كل رواق لأبناء بلد معين.

تجولن في الأروقة، وهند تجري وتسبقهما ثم تعود لتدور حولهما، كانت سعيدة بالبراح الموجودة فيه، رغم أنها تخرج وتلعب كثيرًا مع أخواتها، إلا أن هذا المكان أثار البهجة والسعادة داخلها، رغم أنها لا تتذكره إلا قليلًا من زيارتها السابقة لمّا كانت أصغر بعام أو أكثر قليلًا حين جاءت مع أبيها وأخواتها ذات مرة، كن يرون أجناسًا مختلفة من حولهما، من مكة، والمدينة، ومن سوريا، مسلمين من وسط إفريقيا، أو مغاربة من مواطني شمالها، كما كان هناك عثمانيون وفرس ومسلمون من الهند.

على يسار الساحة الكبرى ساحة أصغر فيها حوض كبير من الماء للوضوء، الرواق الكبير واسع جدًّا ومغلق بحواجز خشبية بين صف الأعمدة الأمامية، جدران الرواق مطلية بالكلس الأبيض، أما المحراب والمنبر كانا في غاية البساطة دون تكلف، والأرض مغطاة بالحصر رغم وجود بعض السجاد هنا أو هناك.

كان هناك بعض الحلقات من المستمعين حول المعلمين الساندين إلى الأعمدة، ينصتون بانتباه وتركيز شديدين لما يُتلى عليهم من تفسير للقرآن وشرح لأمور الدين المختلفة، ولكل معلم عمود خاص به يؤم حوله تلاميذه.

بعد أن انتهوا عاودن طريقهن ممتطيات الحمير من جديد، هند سعدت بلعبها وجريها داخل ساحة الجامع الأزهر، لكن إليصابات ربما كانت أسعد منها وهي تشعر بالفخر؛ لأنها تمتعت بميزة الدخول والتجول في المسجدين الأشهر في المحروسة رغم القيود التي تقابل المسيحي وخصوصًا سيدة مسيحية لدخول هذه المساجد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٢١ -

لم ينس محمد علي باشا الصناعات الحربية، فقد بدأ إنشاءها في القلعة مع بداية التطوير الذي بدأه في الجيش؛ لأنه رأى أن الاعتماد على جلب السلاح من الخارج يعرض قوته للخطر ويجعل الجيش والبلاد تحت رحمة الدول الأجنبية، فكان إنشاء دار صناعة القلعة أو ترسانة القلعة.

تولى أدهم بك - باشا فيما بعد - إدارة المهمات الحربية، وأسس دار صناعة ترسانة القلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع، وكان قد جاء من الأستانة واستوطن المحروسة في عهد حكم محمد علي باشا، احتوت دار صناعة القلعة على أقسام خاصة بتصنيع المعدات الحربية والعتاد الحربي والمهمات الخاصة بالجيش، فكان بها أقسام خاصة لصنع زناد البنادق والسيوف والرماح وحقائب الجنود وحمائل السيوف إلى جانب الآلات التي كان يستخدمها البلطجية - حاملو البلط، واللغمجية - ناسفو الألغام، وغيرهم، بالإضافة إلى وجود أقسام خاصة لحُلي الخيل من اللجم والسروج والأبازيم وقِرب الماء وأطقم الخيل والجلود المدبوغة وحدوات الخيل، وأقسام خاصة للمدافع وعجلات عربات المدافع، كما كان بها مصنع متسع لعمل صناديق البارود ومواسير البنادق، ومصنع آخر لصنع الألواح النحاسية المستخدمة في تجهيز السفن يحتوي على آلة بخارية شديدة الضغط كانت قوتها تعادل عشرين حصانًا، كان يوجد بدار صناعة القلعة الطوبخانة أو دار صناعة المدافع وكانت موجودة عند باب الينكجرية الإنكشارية، وهي لسبك المدافع وعملها وقياساتها وقذائف المدافع وارتفاعها ومقاديرها، كان مصنع المدافع مصنعًا مستقلًا به أقسام عدة؛ قسم صب المدافع أو

مسبك المدافع، وقسم صهر المعادن، وقسم عمل عربات المدافع ولوازمها، وقسم لصنع عجلات المدافع ولوازمها، كان يصنع به أربعة مدافع كل شهر وزنها يتراوح ما بين أربعة إلى ثمانية أرطال، كما كان يصب في المصنع المدافع الهاون التي كانت تستخدم في القلاع والحصون إلى جانب مدافع كان يبلغ قطرها أربع وعشرون بوصة، بعد ذلك أنشأ محمد علي باشا في الحوض المرصود معملًا لصنع البنادق تحت إدارة الإيطالي مارنجو، رغم أن المصنع في بدايته كان معدًّا للنسيج، عمل فيه ألف ومائتا رجل تقريبًا، ينتجون في الشهر ما يقرب من ستمائة بندقية أو أكثر على الطراز الفرنسي، كما أن كل أمور قيادة الجيش، وإدارة شئونه، والصناعات الحربية، أنشأ لها محمد علي باشا نظارة خاصة تعرف بديوان الجهادية.

وفي يوم بينما كان العمل يدور في القلعة والورش والمصانع، كخلية نحل كبيرة، كل فرد فيها مكلف بمهمة محددة، ينفذها بإتقان، اشتعلت النيران..

لم يعرف أحد مصدرها أو كيف اشتعلت، لكنها انتشرت في سرعة لم يكن لأحد قِبل بمواجهتها، تجمع العاملون وحاولوا إطفاءها وإنقاذ المصابين وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من وجه النيران، لكن النيران كانت كاسحة انتشرت في سرعة متزايدة، حتى امتدت إلى مخزن البارود، بعد محاولات كثيرة من كل الموجودين من منعها، فروا من أمام المخزن بعد ما يئسوا من محاولتهم في قطع طريق النيران إليه، انفجر المخزن انفجارًا كبيرًا، دمر أكثر من خمسين بيتًا من البيوت المجاورة للقلعة، ومات جراء النيران والانفجار وتدمير البيوت نحو أربع آلاف ما بين رجال ونساء وأطفال.

أصلح محمد علي باشا القلعة على الفور بعد انتهاء الحريق، وشحنها بالمدافع، وبنى بالقرب منها قلعة أخرى على ذروة المقطم تشرف على الأولى - قلعة محمد علي، كما أصلح القلاع الموجودة بالإسكندرية، وعهد بتحصين سواحل مصر وتأمين استحكاماتها، لمهندس حربي في فن الاستحكامات استقدمه من أوروبا، يسمى المسيو جليس Galice، وأنعم عليه بالبكاوية.

كان قد شرع في بناء أسطول بحري مصري يمخر عباب البحار، في ترسانة بولاق، حين كان يجهز للحملة الوهابية، ولم ينقطع عن العمل فيها بعدها، بل تابع فيها بناء المراكب الصغيرة والكبيرة من السفن التجارية التي استخدمتها الحكومة لنقل المتاجر والمهمات على النيل وعلى شواطئ البحر المتوسط، واستمر العمل والإنشاء في الترسخانة، فأصبحت مليئة بالملاحين والمباشرين والكتاب والأمناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد، لكن محمد علي كان يدرك أن هذه مجرد سفن عامة أو ناقلة للجنود، لكنه كان يطمع في سفن حربية؛ لأنه يدرك أن قوة مصر لن تكون كافية للدفاع وبسط نفوذها في الخارج إلا إذا كان لها على ظهر البحار أسطول حربي قوي، فبدأ في إنشاء الدونمة المصرية بشراء بعض السفن الحربية أو طلبة إنشائها في ثغور مرسيليا، وليفورن، وتريستا، وسلحها بالمدافع، وولى عليها قباطين من الإسكندريين والعثمانيين، أما ملاحوها ونوتيتها كانوا متطوعين، ووظف ضباطًا فرنسيين وإيطاليين لتعليم البحارة وتدريبهم.

كان بالإسكندرية ترسانة على الطراز القديم تبنى فيها بعض السفن، عبارة عن مظلات من الخشب في مكان قريب من البحر، عهد برئاسة الهندسة فيها إلى شاكر أفندي الإسكندري،

يعاونه مهندس سكندري من الأهلين يسمى الحاج عمر، وهو من مشاهير المعلمين في فن بناء السفن، عينه محمد علي رئيسًا للإنشاء وعمارة السفن، ووظف الحاج أحمد أغا لمناظرة بناء السفن، الأخبار انتشرت في الدول الأوربية أن محمد علي يستجلب الخبراء والموظفين الأوربيين في بناء جيشه وتطوير موانيه وبناء أسطولة، فحضر المسيو بيسون Besson، وهو قبطان فرنسي من ضباط السفن الحربية الفرنسية، إلى مصر يعرض خدماته، كما حضر الكولونيل سيفز من قبله، فجعله محمد علي باشا ملاحظًا للسفن التي أمر بصنعها في ترسانات أوروبا، نال ثقة محمد علي وترقى إلى رتبة البكوية فصار يعرف بالفيس أميرال بيسون بك.

تكونت الدونمة المصرية الأولى في البحر المتوسط، وأُنشئت إدارة خاصة للأساطيل المصرية على رئاستها صهر الوالي، محرم بك مع احتفاظه بعمله السابق كمحافظ للإسكندرية، لكن هذه الدونمة ما لبثت أن دُمرت وقُضي عليها في موقعة نافارين، أيام حرب المورة، ورغم حزن محمد علي باشا على ضياع أسطوله غدرًا في المعركة، إلا أنه عزم على إنشاء أسطول جديد يعوض الأسطول الذي خسرته مصر، وشرع في تكوينه من السفن الحربية التي كان أمر بصنعها في الثغور الأوروبية.

بعدها بدأ في تأسيس ترسانة كبرى بالإسكندرية لبناء السفن الحربية، مستعينًا بمهندس بحري فرنسي يدعى المسيو سيرزي Cerisy، من ثغر طولون، مشهود له بالكفاءة والخبرة في فنون البحرية، خاصة في فن بناء السفن والأحواض والترسانات، كان قد عهد إليه من قبل إنشاء سفينتين حربيتين في مرسيليا، فأرسل إليه محمد علي باشا يعرض عليه أن يحضر إلى مصر ليستعين

به في تجهيز وإعداد وإعادة إحياء البحرية المصرية، فوافق، وحضر إلى مصر في أبريل ١٨٢٩، ولم يكن في الميناء سوى البقية الباقية من العمارة المصرية التي نجت من واقعة نافارين، فرقاطة بها ستون مدفعًا كانت أُنشئت بثغر البندقية، وأخرى كانت أُنشئت في ثغر ليفورن، وجملة سفن من طراز الكورفيت والإبريق، كانت هذه السفن مفتقرة إلى مهمات القتال ومعداته؛ لأنها أُنشئت في ثغور تجارية لا حربية، فجهزها المسيو سيرزي بجهازها وأنشأ فيها مخازن للبارود لتكون صالحة للقتال، ثم وضع تصميمًا لترسانة كبرى بناء على طلب محمد علي باشا، ولم يكن بالإسكندرية حينها سوى الترسانة القديمة التي كانت تصلح أن تكون نواة لبناء الجديدة، وقد بنيت في تلك الترسانة سفينة من طراز الكورفيت، وأخرى من طراز الإبريق، وثالثة ذات حجم كبير حولت فيما بعد إلى فرقاطة، ساعده في إنشائها الحاج عمر.

حفر بضعة آلاف من الجند أساس المباني، واشتروا بعض الأماكن على الشاطئ من أصحابها وألحقوها بمشروع الترسانة، واستُجلِب النجارون، والحدادون، والقلافطة، والسباكون، والميكانيكيون، والشبان من شتى أنحاء القطر المصري للعمل في إتمام الترسانة والأعمال البحرية، تم تدريبهم على يد المسيو سريزي والحاج عمر، وتخرج منهم الأونباشية، والجاويشية، والضباط، اكتمل بناء الترسانة في عام ١٨٣١، وأصبح فيها معهد لتعليم المصريين بناء السفن وترميمها وإصلاح آلاتها وميكنتها، أنعم محمد علي باشا على المسيو سريزي بالبكوية بعد إتمامها، وجعله باشمهندس الترسانة، ثم رقاه إلى رتبة لواء فيما بعد.

كان يعمل الكثير من القبط المسيحيين في الميناء، فأعفاهم محمد علي باشا من دفع الجزية، وأصدر مرسومًا بذلك، مع إعفاء الأقباط الذين يؤخذون للجهادية لكونهم يؤدون مصالح الميري ومن اللزوم رعايتهم ورفاهيتهم.

شُيدت في الترسانة الجديدة العديد والعديد من السفن والفرقاطات والبوارج الحربية، مثل البارجتان مصر وعكا وهما بحجم السفن الفرنسية ذات الثلاثة أسطح المعروفة في ذلك العصر، السطح الأول لكل منهما يحمل ٣٢ مدفعًا طويلًا من عيار ٣٠، والسطحان الآخران يحملان ٦٨ مدفعًا قصيرًا من نفس العيار.

كتب كلوت بك في كتابه بيانًا عن السفن التي أُنشئت أو رممت فيه، ذُكر في آخره:

«من المستطاع التحقق بأن قسما عظيمًا من التنسيقات والترتيبات المرعية في بناية السفن الحربية الفرنسية وجدت في السفن التي أُنشئت بالقطر المصري قبل وجودها في فرنسا بزمان طويل، أي إن ترسانة الإسكندرية سبقت ترسانات فرنسا إلى الوسائل الحديثة في بناء السفن».

ولما ظهر استعمال البخار أمر محمد علي باشا دار الصناعة بإنشاء سفن حربية بخارية فصنعت بواخر عدة تعمل بالبخار، منها وابور النيل وأسيوط ورشيد وجيلان التي خصصها لحمل البريد وجعل لها إدارة خاصة سماها القومبانية المصرية، وجعل هناك سفن عديدة للنقل لها إدارة خاصة تولى رئاستها محمد قرافيش قبودان ثم خلفه محمد راشد بك ثم خلفه أوزون أحمد قبودان.

السفن التي كان يتم إنشاؤها تقام لها حفلات ضخمة ابتهاجًا بنزولها إلى البحر كالحفلات التي تقيمها الحكومات الأوروبية في ثغورها الحربية بمناسبات إنشاء البوارج الجديدة، حضر محمد علي باشا بنفسه معظم هذه الحفلات تقديرًا لها وإعلاء لشأن الأسطول، وكان يُنشر بجريدة الوقائع المصرية أخبار هذه الحفلات، فكُتب في وصف إحدى الحفلات:

«إن الغليون ذا الهيئة السنية، المحلى باسم الإسكندرية، تعريف إنشاء آلاته البهية وعمل أدواته الحربية، ووصف أبعاده الثلاثية، قد تقدم ذكره الشائع، واندرج في سلك السطور والوقائع، والمراد ذكره الآن قطع حبال تعلقاته من القطر البحري، ليطير بأجنحته العنقاء إلى العالم البحري، وقد وافق هذا غرة شعبان المعظم في الساعة الرابعة من النهار؛ حيث تجلت مشاهد الأنوار، وكان ذلك بحضرة جميع الأمراء والعظماء، وزمرة الصلحاء والعلماء، وقناصل الدول المستأمنين، وقاطبة الأهلين، مع جملة أولادهم الكبار، وعيالهم الصغار، وكانوا لدى ساحة الترسانة الواسعة الأرجاء، منتشرين كنجوم السماء، وأما سعادة أفندينا ولي النعم فإنه ركب الفلك بحرًا، وهلم جرا، واستصحب بمعيته أحد رجال الدولة العَلية، المأمور بتشريف الديار المصرية، أعني به مصطفى أفندي نظيف، حتى وضع لدى موضع الترسانة قدمه الشريف، وكان الغليون إذ ذاك قد بادر إلى قطع أكثر العلائق، ووداع الخلائق، بحضور المهندس الذي هو لكل منبقة حاوٍ، الخواجة سريزي الفرنساوي، فتقدم المومأ إليه لدى ساحة مكارم ولي النعم، وأشار إلى أن هذا هو وقت الدعاء من زمرة العلماء، فتقدموا إلى جهة الغليون الراسي كالطود

المتين، ولدى دعائهم قال الحاضرون آمين، فتلا حينئذ لسان حال الغليون، عمَّ يتساءلون.

ثم نبذ باقي العلائق، وأنشد بمحضر الخلائق.

لست أخشى عسف الرياح إذا ما بِنتُ من ساحل ووسَّطت بحرًا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد انقضاء أيام العيد، وفي ساعة عصاري هادئة، مرت السيدة حفيظة على السيدة مريم في بيتها، تدعوها لحفل طهور ابنها عبدالرحمن الذي قرر والده طهوره بعد أن أتم عامين ونصف العام تقريبًا، السيدة حفيظة صديقتها منذ الصغر وكانت جارتها في بيت أبيها قبل الزواج، وبعد أن تزوج كلاهما لم تنقطع صداقتهما، وواظبا على تبادل الزيارات خصوصًا في المناسبات، الولدان خرجا من قبل الضحى إلى والدهما بالورشة، وهند تلعب أمام البيت لعبة الحجلة مع صديقاتها من بنات جيرانها، قابلتها مريم بالترحاب والتهليل ودعتها للراحة في غرفة الجلوس، قامت بإعداد صينية القهوة بما عليها من سبرتاية وإناء زجاجي مليء بالماء، لزوم إعداد فنجانين من القهوة المعتبرة، ترحيبًا بالضيفة وللاسترخاء قليلًا، فالقهوة رغم أنها لا تتناولها كثيرًا إلا أنها تعتبرها من الأمور المحببة لنفسها، والتي تجلب عليها الطمأنينة وهدوء النفس، رغم أن أغلب الأهالي يخشون منها ويدَّعون في رهبة: «إنها تصبغ الكبد بلون القهوة وتسبب الضرر له»، مُلئت الكنكة النحاسية بالماء، بعد أن وضعت فيها البن اليمني، الذي اشتراه السيد محمود من أحد التجار اليمنيين العرب، بعد أن طحنته في مطحنتها النحاسية، والتي هي من الأشياء الأساسية في كل بيت تقريبًا، كذلك المحمصة التي كانت تصنع من الحديد أو النحاس وتستخدم في تقليب حبوب البن أثناء تحميصها على النار ولا يوجد منزل يخلو منهما على الإطلاق إلا فيما ندر.

التحويجة المخصوصة تشتريها بنفسها من سوق العطارين وتخلطها في البيت مع البن؛ لذلك يكون فنجان القهوة محبشًا

بأفضل النكهات التحويجية، لكنها تترك قليلًا منه دون تحويجه، تحسبًا إن جاءهم زائر يفضل القهوة دون تحويجها، كما يفعل السيد إبراهيم مرقص وزوجته السيدة إليصابات.

صبت القهوة في كوب صغير وناولته للسيدة حفيظة التي تناولته في يدها البيضاء الممتلئة لحمًا وأساورَ ذهبية تجلجل معطية صوت جرس مثير وهي تقول:

- تذكرين ما حكيتيه لي من قبل عن أن بعض الشيوخ كانوا يفتون بأن القهوة حرام؟

ردت السيدة مريم مبتسمة وهي تصب قهوتها والدخان يتصاعد منها:

- نعم كان الناس ينكرونها كأنها خمر، سمعت ذلك من أبي وأنا صغيرة، حتى أفتى بشرعيتها مفتي السلطان العثماني وصاروا يطلقون عليها القهوة التركي رغم أنها عربية الأصل من اليمن.

تابعت كلامها وهي تطفئ السبرتاية بوضع الغطاء النحاسي على اللهب:

- لقد كان الطلبة اليمنيون أول من أتى لنا بالبن معهم وهم قادمون للدراسة في الجامع الأزهر، وسرت بين الطلاب وانتشرت بعدها خارج الجامع بين الناس العادية.

لم يكن من الغريب على السيدة مريم أن تعرف هذه الحكايات، فوالدها حكى لها ذلك حين كانت طفلة، فقد كان والد أبيها وجدُّ مريم طالبًا في الأزهر حين بدأ شرب القهوة في رواق الطلبة المغتربين من أهل اليمن؛ حيث كان يرتشف بعض صوفيي اليمن أكواب صغيرة من القهوة لتساعدهم على الدراسة والسهر والذكر، وشيئًا فشيئًا انتشر أمر القهوة بين دارسي الأزهر

الشريف، ومن هنا كان ميلاد دخول مشروب القهوة إلى مصر في العقد الأول من القرن السادس عشر، أخبرها أبوها عن جدها أن القهوة في البداية قوبلت بمعارضة شديدة من قبل رجال الدين والطبقات المتشددة، فقد قام أحد فقهاء المذهب الشافعي وهو الفقيه أحمد بن عبد الحق السنباطي بحملة عنيفة ضد المشروب الجديد عندما طرح عليه أحد السائلين سؤالًا حول شرب القهوة، وطلب فتوى منه بإدلاء رأيه الديني عن المشروب الذي يدعى قهوة، والذي يزعم بعضهم أنه مباح رغم ما ينجم عنه من نتائج وعواقب فاسدة؟ فأفتى بتحريمها وبالتالي عارضها المجتمع بشدة، فقول أحد المشايخ بتحريمها يجعل الناس تثور عليها وعلى صاحبها وبائعها، كثورتهم على الخمر وشاربها وحاملها، استمرت معاداة القهوة ومحاولات تحريمها بضراوة، حتى إن أحد الأئمة الموالين للفقيه أحمد السنباطي خطب خطبة مخصوصة عن القهوة أدت إلى هياج شعبي عنيف ضده. عدوى التحريم أصابت عموم القاهرة، حين هاجم فقيه متشدد آخر القهوة ومن يشربونها على المنابر وهو ما دفع المستمعين له لتحطيم المقاهي لتعيش القاهرة حالات شغب جديدة من أجل القهوة.

وفي نهاية عامهم الهجري صدرت فتوى أخرى مفاجئة بالقاهرة في مطلع شعبان تقضي بمنع المنكرات والمسكرات والمحرمات، وبغلق أبواب الحانات والخانات، ومنع استعمال القهوة والتجاهر بشربها، وهدم كوانينها وكسر أوانيها، ولتنفيذ هذا الحكم قام العسس بتفتيش بيوت تجارها وبائعيها تفتيشًا شديدًا، وضربوا الأبواب وهدموا البيوت وكسروا أوانيها، تدَّخل تجار البذور والبن ومنتجو القهوة والبائعون وأرسلوا وفدًا إلى

الشيخ أحمد السنباطي يطلبون منه الرجوع عن الفتوى، فكان رده:

- ما دامت القهوة تؤثر في العقل إيجابًا أو سلبًا فهي حرام شرعًا..!!

لأجل ذلك نشبت معركة حامية الوطيس بين مؤيدي الشيخ وفتواه وبين التجار ومؤيديهم من البائعين ومن بعض شاربيها، مات على إثرها أحد مؤيدي التجار، فهرب الشيخ ومؤيدوه إلى أحد المساجد، فحاصرهم التجار داخل المسجد من كل جانب وجاءهم خبر وفاة رجل ثان منهم، وخبر بعدها يؤكد أن هناك آخر مصاب إصابة بالغة ربما يلحق على أثرها بصاحبيه، وبالفعل توفي الشاب وأُصيب أهله بصدمة عندما علموا بموته، قرر التجار حينها الاستمرار في محاصرة الشيخ ومؤيدي فتوى القهوة حرام شرعًا في مسجدهم، جاء أهالي القتلى واشتركوا في الحصار، وبقدوم الليل أرسلوا أحدهم لإحضار بطاطين وعمل صوان بأعمدة لتقيهم البرد، ونكاية في مؤيدي الفتوى وشيوخها ومفتيها، قام التجار ووزعوا قهوة بدون سكر على الموجودين كلهم.

دام حصارهم للمسجد ثلاثة أيام، مع استمرار حالة الفوضى والشغب حتى وصل أمر الاضطرابات لأمر السلطان العثماني مراد، الذي قام بتعيين مفتي جديد، أصدر فتوى جديدة بعدم حرمة شرب القهوة، اعتبر التجار ومؤيدو شرعية شرب القهوة أن هذا التغيير انتصارٌ لهم، ولأرواح شهداء القهوة، ومن يومها انتشر شرب القهوة السادة في العزاءات والمآتم، ثم انتقلت هذه العادة من حدث إلى عادة عند أهالي تجار البن في القاهرة ومنها

إلى كبار الأعيان، ومنها إلى باقي أقاليم مصر، فكان كل ميت يقام له صيوان ويشرب المعزون فيه القهوة السادة.

رشفت السيدة حفيظة من فنجانها ومَدحت في جودته وإعداده بقولها:

- سلمت يداكِ يا أم علي.

سألتها السيدة مريم عن اللفات التي تحملها معها، فأجابت:

- اشتريت الجبة الخضراء لابني الذي سنطاهره، عريس ما شاء الله، وكذلك قمصان رمش العين الخفيفة.

بانت ملامح الابتهاج على السيدة مريم وهي ترد مهنئة:

- مبروك يا ست حفيظة، يحفظه لكِ وتفرحي به وتزوجيه وتفرحي بعدله إن شاء الله.

شكرتها في عمق وردت:

- عقبى لهند حين تطاهرينها، متى تنوي ذلك بمشيئة الله.

ترددت مريم قليلًا في الكلام وهي ترتشف في بطء رشفات من فنجانها، ثم أجابت في صوت خفيض كما لو أن هناك ثالث يجوارهما:

- بيني وبينك لا أنوي أن أُطاهرها.

لطمت حفيظة على صدرها صارخة:

- يا لهوي، يا عيب الشوم، ليه كده ألف بعد الشر عنها، أنت ترضيها!! تبقى كده ولا كده لمّا تكبر؟!!

وضعت مريم فنجانها على المنضدة التي تتوسط غرفة الجلوس وهي تهمس:

- وطي صوتك يا حفيظة، أنا لم أكن أنوي أن أقول لأحد أبدًا، لكن ها أنا ذا أخبرك، من يوم أن حضرت طهور البنت سعدية - رحمها الله - بنت الست رئيفة والحاج حسين الشابوري، ورأيتها وهي تخرج صارخة من الغرفة بعد أن تكالبت عليها النساء في عملية طهورها، تجري ونصفها الأسفل غارق في الدماء ودموعها يا حبة عيني تملأ وجهها وتبلل صدرها.

أغمضت عينيها في قوة، تريد أن تطرد تلك اللحظة من مخيلتها ومن ذاكرتها:

- لن أنسى هذا المنظر ما حييت.

رفعت حفيظة حاجبيها متعجبة وهي تضع فنجانها من يدها وتلطم مرة أخرى على صدرها باليد الأخرى:

- هي البنت سعدية ماتت بسبب طهورها؟!!

أجابت مريم في حزن وأسى:

- نعم، لقد ظلت تنزف طيلة الليل وماتت قبل أن يصبح عليها الصباح، ومن يومها وأنا أخشى على هند، وربنا يستر علينا وعلى كل بناتنا.. أمين يا رب.

قالت السيدة حفيظة في قلق:

- لكن هذا لن يكون طيبًا للبنت، من الممكن أن يفلت عيارها لمّا تكبر.

ردت مريم في سرعة وهي تخمس وتحرك يدها في حركة دائرية حول رأسها وأصابعها مفرودة وأطرافها مضمومة جنبًا إلى جنب:

- ألف بعد الشر عن بنتي، وربنا يستر عليها وعلى بناتنا كلنا ويحفظهم من كل شر، ربنا يستر.

هزت حفيظة كتفيها ونطقت متراجعة:

- أنت أدرى بصالح بنتك، ربنا يخليها لكِ.

- الله يخليكي يا ست حفيظة.

ثم همست في رجاء:

- لكن لا تذكري أي سيرة عما قلته لكي الآن لأي مخلوق مهما كان، سأقول إنني قد طاهرتها في السر عند إحدى قريباتنا، فأنت أدرى بعوايدنا نطاهر البنات سرًا دون جلبة.

أجابت في صوت هامس إلى حد ما وهي تربت على ساق السيدة مريم:

- لا تخافي سرك في بئر، ويمكن يكون عندك حق، فأنا حتى اليوم ما زلت أذكر يوم أن طاهرتني أمى، وقتها كانت الخالة أمينة القابلة الداية من طاهرتني، وقامت بتكتيفي من يدي كلٌّ من أمي وخالتي، والخالة أمينة كشفت ملابسي عن عورتي وأنا أصرخ وأبكي، ولم أجد من يغيثني.

تنهدت في ألم من ذكرياتها وهي تتابع:

- ظللت أسابيع راقدة بعدها في السرير خائفة ومرتعبة مما حدث، هذا غير الألم الذي كاد يقتلني، كان يومًا أسودَ بالفعل، ظللت بعدها لا أتكلم ولا آكل فترة طويلة وأمي تطعمني بالقوة، كنت حتى أشرب بالكاد ما يكفيني، فلم يكن لي نفس حينها للطعام أو الشراب، ربنا لا يُعديها أيام.

بعد أيام ذهبت أم هند واصطحبت معها جارتها إليصابات وتركت ابنتها هند مع أخوتها في البيت، العادة لدى الناس المرور

بالملابس في جميع أنحاء البلدة كإعلان عن الطهور، تم النداء في جميع الدواريب بكلمة: «امشوا على العريس».

رُفعت الجبة الخضراء في عصا طويلة أثناء المرور بزفة من الكبار والصبيان منادين بكلمة امشوا على العريس، وتم عمل زيارات للمطَّاهر إلى المشايخ الشيخ إدريس والشيخ عامر، في الليلة التي سبقتها وهي ليلة الحناء، كأنه عريس يتزوج فعلًا، تم تجهيز الذبيحة وأقاموا مولدًا في هذه الليلة كأنه فرح تمامًا، وحضر الحفل الشخص الذي يقوم بعملية الطهور وهو الحلاق عبد الرزاق وهذا الطقس يسمونه الخلافة، بدأت الخلافة بكلمة «خلف الله عليك يا عبدالرحمن نقطت العريس بالبركة وخلافة خير»، وأثناء الخلافة حلق عبد الرزاق شعر بعض الصبيان الصغار، ونُقِّط الصبي بما تيسر للمهنئين من المال، وكانت المبالغ زهيدة من الريالات الفضية، وبعد انتهاء الخلافة بدأ الاحتفال بالمولد..

المهرجون من إحدى أساليب الاحتفال، يسلون الحاضرين بألعابهم الهزلية المضحكة، يجذبون المستمعين والمشاهدين حولهم أينما ذهبوا، وأعمالهم غالبًا مزاح سوقي وأعمال خارجة للتسلية، رغم ذلك يستحسنها المشاهدون وتنال التصفيق، والمهرجون كلهم من الرجال والأولاد حتى دور المرأة يؤديه رجل، وتم استخدام فناء البيت الأمامي كمسرح على إحدى جانبيه ساتر يحجب خلفه ملابسهم، كما اهتم أبو عبد الرحمن بإحضار الأراجوز رغم أنه يتم تمثيله بالتركي إلا أنه يثير الضحك في نفوس الكبار قبل الأطفال بحركاته وأصواته التي يفتعلها، في آخر الليل قدموا الأدوار بطريقة مسرح الظل، وهذا العرض لاقى

إقبال حتى من الناس المارين في الشارع من غير المعزومين، لكن في هذه المناسبات اعتبروا أن الدعوة عامة.

في صباح اليوم التالي -يوم الطهارة– اجتمع الناس كما لو كانت صباحية زفاف وقام عبدالرزاق بعملية الطهور بعد ما ألبسوا الصبي الجبة الخضراء، بعدها حُمل الصبي عبدالرحمن في زفة كبرى طافت الدروب حتى الجامع الكبير، ثم عادوا بعد الزفة ووضع في ضليلة، ومكث بالشارع أمام المنزل حتى المساء، وكل مساء حتى اليوم الثالث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٢٣ -

رغم مرور سنوات على مذبحة القلعة ظلت زوجة محمد علي باشا السيدة أمينة هانم ممتنعة عنه، تحدثه بجفاء، رغم تكراره المحاولات ليجعلها تصفح عنه بعد أن أعلن ندمه الشديد على ما فعل، وأنه لو عادت به الدنيا من جديد، فلن يُقدم على هذا الفعل أبدًا، إلا أنها أبت وظلت على عنادها، رغم يقينها من حبه الشديد لها، حتى إنها قالت له ذات مرة:

- إن ما فعلته أقل ما يوصف به هو البشاعة، سيأتي يومٌ يصفك فيه الناس بالجزار أو قاطع الرؤوس أو سفاح المماليك، كيف تريدني أن أصفو لك وأنا أرى يديك ملوثة بالدماء وأخشى أن تلوثني بها معك.

في كل مرة يغادر حجرتها ممتقع الوجه، غاضبًا من أقوالها، لكنه يعود بعد فترة يحاول إرضاءها، إكرامًا لها، ولأبيها علي باشا المعروف بمصرلي، وهو من أهالي قرية نصرتلي، ولأنها أم أولاده، إبراهيم باشا، وأحمد طوسون باشا، وإسماعيل كامل باشا - الذي قُتل حرقًا في مؤامرة أعدها له الملك نمر ملك شندي عام ١٨٢٢، ردًا على إهانة وجهها له إسماعيل من قبل توبيخًا له على مهاجمة أهالي شندي لقوافل الرقيق المتجهة لمصر، والأميرة توحيدة هانم، والأميرة نازلي هانم، أما زوجته الثانية ماه دوران هانم أو قمش قادين لم يرزق منها بأولاد، ولديه إحدى عشر جارية -ما ملكته يمينه، رزق من بعضهن البنين والبنات، أم نعمان رزق منها الأمير نعمان بك، عين حياة قادين رزق منها محمد سعيد باشا، ممتاز قادين رزق منها الأمير حسين بك، ماهوش قادين رزق منها الأمير علي صديق بك، نام شاز قادين رزق منها الأمير محمد عبد الحليم، زيبة خديجة قادين رزق

منها الأمير محمد علي باشا الصغير، شمس صفا قادين رزق منها بنتان الأميرة فاطمة هانم، والأميرة رقية هانم، شمع نور قادين وقد رزق منها الأميرة زينب هانم، أما نايلة قادين، وكلفدان قادين، وقمر قادين لم يرزق منهن بأولاد.

حظي أولاده بفرصة للتعليم مبكرًا لم تُتح له في صغره، فمحمد علي باشا لم يتعلم القرأة والكتابة إلا في سن الخامسة والأربعين، اعتمد على أبنائه في كثير من الأمور، فنجد أنه أوكل قيادة الحملة الوهابية الأولى لطوسون باشا، رغم أنه لم يكن قد أكمل عامه الثامن عشر حينئذ، وأرسل الهدايا والأموال للأستانة مع إبراهيم باشا وهو في أوائل العشرينيات من عمره، وحُجز هناك فترة، وبعد عودته، قاد الجيوش المصرية في أغلب معاركة، بدايةً من حملته للقضاء على الوهابيين، ثم الحملة على السودان ومن بعدها الحملة في حرب المورة على اليونان، وهو من أنشأ المبرة المصرية أو ما يُطلق عليها التكية المصرية بالحجاز في المدينة المنورة ومكة وجدة؛ حيث كان يتم توزيع الأرز والخبز فيها على الفقراء في جزيرة العرب، كما رفع الضرائب عن الكنائس وعن الرهبان المسيحيين في القدس ونابلس بعدما فتح الشام، واستصدر فرمان جاء فيه إلغاء جميع أنواع الضرائب التي تُجبى من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس، من يونانيين، وفرنجة، وأقباط، وأرمن، وغيرهم، حتى الهدية العادية منها إلى خزينة الباشوات أو لمصلحة القضاة ألغاها، وأعلن عن عقوبة لمن يخالف هذا الفرمان، وكل من يطلب إتاوة من المعابد والأديرة المذكورة أو من الحجاج إليها.

رغم هذا هو من أنهى حياة المعلم غالي بطلقة من غدارته - في آخر عهد محمد علي؛ لأنه عارضه في فكرة فرض الضرائب على

النخيل، ثم طلب عرض الأمر على محمد علي باشا ليفصل في الأمر؛ لأنه شعر بإهانة لعدم امتثال المعلم غالي لأوامره وطلبه لتأكيد الأمر من والده، كأي طفل صغير، فأخرج مسدسه وأطلق الرصاص على المعلم غالي الذي سقط صريعًا على الفور، ولم يجرؤ أحد على دفن الجثة التي ظلت ملقاة في الخلاء بالقصر في زفتى لمدة يومين، إلا بعد أن استأذن رزق أغا حاكم الشرقية في دفنها، وتمت الصلاة على جثمانه بكنيسة أبي سيفين بزفتى ثم دفن بجوارها.

بعدها دعى الباشا الوالي محمد علي، باسيليوس ابن المعلم غالي، لتطييب خاطره، ومداوة بعض ما يشعر به بعد قتل والده، وقد كان يذكره منذ أن كان صبيًّا لما حضر معه والده إلى القصر، وهو بعد صبيٌّ، وأخذ القلنسوة من فوق رأسه، وسأله مداعبًا:

- إذا بعتها فمن يشتريها مني وبِكَم؟

فرد الصبي حينها:

- أنا المشتري وأدفع ألف كيس ثمنًا لها.

استغرب حينها منه وسأله متعجبًا:

- أتساوي قلنسوتك كل هذا المبلغ؟

فأجاب:

- القلنسوة التي يكون محمد علي باشا دلالها تقدَّر بأكثر من هذا.

فلما دخل باسيليوس على محمد علي باشا، نهض يستقبله، ووساه ببعض الكلمات، لكن باسيليوس أجاب على الوالي بأن

أبيه حي ما دام الباشا الوالي ولي النعم حيًّا، فأَعجب به محمد علي وبحديثه، مرة أخرى وهو كبير، وأسند إليه وظيفة رئيس المحاسبة وأنعم عليه برتبة بك، وهو أول من مُنِح هذه الرتبة من الأقباط المسيحيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٤-

تعودت مريم كل بضعة أيام الذهاب إلى منزل إليصابات كما تقول: «لتنفك معها بأي كلمتين»، تصطحب هند والولدين معها، يلعبوا مع أبانوب في منزله، وتجلس هي وإليصابات يشربا القهوة دون التحويجة كما تفضلها إليصابات، يعدانها أثنا جلستهما وحديثهما على نار هادئة في المشربية، تابعا موكب عُرس يمر من شارعهما، والعروس ملتفة بشالٍ حريري أبيض تحت ظُلة من الحرير، وعلى جانبيها امرأتان، والأهل يعبرون عن فرحتهم بالعُرس بأداء حركات راقصة بهلوانية، غير الأطفال الذين يثيرون الهرجلة في آخر الزفة، والعروس تكاد تختنق من ملابسها والسير تحت وهج شمس الظهيرة الحارقة على قدميها قادمة من مسافة طويلة، وما زال أمامها طريق ليس بقصير، وهي في حالة أقرب للإغماء من شدة تعبها، بعض الآلاتية يدقون الطبول وينفخون المزامير حادة الصوت، فتنبعث أصوات متضادة في غير تجانس ليس لها صلة بالموسيقى، والنساء المرافقات يجاملن بإطلاق الزغاريد النشاز لتصم بها الآذان، وجاملتهن مريم، وإليصابات، والنساء من جيرانهن بالزغاريد العالية المتواصلة دون حتى أن يعرفن من هي العروس.

أحيانًا ما تنضم لهما في جلستهما جارة أو أكثر من أصدقائهما، وتتسع دائرة حديثهما ربما عن أخبار النساء في شارعهما والشوارع المجاورة، أحيانًا يشتكون من مشاكلهن مع أزواجهن، وأحيانًا من المعيشة وأحوال المحروسة، يشتكون لبعضهن من غلاء الأسعار أو يتناقشون في طريقة كل واحدة منهن في الطبخ، كل فتره كانوا يستقدمون إحدى العرافات من الغجر، من جوار المحروسة حيث يقيم هناك قبائل عدة صغيرة من الغجر يعمل

كثير من نسائهم عرافات، غالبًا ما يلبسن بطريقة مشابهة لعامة النساء من الطبقات الدنيا، ويلففن حول رأسهن الطرحة، بوجوه غير محجبة، يحملن قربة من جلد الغزال تحتوي على موادهم وأدوتهم الخاصة بالعرافة، كالودع وقليل من الزجاج الملون، يرددن قول: «نفتح البخت! ونبين الحاضر والغائب!»، وأحيانًا ما يقوم هؤلاء النسوة بدق الوشم أو بعمليات الطهور.

على سطح البيت جلس الأطفال يتابعون بشغف الزفة التي تمر وهم يصفقون مع الأصوات المنبعثة من الطبل والمزامير، وبعد أن مرت اجتمعوا في غرفة أبانوب يستمعون إلى حكايته عمَّا سمعه من حكايات إحدى النساء مع أمه عن بيت الحمامي المهجور المجاور لبيتهم.

البيت له شهرة واسعة في المنطقة، منذ سنوات عدة في أيام وجود حملة الفرنساوية في البلاد، سكن فيه أحد التجار بمفرده في البداية، ثم بعد فترة أتى بجارية حبشية، أو كانوا يعتقدونها كذلك بسبب لون بشرتها الأسود، عاشت معه بالبيت، تساعدها أحيانًا في الأعمال المنزلية خادمة، لكن لم تكن تقضي الليل بالمنزل، تأتي صباحًا تنهي عملها وتعود إلى بيتها في المساء ولا تبيت.

الحبشية أتى بها من إحدى سفرياته التي كانت أحيانًا ما تطول لأشهر عدة يترك فيها البيت مهجورًا، يسدد أجرة البيت لأشهر عدة مقدمًا حتى لا يضطر صاحبه لعرضه للإيجار أثناء غيابه.

حين كان يعود لم يكن أحدٌ يشعر بعودته إلا إذا قامت الجارية بفتح نوافذ المشربية، أو تنفيض مراتب الغرف والسجاد والحصائر على سطح البيت، لم تكن إقامته تطول، فلم يكد

يصل حتى يغلق البيت ويسافر مرة أخرى، دون أن يعلم أحدٌ أين كان يسافر أو فيما كان يتاجر، بعض الأقاويل كانت تتردد بين الناس أن سفرياته كانت لأدغال إفريقية، ومنها أتى بالحبشية التي لم تكن تتحدث مع أحد من الجيران، حتى ظنها الجيران صماء بكماء، لكن عرفوا أن هذا لم يكن صحيحًا، لما وجدوها تشير منادية للسقا، وسمعوها تحدثه بلسان عجيب لم يفهموا منها شيئًا، لكن الرغبة في مياه الشرب كانت لغة الإشارة معها تكفي السقا ليفهم ما تريده منه.

التاجر طوال فترة إقامته في بيت الحمامي لم يكن يظهر إلا قليلًا، لكن كثيرًا ما كان يصدر من خلف جدران البيت صخبًا في الليل، وربما بضع مرات سمعوا صريخًا يوقظ النائم من غفوته في منتصف ليل عميق.

في إحدى الليالي المشئومة، سمع الجيران صراخًا وصخبًا شديدًا، في البداية ظنوا أنه من ضمن طقوس الصخب التي تخرج من البيت أحيانًا، لكن الصراخ وقعه كان يتزايد، حتى أصبح كصوت شخص يستغيث، تجمع الجيران في الشارع أمام بيوتهم يتبادلون نظرات القلق والحيرة، تجرأ أحدهم رغم الصراخ المتزايد، واقترب في رعب ناحية باب البيت العريض ودق عليه في قوة وهو ينادي: «يا أهل الله.. ياللي هنا»، لم تكد حروف ندائه تنتهي حتى أُضِيء البيت بإضاءة شديدة انبعثت من مشربية الدور العلوي ومن حول إطار البيت، ارتفعت معها صرخة امرأة من الداخل تحمل خوف الدنيا والآخرة، صرخت النساء الواقفات أمام بيوتهن في فزع، وانزعج بعض الرجال وتراجعوا في خوف، ولم يتجرأ أحدٌ منهم على الدخول أو الدق مرة أخرى على الباب،

وبعد دقائق هدأت الأصوات واختفت الأضواء المتقطعة ذات الوهج الشديد المنبعثة من داخل البيت.

بات الكل ليلتهم في الشارع، وفي الصباح أتى عساكر الفرنساوية وأحد ضباطهم، بعد ما أُبلغوا بالأمر، دقوا الباب عدة مرات فلم يجيبهم أحدٌ، اضطر العساكر لكسر الباب واقتحام البيت، وجدوا أثاث البيت كله مبعثر ومقلوب على الأرض، والدور العلوى أرضه محروقة كما لو كان قد أضرم أحدهم فيها النار ليلتها، وفي الحمام بالدور الأرضي وجدوا كثيرًا من الدماء المنثورة على الأرض والجدران، ولم يكن هناك أي أثر للمرأة الحبشية التي ظنوا الصراخ صراخها، ولم يجدوا التاجر أو أي شيء يدل على أنهم كانوا موجودين في البيت تلك الليلة، غير بعض من الملابس، والشهود الذين حضروا أحداث الليلة الماضية وسمعوا الأصوات والصريخ وشاهدوا الأنوار بأم أعينهم، أما بالداخل فلم يكن هناك مخرج آخر للبيت وبقية النوافذ كانت مغلقة على المشربيات من الداخل، ولم يكن للبيت فتحة سقف مفتوحة للسماء كمعظم بيوت المنطقة.

وقف الجيران والناس أمام البيت يقلبون كفوفهم بعضها فوق بعض من الحيرة، وانتشرت الأقاويل بين الناس، خيال أهالي المحروسة كفيل بخلق حكايات وروايات أكثر مما حدث بضع مرات، فمن سمع دقة نملة على الأرض حولها بقدرة قادر إلى ضربات اقتحام من جيش الفرنسيس على البلاد، من يومها والحكايات تتبادل وتنتقل بين الناس.

بعد أن تسلم صاحب البيت بيته من جديد من الفرنساوية، بعد أن عجزوا عن معرفة ما حدث أو إيجاد سببٍ مقنعٍ للأحداث والأضواء والاختفاء الغريب الذي حدث للتاجر وجاريته،

استدعى أحد الشيوخ بعد أن قام بتبخيره وتنظيفه من الدماء، قام الشيخ بقراءة القرآن وعلا صوته وهو يردد آيات بعينها وهو يقول:

- الحمد الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد وأصلي وأسلم على السراج المنير محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. «قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ، قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»، «قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

وبعد أن انتهى مما فعل ببضعة أيام عرضه للإيجار مرة أخرى، بعد يومين قام بتأجيره أحد الفرنساوية الذين أتوا مع الحملة الفرنسية وزوجته، اسمه رينوار وزوجته اسمها ماري، كان يرغب في التقرب من وسط العامة من المصريين والتعرف عليهم وعلى عاداتهم، فهو على حسب ما قاله صاحب البيت للجيران أنه يدوِّن تفاصيل الحياة اليومية للمصريين على أوراق ينوي أن يجعلها في كتاب في موطنه باريس.

بعد قضاء بضعة أيام اشتكى الخدم من أنهم لا يستطيعون النوم ليلًا بسبب الطرقات المتكررة التي تنبعث ليلًا دون أن ينجحوا في تحديد مصدرها، أو من أين جاءت، الأغرب أنهم ادعوا رؤية عفريت أو شبح يمر في رواق الدور الأرضي يخرج من الحمام

ويتمشى أمام غرفة نومهم، في صبيحة أحد الأيام قرر أحد الخدم الرحيل وترك العمل بسبب العفريت الذي يقضي ليلته في الحمام أو ماشيًا أمام باب غرفته بالدور الأرضي، سأله رينوار في تعجب بعربيته المكسرة:

- وهل رأيت حمامًا في الدنيا لا تسكنه العفاريت؟!!

ثم استطرد قائلًا:

- كان يجب عليك أن تتحلى بالشجاعة، لم لم تحاول الإمساك بمن كان يفعل ذلك ربما كان مقلبًا من شخص ما؟

نظر له الخادم في تعجب شديد من كلام رينوار وفغر فاه قليلًا وهو يحدق إلى رينوار في بلاهة قائلًا:

- يا أفندي أنا أقلك هذا عفرييييت!! وليس بني آدم، كما يبدو أنك تظن، لقد كانت هيئته تتغير باستمرار، ويتخذ أشكالًا خرافية عجيبة وغريبة.

بالطبع لم يقتنع الخادم بأي كلام أو تفسير لما رأى، ورحل، فهو طوال عمره يسمع عن العفاريت وحكاويها، لكن أن يرى أحدهم مرأى العين يتمشى أمام غرفته، أو يبيت الليل في الحمام المجاور له!! هذا لم يحدث معه من قبل، فماذا يفعل لو جاءت له رغبة في قضاء حاجته في الليل؟!.

في تلك الليلة بعد أن رحل الخادم، استيقظ رينوار على صوت يهمس جوار أذنه بكلمات ولغة لم يفهمها، كأنه يدعوه للاستيقاظ، نهض من نومه فزعًا، يتلفت حوله، فلم يجد شيئًا، نظر جواره فرأى ماري تغط في سبات عميق كطفل رضع وشبع من صدر أمه، خرج من الغرفة فلم يكن هناك أحدٌ، لكنه رأى الشبح الذي حكى عنه الخدم ينزل على السلم من الدور العلوي

حيث يقف متجهًا إلى الحمام مارًّا من أمام باب غرفة الخدم، تسمَّر رينوار في مكانه لوهلة، ثم عاد جريًا إلى السرير وتلحف بالغطاء.

كان تفسيره للأمر في البداية أن الخادم ربما شرب بعض الخمر أو تعاطى أفيونًا في الليل فجعل عقله يتهيأ للأفكار والهواجس التي تسكن عقله، والذي صور له الشبح والأصوات، لكنه الآن يرى، الآن يصدق ما قاله الخدم.

حاول أن يعود للنوم لكنه بقي مستيقظًا في السرير متأرقًا حتى فجر اليوم التالي، وفي الصباح نهض بعيون حمراء منتفخة بعد غفوات متقطعة، حكى لماري ما رأى، تعجبت من كلامه وقالت:

- ربما كنت تحلم بما رأيت، بت ليلتك تفكر في كلام الخادم، استيقظت من النوم ولم تفيق بعد، فتخيلت ما حدث كأنه حقيقي.

خلال الأربع ليال التالية، تكرر الأمر، يسمع صوتًا يهمس جوار أذنه، يستيقظ ويوقظ زوجته لترى معه الشبح، لكن لم يكن هناك أي شبح بالدور الأرضي أو على السلم، تنطق ناعسة والحروف تخرج من بين شفتيها في إرهاق ورغبة شديدة في العودة تحت الغطاء والنوم:

- كما قلت لك من قبل أنت تحلم؛ لأنك تشغل بالك بهذا الأمر، توقظني كل يوم ولا شيء في البيت.

بعد ثلاث أيام أخرى، أيقظها بعد أن سمع الهمس جوار أُذنه كالعادة، وقفت في ضيق والنوم يُثقل جفنيها تقول في سخط وضيق:

- أنت تعذبني بإيقاظي كل ليلة هكذا، سأثبت لك أنه ليس في هذا البيت أي شبح.

نزلت السلم في هدوء وضيق من إيقاظها اليومي كل ليلة، وهي تفرك عينيها، فتحت باب الحمام ثم صرخت صرخة شديدة في فزع بعد أن طار من عينيها النوم في لحظات، اتسعت حدقتاها في فزع وهي تحدق في الشبح الذي يقف داخل الحمام ينظر إليها، هرول إليها رينوار نازلًا على السلم قافزًا الدرجات وهي تتراجع بظهرها للخلف وما تزال تصرخ، ارتطمت به واستدارت تنظر إليه، صرخت مرة أخرى، ثم سقطت بين يديه فاقدة الوعي.

في الفجر غادروا البيت وانصرفوا، وأرسلوا في الصباح أشخاصًا عدة لينقلوا لهم ملابسهم وأدواتهم وأوراق رينوار وكتاباته، ماري لم تنتظر ولم تكن تحتمل الانتظار حتى بزوغ الشمس، حين أفاقت من إغماءتها نهضت مسرعة ترتدي ملابسها وتحمل ما هو ضروري في يديها وأرغمت رينوار على الرحيل في حينها، لن تنسى ما حيت وقفة الشبح أمامها ينظر إليها، ولم تتحدث مع زوجها مرة أخرى عن هذا الموضوع أبدًا.

صاحب البيت كان أمينًا، لم يكن يخبئ أمر الحادثة عمَّن يطلب استئجار البيت، فلما أتى له رجل متزوج حديثًا، أخبره بالأمر كله وما حدث للرجل الفرنسي، ابتسم الرجل واسمه سعدالله وقال:

- يا رجل، ما عفريت إلا بني آدم.

لكن مع ذلك قبل أن يسكن أتى سعدالله بقس يصلي في البيت، حينها فقط عرف أن سعدالله مسيحي.

في بداية الأمر قال القس لسعدالله واعظًا:

- المسيحيون المؤمنون هم بِقُوَّةِ اللهِ مَحْرُوسُونَ، بِإِيمَانٍ، لِخَلاَصٍ مُسْتَعَدٍّ أَنْ يُعْلَنَ فِي الزَّمَانِ الأَخِيرِ. ولماذا نحن محروسون بعيدًا عن الشيطان؟، لأَنَّهُ هُوَ سَلاَمُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاثْنَيْنِ وَاحِدًا، وَنَقَضَ حَائِطَ السِّيَاجِ الْمُتَوَسِّطَ .

ثم تابع القول وهو يحرك المبخرة التي يتصاعد منها البخار كما يتصاعد من فوهة بركان يوشك على الانفجار في حركات منتظمة، وهو يرش في نفس الوقت باليد الأخرى مياه مباركة على أرض البيت:

- اعتراف الإنسان بأنه خاطئ، ويحتاج ليد الله لترفع عنه البلاء؛ لأن المسيح أخرج الكثير من الشياطين، كذلك التلاميذ الأطهار والقديسين، فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس، فتعجب الجموع قائلين لم يظهر قط مثل هذا في إسرائيل، وباعترافنا بأنا نريد رحمة الله وتسليم القلب للمسيح معترفين له بكل خطايانا ليغفر لنا بقوة دم صليبه سيشفي كل ألم في الحال وكل عمل شيطاني في الحال، الرب يسوع المسيح قال بفمه المبارك لليهود لما أخرج الشيطان وقالو له ببعلزبول تخرج الشياطين فرد عليهم قائلًا: إن كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته، والآن الرب يقول لكل مسيحي مؤمن به من القلب: إله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعًا، نعمة ربنا يسوع المسيح معكم.. آمين، فلا قوة للشيطان علينا ولا لأعمال السحر لأننا محرسون بإيمان عظيم، نصلي باسم ربنا المعبود يسوع الذي أعطانا السلطان أن ندوس الحيَّات وكل قوات العدو أن يخرج الشيطان من هذا البيت وعلى مرأى ومسمع من الجميع بقوة دم المسيح.

وأتى بعدها إلى البيت مع عروسه، مرت الأيام طبيعية في البداية، فزاد اعتقاد سعد الله أن ما سمع من حكاوى صاحب البيت كانت مجرد خرافات ممن قبله، وظن صاحب البيت أن البيت أخيرًا قد خلا مما فيه من شرور، في صباح أول يوم من الأسبوع الثاني، قالت الخادمة وهي ترتجف من الفزع إنها لم تذق طعم النوم الليلة السابقة؛ لأن عفريتًا كان يطوف الدور الأول بالبيت طوال الليل ضاربًا الأرض بالقبقاب الذي يرتديه في قدميه، ثم طرق على باب غرفتها بقطعة من الحجر أو ربما شيء صلب كان معه، ثم تكررت الأصوات عدة ليال بعدها، وسمعها سعد الله وعروسه بعدها، كانت الدقات تبدأ في المساء يوميًّا بعد أن يدخلوا الفراش بقليل، حاول سعدالله أن يقوي من عزم عروسه لكنه خاف عليها بعدها من أن يصيبها أي أذى جسماني، أو ضرر بعد أن عثر في صباح أحد الأيام التالية على ست قطع من الفحم ملقاة أمام باب غرفة نومه، وهذا أمر يعرفه كل المصريين بأن الشر سيحل على أصحاب هذا البيت.

من يوم أن ترك سعدالله البيت ولم يقترب منه أحدٌ ليستأجره مرة أخرى، بل ربما لم يقترب من أمام الباب أو جدار البيت أحدهم بأقرب من مترين على الأقل، الكل يحاول الابتعاد بقدر الإمكان عن البيت وحدوده، ظل الناس طوال سنوات يرددون ويتناقلون بينهم الكلام والأقاويل، منهم من يقول إنه رأى عفريتًا أو شبحًا خلف المشربية، أو أحدهم سمع أصواتًا من الداخل وهو يمر، أو أحد جيران البيت سمع شيئًا ما، لكن لا أحد يعرف ما حدث وما يحدث بالضبط.

الفكرة جاءت من حسن، بعد أن انتهت حكاية أبانوب حين قال:

- ما رأيكم لو ندخل هذا البيت؟

بالطبع كانت هند أول المرحبات فقد وقفت على قدميها وهي تقفز لأعلى سعيدة بالفكره:

- نعم ندخل لنرى العفريت.

شحب وجه أبانوب وهو يغوص في مقعده:

- كنت أحكي لكم ما سمعت من أجل الحكاية، لا من أجل الدخول للبيت!!

أما علي فسكت وهو يدعك ذقنه بأصابعه مفكرًا، والبقية ينظرون إليه، حتى تساءل حسن:

- ما بك؟ هل أنت متردد؟

ثم حاول أن يقنعه بأن استفزه قائلًا:

- إذا كنت تخاف أن ...

فقاطعه علي وهو يضربه على رأسه ضربة خفيفة:

- لست جبانًا، ولا أخشى العفاريت، لكن ماذا لو علم أهلنا بدخولنا البيت.

نطقت هند بعد أن وقفت على الكرسي بقدميها لتصبح أطول منهم وهي ترفع يدها اليمنى بآخر ما تستطيع وهي تقفز عليه بخفة قفزات صغيرة:

- أنا لن أقل شيئًا.

ثم التفت الثلاثة مع بعضهم بنظرهم ناحية أبانوب الذي غاص أكثر في مقعده وانخفض صوته:

- أنا لن أقدر على قول أي كلمة، لكنهم سيعرفون، لا أدري كيف!! لكنهم سيعرفون، دائمًا يعرفون.

أمسك علي بيده يساعده على الوقوف ووضع كفه على كتفه:

- ما دمت لن تقولَ شيئًا فلن يعرف أحد من أهالينا بما نحن مقدمون عليه، فلن يتحدث أحد منا حتى هند.

قفزت هند من وقفتها على الكرسي على صدر علي وأحاطت رقبته بساعديها متعلقة فيها وهي تصرخ في سعادة وفرح كأنها ستذهب لرؤية زينة العيد:

- نعم، هيا بنا نرى العفريت.

همس حسن:

- شش، اخفضي صوتك حتى لا تسمعنا أمك، هيا، دعونا نتحرك إلى السطح.

تحرك الجمع صغير السن متجهين إلى سطح منزل أبانوب، المجاور لبيت الحمامي، البيتان متلاصقان تقريبًا، يفصل بينهما مسافة أقل من متر، على سطح بيت أبانوب عشش الفراخ التي تحركت مضطربة من الأطفال الذين اقتحموا عششهم، هناك بضع أقفاص معلقة على جدار غرفة صغيرة على سطح البيت، يعلو منها هديل الحمام الذي يراقب التحركات المتسللة ناحية سور البيت بعيون قلقة تتحرك في سرعة، أمسك حسن كف أبانوب المرتعشة، يساعده على التحرك للأمام في بطء، وعلي يحمل هند المتعلقة برقبته، وهي في أمتع لحظاتها، تشعر بلحظات المغامرة والشغف والترقب، حتى إنها شعرت بأنها تريد أن تقضي حاجتها، فحركت نفسها بين ذراعي علي وهي تقول:

- أنزلني، سأفعل شيئًا.

نزلت من على يد علي وهو يسألها:

- ماذا هناك؟!

جرت ناحية السلم لتهبط للدور الأول وهي تصرخ:

- سأذهب إلى الحمام، انتظروني هنا لن أتأخر.

خبط حسن بكفه على جبينه:

- الغبية، سيكشفون أمرنا.

جرت هند تنزل إلى الدور الأرضي على أمها، مالت بفمها على أذنيها وهي تضع كفها جوار شفتيها هامسة:

- أريد الذهاب إلى الحمام.

تراجعت مريم برأسها قائلة:

- وهل هذا وقته يا هند؟

وضعت هند يدها في وسطها متعجبة من سؤال أمها ومتسائلة في لماضة:

- وهل لهذا وقت معين، مزنوقة أعمل إيه؟!!!

ضحكت إليصابات بصوت عالٍ قائلة:

- البنت معها كل الحق يا مريم، أدخليها إلى الحمام، هل لهذا وقت معين.

نطقت هند وهي تعقد حاجبيها الطفوليين:

- قولي لها يا خالة عصابات.

جذبتها مريم من يدها وهي تنهض:

- هيا معي يا لمضة، من أين لكي بهذا الكلام وأنتي ما زلتي لم تخرجي من البيضة بعد.

رفعت يدها لتحملها أمها وهي تقول:

- أنا لست صغيرة، لكني لم أتعلم دخول الحمام وحدي بعد.

حملتها واحتضنتها بين ذراعيها:

- عليك أن تتعلمي ما دمتي لست صغيرة، أين أخواتك؟ ماذا يفعلون؟

نطقت بعد تردد دام ثوانٍ:

- على السطح ينتظروني لألعب معهم.

أشارت إليصابات لمريم:

- تعرفين طريقك، البيت بيتك.

البيوت في المنطقة لها نفس الطابع مع اختلاف الشكل والتقسيم الداخلي غالبًا، كلها مفتوحة السقف للسماء، غرفة الضيوف والطعام والمطبخ وغرفة التخزين بالدور الأول، والدور الثاني به غرف النوم وغرفة مفتوحة لها مشربية تطل على الشارع، وغالبية الناس يربون الدجاج والبط والحمام على السطح.

لا يختلف بيت السيد إبراهيم والسيدة إليصابات عن أي بيت آخر إلا ببضع تماثيل صغيرة للعذراء تحمل طفلها المسيح بين ذراعيها، في ردائها الأبيض وهي ترتدي وشاح سماوي اللون يغطيها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، وبضع رسومات لأيقونات مسيحية بيزنطية موضوعة هنا أو هناك، وصليب متوسط الحجم مصلوب عليه يسوع المسيح عاري الجسد إلا مما يستر عورته، على رأسه إكليل الشوك والدم منسال على

جبينه، عيناه تنظران إلى السماء متضرعة، تحمل آلام الدنيا وشقاءها.

عادت هند تجري صاعدةً على السلم لسطح البيت مرة أخرى، ودخلت مسرعة بصوت عالٍ تقول:

- لقد عدت.

فر الدجاج من حولها وفزع الحمام في عششه ورفرف بجناحيه في قوة، جرت فاردة ذراعيها كجناحين لملاك صغير تتعلق برقبة علي من جديد، الذي استقبلها وضمها برفق وحملها بين ذراعيه مستفسرًا:

- هل قلت شيئًا عما ننوي؟

أجابت في سرعة:

- لا ذهبت للحمام فقط وقلت لأمي إننا نلعب على السطح.

عدل خده ناحية فمها وقال:

- أعطني قبلة إذن.

طبعت على خده قبلة ورفعت يدها تشير إلى سطح البيت الآخر:

- هيا بنا نرى العفريت.

تمتم أبانوب بصوت منخفض:

- نحن ذاهبون لبيت مهجور به عفريت وليس مراجيح المولد.

تحركوا ناحية السور من جديد، بيت الحمامي كان منخفضًا عن بيت السيد إبراهيم بعدة سنتيمترات، صعد حسن السور أولًا وهبط على السطح المجاور، ناوله أبانوب قفصًا فارغًا وقف

عليه ثم تناول هند بين ذراعيه من علي، الذي ساعد أبانوب في قفز السور والهبوط على سطح بيت الحمامي ثم قفز هو بمفرده، تحركوا في بطء ناحية السلم ليهبطوا داخل البيت بعد أن حمل عليٌّ هند مرة أخرى، تحركوا في بطء وأوصال أبانوب ترتعش في خوف، بدأ الاضطراب والرهبة تبدو على حسن بعد أن انتقل إليه بعضٌ من خوف أبانوب من خلال يديهما الممسكتين ببعضهما، هبطوا في بطء على الدرج الذي يتصاعد منه صرير الخشب بعد أن تعب من طول سنين لم تطأه فيها قدم، تشبثت هند أكثر برقبة علي، وتمسَّك أبانوب بذراع حسن، الذي مد يده وأمسك في ملابس علي، الذي بدأت قدماه تتثاقلان به وبحمله، وهو يتقدم في خطوة ويود أن يتراجع ألفًا، لكن حماسة الطفولة والمراهقة المبكرة، جعلته يأبى أن يتراجع ويبدو جبانًا أمام أخويه وأبانوب.

وصلوا إلى الدور العلوى وتحركوا في بطء متقاربين، الإضاءة تبدو جيدة مع تسرب أشعة الشمس من المشربيات المطلة على الشارع الرئيسي، والتي تكسر أغلبها، لكن الظلام منتشر داخل الغرف المغلقة شبابيكها ومشرابياتها، خيوط العناكب انتشرت على الجدران، وتجمعت الأتربة والأوساخ على الأرض والدرابزين وأثاث البيت، رائحة غريبة تنبعث من بين جنباته، ربما الرطوبة التي سكنت خشب البيت أو ربما رائحة عطن نتيجة عدم تنظيف البيت وتهوية مراتبه منذ سنوات.

جدران البيت مطلية بالجير، الواضح أنه كان أبيضَ في يوم من الأيام، أما الآن فيبدو رماديًّا، من تراكم التراب عليه لسنوات مع آثار هباب من أثر الحريق الصغير الذي نشب يوم الأحداث وتحدث عنه الناس، الأرض تئن تحت أقدامهم الصغيرة، وهم

يتحركون في بطء شديد، وبضع فئران تهرول مختبئة من المتسللين الصغار، متسائلين من أتى بأحد من نسل بني آدم من جديد في هذا البيت؟

داخل الغرفة الكبيرة الواضح من حجمها أنها كانت لسيد الدار، رائحة الغبار الرطب ينضح من المكان، هناك سرير عريض بقوائم نحاسية عليها ناموسية مقطعة ومتسخة، القائمان الصغيران على طرف السرير من ناحية الأقدام، كلاهما على شكل رأس أسد، الغرفة بها مرآة شاحبة مقشرة ومنتشر عليها السواد، تبدو فيها الصور مشوهة، وهي مسندة إلى حامل خشبي بطول قامة الرجل العادي، هُيِء لهند أنها قد رأت انعكاسًا فيها لشخص ما يقف خلفهم، التفتت في سرعة وأنفاسها تعلو، فلم تجد أحدًا في الناحية الأخرى.

في الجانب الآخر من الغرفة دولاب يقف على أربع أقدام منقوشة ومزخرفة، طاله الزمن وبهت لونه وتقشر دهانه، والناحية الأخرى بها صندوق مما يستخدم كسحارة، عليه نقوش عربية غير مفهومة أو ربما زخرفة، فتح حسن غطاءه في بطء ليرى ما بداخله لكنهم لم يجدوا فيه إلا بقايا من أوراق متآكلة مهترئة ومصفرة، وبه الكثير من فضلات الفئران، بقية الغرفة فارغة إلا من سجادة قديمة تآكلت أطرافها ووسطها وامتلأت ثقوبًا غالبًا بفعل الفئران.

نزلوا على الدرج المشبع برائحة الخشب المتفسخ متجهين للدور الأرضي، ومع أولى خطواتهم الصغيرة وهو يئن ويتأوه من ثقلهم، من عدم استخدامه لسنوات، آثار أقدام الفئران تبدو واضحة على الأرض المفروشة بالتراب، غرفة الجلوس واستقبال الضيوف بالدور الأرضي بها كنبة واحدة وكرسي مكسورة قدماه،

ومائل على أحد جانبيه على الأرض، والوسادة التي كانت عليه مفتوحة كبطن بقرة تم ذبحها وخرجت أحشاؤها القطنية حولها، بدأ صوت أبانوب يخرج في ضعف كبطة مبحوحة:

- فلنكتفي بما فعلنا، دعونا نعود للبيت.

لم يرد عليه سوى أنفاسهم المنبعثة في رتابة ورهبة وهم يتقدمون في بطء ويتحركون بين الغرف الفارغة وطقطقة الأبواب تكسر الصمت حولهم وتثير رعبهم، نطقت هند وهي تلف ساعديها حول رقبة علي في قوة تحتمي به:

- لا يوجد هنا أي عفاريت.

هز علي رأسه وهو يقول:

- واضح أن الناس أطلقوا الإشاعات حول البيت ولا يوجد أي شيء هنا.

وما أن انتهى صدى كلمتة الأخيرة بين الجدران شبه الفارغة، حتى ارتفعت دقات منتظمة من ناحية الحمام، تصلب الجميع في أماكنهم واتسعت عيونهم، اهتزت مفاصل حسن في توتر ورعب، وأبانوب يلتصق به في قوة، وهند تكاد تعتصر رقبة علي وهي تهمس في خوف:

- هل سمعتم ما سمعت أم يهيأ لي؟

رد أبانوب في فزع ومفاصله ترتعش وأسنانه تصطك في سرعة ورعب:

- بل سمعنا جميعًا الدقات، قلت لكم نعود.

ارتفعت الدقات مرة أخرى مع صرير باب الحمام وهو يُفتح في بطء شديد، ليبدو جواره ظل باهت لشخص غير واضح يأتي من

خلفه نور يخفي ملامحه ولا يبدو منه إلا هيئته المعتمة، صرخت هند وصرخوا بعدها جميعًا وانطلقوا مهرولين يصعدون على السلم، مثيرين زوبعة تراب من حولهم إلى الدور العلوي، الذي مروا منه يجرون في فزع إلى السطح كأن شياطين الإنس والجن أجمعين تطاردهم، في لحظات قفز حسن وأبانوب على القفص متسلقين إلى سطح البيت الآخر، تناول حسن هند من يديها وتبعهم علي، جروا إلى الداخل ونزلوا السلم في سرعة، فنهضت إليصابات ومريم في فزع متسائلتين:

- ماذا حدث؟ ماذا هناك؟

صمت الأربعة أطفال فجأة، وتبادلوا النظرات دون أن ينطق أحدٌ منهم، فصرخت كلتا الأمين مرة أخرى متسائلتين عن سبب فزعهم وهرولتهم نزولًا على السلم، شعروا أن أمرهم سيفضح وسينتهي بعلقة محترمة لكل منهم، نطق علي قبل أن يتحدث أحد الباقين ويفشي سرهم فنطق متلعثمًا:

- لا شيء كنا نلعب ونطارد بعضنا.

زعقت فيه مريم:

- وهل هذا سببٌ لتصرخوا هكذا وتثيروا فزعنا؟!!

رد قائلًا بصوت غلبه التبرير:

- لقد رأت هند فأرًا، نعم فأرًا، وصرخت.. فاعتقدنا أن هناك شيء ما فصرخنا معها.

ردت هند مؤيدة:

- نعم نعم لقد رأيت فأرًا كان كبيرًا جدًّا وأفزعني بشدة.

لطمت إليصابات على صدرها صارخة:

- فأر كبير عندي هنا !! أين؟!

رد حسن في سرعة:

- لقد كان على السطح ربما كان قادمًا من الشارع.

أكد أبانوب على كلامه وهو يهز رأسه موافقةً للقول:

- نعم ولقد فر مرة أخرى للشارع.

نظرت الأمُّان في شك للأطفال وقالت مريم:

- شكلكم وكلامكم غير مريح، غير مريح على الإطلاق.

أجابت هند في سرعة كأنها تتعجب من أمر أمها:

- وهل سنكذب عليكم مثلًا؟!

ضحكت إليصابات قائلة:

- آه منك أنتي أيتها الصغيرة، هيا عودوا للعبكم ودعونا...

بترت جملتها، والتفتت ناحية الباب، بعد أن قاطعها من الخارج ارتفاع صوت مبيض النحاس الذي تعود أن يتجول في الأحياء وينادي لتأتيه النساء بالأوعية النحاسية التي جنزرت وبدت عليها بقع خضراء تدل على زوال مفعول طبقة القصدير التي تغطيها وتحمي ما يعيه من التفاعل مع النحاس، جرت إليصابات ناحية الباب لتنادي على مبيض النحاس وتبعتها مريم، التفت علي ليهمس في أذن أبانوب:

- إياك أن تخطئ بلسانك وتخبر أمك بما فعلنا.

هز رأسه أن نعم ولونه ما يزال مصفرًا خائفًا مما حدث.

عادت إليصابات وأخذت أوانيها النحاسية التي تحتاج إلى التبييض، واتجهت مريم إلى بيتها ثم عادت هي الأخرى تحمل

أوانيها، وضع مبيض النحاس حفنة من مسحوق ملحي خشن على سطح الوعاء ونظفه بقطعة خيش، ثم وضعها على نار لتحمى حرارتها، بعدها طلاه بالقصدير وهو يؤدي حركة صعبة متعبة، بلف جزعه في الاتجاهين بصورة متتالية، محاولًا أن يتناسى الحرارة المنبعثة من أسفل قدميه، بالمواويل والأغاني الشعبية بغنائه..

بصوا شوفوا فلاح مكسور ذليل متهان..

جوا حنك تمساح من سالف الأزمان..

يا من رماك دهرك من فم دا التمساح..

قول لي على أمرك وما وجعك يا صاح..

بعد أن انتهى مبيض النحاس من عمله، لململت مريم أوانيها بعد أن أصبحت لامعة تحت شمس ما بعد الظهيرة قائلة:

- سأعود للبيت لأبدأ في تجهيز الطعام حتى لا يأتي محمود ولا يجد طعامًا يأكله.

ردت إليصابات في رجاء:

- دعي الأطفال في لعبهم هنا معًا.

ردت مريم وهي تمد يدها تمسك بيد هند:

- حتى تتفرغي أنتي أيضًا للطبخ.

ثم التفتت لأبنائها:

- هيا بنا، لقد أثرتم فزعنا بما يكفي اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين يترك «علي» ورشة أبيه ورغم حداثة سنه، إلا أنه كان يعرج عن طريق عودته إلى البيت ليتفرج على الغوازي اللائي يرقصن في المناسبات في صحن أحد البيوت التي بها فرح أو ولادة أو حتى طهور، ورث الطبع من أبيه، ومعه حسن، فكثيرًا ما كان يجد حسن وأبانوب أيضًا في انتظاره في طريق عودته، ليخبراه عن فرح أو مناسبة في أحد البيوت، فيذهبون هناك، ويتلصصون من بعيد، أو يحاولون التسلل إلى أحد السطوح المجاورة أو سطح البيت نفسه، ليشاهدوا الغوازي من زاوية أقرب.

بعد مذبحة القلعة التي ارتكبها محمد علي باشا في المماليك، فرت الجواري من قصور المماليك، واختلطن بالغوازي، مما أدَّى إلى دمج أسلوبَي الرقص، رقص القصور ورقص الشوارع، رغم ذلك لم يكن يُسمح للراقصات أبدًا بدخول البيت أو أماكن الحريم المحترمة.

وفي عصر يوم بدا فيه نسمات برد الشتاء تقترب، أقيمت الإضاءات والزينة في بيت أحد أحفاد السلطان المملوكي القديم حسام الدين لاجين، ناحية بركة الأزبكية، التي ما تزال ممتلئة ببعض الماء بعد انتهاء موسم الفيضان، انتشرت أخبار الفرح الكبير المقام في المحروسة، رُصت أعلام صغيرة على قضبان يصل بينها حبال تتدلى منها مصابيح عديدة، وخصصت منصة لإطلاق الألعاب النارية من صواريخ ومفرقعات.

نصبت الخيام في الشريط الضيق بين حافة الماء والمنازل المحيطة لبيع الحلوى والقهوة وتوزيعها، أقيمت أراجيح للأطفال ودواميات، ازدحمت شواطئ البركة والطرقات المؤدية

إلى القصر بالناس طوال النهار، وازداد الزحام داخل القصر ذاته، الذي فُتح للضيوف والمعازيم، وعُلق في ساحته عشر نجفات تحت ظُلة من قماش الخيام الأحمر وخلافه، لتحمي المغنيين، والراقصين من حملة السيوف، وغيرهم من وهج الشمس أثناء النهار، المرطبات والحلوى تقدم من آن لآخر لكل الموجودين في خارج القصر، حتى وإن بدا عليهم أنهم من حقراء الناس غير المدعوين، أما الغرف الخاصة داخل القصر، خُصصت لأصدقاء الباشا صاحب القصر وضيوفه المقربين.

الاحتفال الرئيسي بدأ في المساء بعد أن انتهى علي وحسن من العمل في الورشة، والتقيا مع أبانوب بعد تناولهم الطعام في البيت، زاغ الأخان من هند التي بكت وصرخت لرغبتها في الذهاب معهما، لكن السيدة مريم خشيت عليها من الزحام هناك، «علي» وافقها؛ لأنه يريد أن يتحرك بخفة دون حمل أخته، تحركوا ناحيه شاطئ البركة، شاهدوا الألعاب النارية وسط الازدحام الشديد، جذب علي حسن، وأبانوب ناحيته، وأمسكهما في يديه، حتى لا يغيبا عن نظره، أو يتوها منه وسط الزحام، أصحاب المقاهي رصوا دِككًا ومقاعد من جريد النخل، وقطع الحصر على حافة البركة، يقدمون القهوة في الحال لكل من يجلس، وإن رفض لا يُسمح له بالجلوس صارخين «القعدة بالمشاريب»، استغلوا وجود مقاهيهم بالقرب من الاحتفال الباذخ للفرح الذي استمر تسعة أيام لرفع مبيعاتهم ومكسبهم اليومي، انتشرت حولهم المشاعل المغروسة في الأرض للإضاءة، بالقرب من سور القصر كان عددٌ من الخدم يمرون على الحاضرين بالفطائر وأنواع النُّقل المختلفة وسائر المأكولات بالإضافة إلى الشربات السكري بلونه الأحمر، أو شربات اللوز

بلونه الأبيض، القصر وما حوله ينبض بالحيوية، والألعاب النارية، والصواريخ تنطلق واحدة تلو الأخرى في فترات متقاربة بشكل جميل من منصة خشبية شُيدت على بعض المراكب وسط البركة.

تسلل الصغار متماسكي الأيدي، وسط الناس المكدسة أمام القصر وفي ساحته حول مجموعة من الراقصين إلى الداخل، على باب إحدى الغرف كان يقف حارسان يمنع دخول الغرفة إلا من الأجانب الذين تم دعوتهم، وأغلبهم يونانيون، وبينهم عدد من النساء يرتدين الزي الأوروبي العادي، وأخريات يرتدين الزي العثماني الرجالي ليبدون رجالًا؛ لأنه ليس من المعتاد أن تظهر النساء في صحبة الرجال، أو أن يخرجن ويسهرن بالليل، لكن انحناءات جسدهن ومؤخراتهن الممتلئة كانت واضحة جلية للأعين.

وقف الثلاثة في الساحة أمام فرقه موسيقية تبدو من ملامح أعضائها أنها غير مصرية، تعزف العديد من الألحان الأوربية بمهارة، تلتها مجموعة من الآلاتية المصريين، يؤدون بعض ألحانهم مع مصاحبة بعض الغناء أحيانًا، جاء بعض الراقصون الذين يعملون كبدائل للراقصات، اللاتي تم حظرهن في الأماكن العامة، لم يكن الراقصون من «الخولات»، أي ليسوا من الراقصين المصريين المعروفين في المحروسة، فالخولات أزالوا شعر وجههم وسيقانهم بالحلاوة كما تفعل النساء، وزادوا في استعمال الكحل في العين والحناء في الأكف، وغالبًا ما يتحجبون في الشوارع في غير أوقات الرقص، لكن الراقصين يشبهونهم في الزي والمظهر ولا يختلفون عنهم في أي شيء إلا في الاسم «الجنْك»، وهو اسم تركي له مدلول منحط الشأن والمعنى، ينم

عن شخصياتهم، أما مهنتهم فتجعلم مخنثين في الملبس والمظهر وحتى في الأداء، كان أغلب الجنك من اليونانين، والأتراك، والأرمن، ومن اليهود. تجمع ست أفراد منهم يرقصون معًا، مرتدين صدريات ضيقة وقمصان واسعةً وجونيلات عليها أحزمة، مظهرهم أقرب للنساء منه إلى الذكور، رغم أن لبسهم مزيج من لبس الرجال والنساء، طويلو الشعر بعضهم يتركه متدليًا على الظهر، والبعض الآخر قام بتضفيره مع قطع صغيرة براقة من الذهب، بين أصابعهم صاجات من النحاس، يتشبهون في حركاتهم بالغوازي والعوالم، وقليلًا ما يؤدون بعض الحركات البهلوانية.

تسلل الأصدقاء بين الزحام وتعلقوا بإحدى النوافذ المطلة على الساحة الجانبية للقصر، حيث لا يوجد أحد من حاضري الفرح هناك، شاهدوا في الداخل أحد المهرجين في ملابس مبهرجة غريبة الشكل، فوق رأسه طاقية حمراء مدببة تزينها خيوط براقة وأجراس، يحمل مع عدد من الأشخاص المشاعل وسط فرقة من الآلاتية الذين يقدمون مقطوعات موسيقية وغنائية، يسبب نشازا بينهم في الموسيقى التي يؤدونها، وهو يحاول مصاحبتهم بصاجاته ورقصه المبتذل، وحركاته البذيئة التي تجلب ضحك بعض الحاضرين، التي تدور عليهم صواني من أنواع المرطبات كافة، والخمور باهظة الثمن، وشراب عصير الفاكهة، والقهوة، وبعض النراجيل.

أحد الصواريخ التي تطلق بالخارج أصابت جزءًا من القصر وأشعلت فيه النار، ارتفع صراخ بعض النساء، سادت الفوضى بين الناس قليلًا، واصطدم الناس ببعضهم البعض وهم يحاولون الابتعاد عن النيران، وسقط البعض في الأرض وداسته الأقدام،

لكن تم احتواء النيران وإطفاؤها في سرعة من الخدم والناس الذين قَدِموا للمساعدة، نتيجه الإطلاق المتكرر للصواريخ والارتجاج الناتج منها، تهدم حائط قديم على شاطئ البركة، فوق أربعة رجال، مات منهم واحد على الفور، ساد الهرج والمرج في الخارج وأسرع بعض الناس القريبين من السور، في إزالة أنقاضه وأخرجوا المتوفَّى من تحتها، وحمله أصحابه مسرعين إلى بيته وهم ينطقون الشهادة ويحوقلون.

بالداخل تم تقديم مسرحية هزلية سخيفة في محاولة من الباشا والمشرفين على الحفل التغطية على الاضطراب الذي ساد نتيجة اشتعال النيران، وانهيار الحائط، ووفاة أحد العامة، توقفت بعد ذلك الصواريخ عن الانطلاق.

لما جَن عليهم الليل تجمع المعازيم من العامة في ساحة القصر جوار باب الدخول، على مجموعة من الغوازي، يرقصن أمام البيت يلبسن الكثير من العقود والأساور والخلاخيل، وبعض العملات الذهبية على الجبين، متزينين بالكحل والحناء، عبر علي وحسن وأبانوب بين أقدام الناس شبه زاحفين على الأرض ليصلوا إلى أول الصف ووقفوا باركين على ركبهم أمام الغوازي اللائي بدأن الرقص يهزون أعلى أفخاذهن في حركة اهتزازية سريعة، سرعان ما ازددن حيوية وازددن ضربًا بالصاجات، وارتفع اجتهادهن في أداء الحركات المائعة المصحوبة بعزف فرقتهم على الربابة، والتار، والدربكة، والزمر.

العازفون، والراقصات من قبيلة الغوازي، والرجل منهم يسمى غازي، الرجال المتفرجون يصفقون ويتمايلون معهم، والماجن منهم يمهد الطريق ليراود إحداهن عن نفسها؛ لأن الغوازي مشهورات بأنهن يمكن استئجارهن للإمتاع الخاص في البيوت،

وفي هذه الحالة يكن رقصهن أكثر إثارة، ومن منهن يمكن أن تشعر بالقليل من بعض حياء، تداويه بقليل من البراندي، والمشروبات الروحية، أو بمنقوع من المناقيع التي يتناولها العامة، فيقمن بأداء دورهن اللائي تم استئجارهن من أجله على أكمل وجه.

أصل الغوازي محفوف بالغموض، رغم أنهن يتفاخرن بأنهن من سلالة البرامكة، الذين تعرضوا لنزوة من طغيان هارون الرشيد، إلا أن هناك تشابه في كثير من عاداتهن مع الغجر، الذين يُعتقد أنهم من أصل مصري، والغوازي لا يتزوجن إلا من قبيلتهن، وغالبًا ما ينشأن على مهنة الدعارة، ويخضع الزوج لامرأته، ويقوم لها مقام الخادم ويوليها عنايته، فيعمل للراقصة طبال، أو موسيقي.

يتحدثن بالعربية، ويستخدمن أحيانًا بعض الألفاظ الخاصة بهم والتي لا يفهمها العامة، غالبًا ما يسكنون في المناطق المخصصة للدعارة، وتكون مساكنهم أكواخًا قصيرة، أو حظائرَ وخيامًا؛ لأنهم كثيرو الترحال، والسفر من بلد إلى بلد، بعض الغوازي يزدن عن غيرهن بصوتهن الجميل وحسن غنائهن، فيتساوين مع العوالم، إلا أن العوالم يعدُّهن الناس من النساء المحترمات؛ لذلك يسمح لهن بدخول القصر والغناء للحريم.

في نهاية كل ليلة كان الباشا يقيم مأدبة خاصة لأصدقائه طيلة فترة الاحتفالات، وفي اليوم الأخير كانت زفة العروس إلى بيت العريس، وتم ضبط اليوم ليوافق يوم الخميس وهو اليوم التقليدي ليوم الدخلة.

تحرك الموكب خارجًا من القصر إلى اليمين، حتى لا يبدأ خروجه بفأل سيئ إذا ما خرج ناحية اليسار، اتخذ الموكب طريقًا ملتويًا، طاف حول بركة الأزبكية، ثم اخترق الحي الذي يسكنه أغلب الفرنجة، دخل الشارع الرئيسي من باب زويلة ومر بأغلب أجزاء المدينة قبل أن يصل إلى بيت العريس.

الموكب تقدمه رئيس المهرجين فوق صهوة جواده، على رأسه طرطور مدبب من الفضة، يحيي الجماهير الواقفة ذات اليمين وذات الشمال، في وقار كما يفعل القضاة وعلية القوم، رغم أنه أحيانًا يقوم بنفس الحركات السخيفة التي يقوم بها المهرج ذو اللحية المستعارة في مواكب الكسوة والمحمل، خلفه أربعة رجال على أربعة جمال ينقر كل واحد منهم على طبلتين كُبريين ويرتدون بنشًا قرمزيًا، تبعهم اثنا عشر جملًا آخرين على كلٍّ منهم إما سرج، أو هودج مغطًى بقماش أخضر محلًّى بالأصداف، والودع، وبه مجموعة من الأعلام الصغيرة التي تميل إلى الأمام مع مقدمة السرج، ثم جاءت خلفهم جماعة الجنك يقرعون بالصنج ويؤدون بعض الرقصات أثناء تحركاتهم وسط الموكب، تبعهم فارسان يحمل كلاهما ساريًا طويلًا في أعلاه منديل مطرز، بينهما رجل يحمل مشعلًا بقضيب طويل مثبت فيه مناديلُ كثيرة، وانتشر السقاؤون يزودون الناس بالماء أثناء مرور الموكب.

ظهرت الفرقة الموسيقية التي عزفت داخل القصر خلفهم فوق عربة سقفها مغطًى ومكشوفة الجوانب يجرها أربعة جياد أقوياء، كان عزفهم يكاد يختفي وسط الصخب الذي ملأ الموكب ودقات النقارين على الطبول في الأمام، جوارهم عربة أخرى عليها العوالم، اللاتي قمن بالغناء بالداخل وسط الحريم يُنشدن

أثناء سير الموكب، وهن محجبات كالسيدات المحترمات من أواسط الناس وعليتهم، وليسوا مثل الغوازي، تَبِع العربتين مجموعة من الصبيان، بينهم علي، وحسن، وأبانوب، وبعض الرجال يقلدون الفرسان بجياد وهمية من جريد النخل والورق، بينهم رجلان بسيقان خشبية طويلة يصل طولها إلى ما يقرب من المترين، خلفهم الممثلون الذين قدموا المسرحية الهزلية بالقصر، ومعظم الجنك والفرقة الموسيقية العثمانية، ثم مجموعة الخصيان على جيادهم، يتقدمون قافلة المركبات الأوروبية التي تحمل السيدات، المركبة مغطاة من أعلى بشيلان تتدلَّى من الأمام والخلف والجانبين لتحجب السيدات بداخلها عن أعين الناس، يجر كل عربة أربعة خيول يقودهم سائق عربي، يصاحبه من الخلف اثنان من الخصيان، العروس بالطبع مستقرة في المركبة الأمامية الأفضل شكلًا، الزغاريد انطلقت من النساء من الجمهور في الشارع أو اللائي يتابعن الموكب من مشربياتهن، الموكب تبعه خلف المركبات عدد من الطبالين ونافخي المزامير وكل مَن على صهوة فرس يرتدي بنشًا قرمزيًّا اللون.

استمر الموكب حتى بيت العريس، بعدها انفضَّ الجمعُ وعاد كل واحد حضر الموكب إلى داره يحكي ويتحاكى عما رأى وشاهد طيلة أيام الفرح وطيلة سير الموكب في الطرقات، عاد الصغار الثلاثة إلى بيوتهم بعدما تجاوز الليل منتصفه بقليل، وجد كل منهم أباه في انتظاره ساهرًا في ضيق وغضب، وتلقى كلٌّ واحدٍ من والده علقة محترمة، وباتوا ليلتهم متأوهين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٦-

تابع السيد إبراهيم مرقص العامة من جلسته أمام دكانه الذي يبيع فيه مصنوعاته من أواني فخارية وخلافه، في تحركهم غدوًا وعشيًا وهو ينفث دخان أرجيلته، وأحد المجذوبين يدور على الدكاكين وفي الشوارع متسولٌ بمبخرته التي يخرج منه دخانُها كمحرقة صارخًا بين الحين والآخر «يا حي.. يا قيييوم»، ناشرًا في الطرقات رائحة بخوره الزكية.

بينما هو في جلسته، لمح السيد محمود مارًّا من أمام دكانته محييًا، فدعاه للجلوس واحتساء فنجان القهوة معه، ولا مانع من أن يدخن معها أرجيلته.

تبادلا الحديث عن المحروسة وناسها وأحوال البلاد والتغيرات التي حدثت في المحروسة في السنوات الأخيرة من بعد استقرار حكم الوالي محمد علي باشا، والتوسعات التي قام بها، ثم سأل السيد محمود فجأة دون مقدمات:

- لما لم يأتي أحدٌ من أهلك أبدًا يزورك؟ هل حقًّا عليك ثأر كما يقولون؟

سحب السيد إبراهيم نفسًا طويلًا من أرجيلته وحمل فنجان قهوته بين أصابعه وهو يسأل:

- وهل يبدو عليَّ أني هاربٌ أو متخفٍّ من أحد؟! الناس يؤلفون حكاياتهم ويصدقونها دون أن يعرفوا الحقيقة أو ما حدث فعلًا، والحقيقة أنه إذا سأل أحدهم ربما لن أجيبه أو أُشبع فضوله ورغبته في معرفة أسرار حياتي.

اضطرب السيد محمود في جلسته وشعر ببعض الحرج وهو يرد:

- أنا لا أقصد التدخل والتطفل.

ثم تابع في أسف شديد بان على ملامحه جليًّا:

- أعتذر عن سؤالي.

ضحك السيد إبراهيم ضحكة هادئة وهو يربت على ركبه جليسه:

- يا رجل أنا لا أقصدك أنت بالضرورة، أنت صديقي وجاري منذ أن سكنت في شارع الرويعي والمحروسة كلها.

شد بضع أنفاس متتابعة في حرفية من أرجيلته وهو يقول:

- بل أنت على حق ربما من حقك أن تعرف، سأحكي لك سرًّا لا أخجل منه، ولم أكن أنوي إفشاءه، لكني أحب أن أبتعد عن عقول الناس المحشوة بأفكار أغلب الظن أنها ليست من أفكارهم الخاصة.

- أنا لا أحاول أن أدفعك للحكي عن ...

قاطعه السيد إبراهيم مهدئًا:

- لابأس يا رجل، لا عليك، أنا أود أن أحكي لك، وأن أشاركك بعضًا من ذكرياتي.. اسمع.

وَضَعَ اللي الخاص به على الأرجيلة، وارتشف الثمالة المتبقية في قاع فنجان قهوته ثم قال:

- تعرف كما يعرف الناس أني مسيحي من أسوان وهذا صحيح، لكن ليس علي ثأرٌ، أو شيءٌ من هذا القبيل، المشكلة هي أني

لست مسيحيًا، ولست مومنًا من وجهة نظر أهلي، وربما أغلب الناس سيروني كذلك.

تعجب السيد محمود وظهرت على وجهه ملامح الاستغراب وهمس:

- أتقصد أنك مسلم؟

رد مبتسمًا:

- ليس هذا ولا ذاك ولا حتى يهودي حتى لا تأخذك بي الظنون، أنا مشتت وفي حيرة وأهلي طردوني من بينهم وجعلوني غير مؤمن.

زادت ملامح الاستغراب والتعجب على وجه السيد محمود وهمَّ بقول شيء ما إلا أن السيد إبراهيم قاطعه قائلًا:

- اسمع للنهاية، أبي وأمي مسيحيان وعائلتي كلها كذلك، وتربيت ونشأت على أني مسيحي لكن مع بداية فترة مراهقتي كأي مراهق كانت تراودني أفكار عن الكون والخلق والوجود ولم أعرف الإجابة أبدًا، حاولت السؤال لكن الأسئلة لم يكن يقابلها الرد بل كان يقابلها الاستنكار.. والسؤال الذي يتكرر كيف تجرؤ على هذا؟!! كيف تجرو على السؤال؟ بل وكيف تجرؤ على التفكير في كينونة الله؟

سأل السيد محمود:

- وماذا كنت تريد أن تعرف بالتحديد؟

رشف السيد إبراهيم بضع رشفات من كوب الماء أمامه وهو يقول:

- في البداية كان سؤالي للقساوسة عن المسيح نفسه من هو؟ أهو إله؟! قالوا: إنه ابن الرب. فقلت هذا يجعله نصف إله إذن؛ لأن أمه بشرية، جاوبني أحد القساوسة أن روح الله قد تجسدت في جسد المسيح، استغربت أكثر فهل الله له روح مثلنا؟! وهل يتحكم فيها بأن يضعها، أو يضع جزءًا منها في جسد أحدهم؟!! رغم أن هناك البعض يعتقد حقيقةً أن المسيح هو ابن الله أو أنه هو الله ذاته، حتى إن القرآن يقول: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}.

أكمل السيدمحمود:

- صدق الله العظيم، لقد قرأت في القرأن أيضًا؟

- بالطبع، حاولت أن أقرأ في كل ما تصل إليه يداي حتى العهد القديم وكتب التاريخ والتراث وكل هذا لم يُجبني.. مَن خلق الله؟ وكيف كان؟.. والرد القرأني: لم يلد ولم يولد. أيضًا شغلني فكري ما دعاه ليخلقنا، وإذا كان يستطيع الخلق وعنده القدرة والمقدرة فلم خلق الكون في ستة أيام؟ لمَ يخلق أطفالًا يمرضون ثم يموتون؟ لما يحاسبنا على أشياء قد كتبها علينا من قبل أن نولد؟ هل قدَّر علينا حياتنا ومسيرتنا في الدنيا ليحاسبنا عليها؟ ولما يحاسبنا في الآخرة عليها؟ يدخلنا في جنته ونعيمه أو يعذبنا في ناره وهو من قدَّرها علينا ويعرف من البداية من سُيدخله النار ومن سُيدخله الجنة... ومع الهجوم الذي كنت أقابله من أهلي والكنيسة، لجأت لبعض الشيوخ المسلمين أيضًا فقابلت نفس العقول والعقليات، وأصبح الهجوم عليَّ حتى من الشيوخ المسلمين في بلدتي، البعض منهم ظن أني أريد أن أدخل في الإسلام فحدثني عنه، دون أن يجيب عن استفساراتي أحد ويُعرفني أو يُفهمني، بعدها صَمَتُّ ولم أتناقش مع أحد بعد ذلك

عما يدور في رأسي، احتفظت بأفكاري لنفسي، ولم أفصح عنها لأحد، بعد أن قوبِلَتْ محاولتي للتعلم والفهم بالاستنكار والرفض وأحيانًا بالسب والتهديد بالطرد.

نطق السيد محمود متعجبًا:

- الاستنكار والطرد؟!!

هز رأسه موافقًا:

- نعم الاستنكار، كأنه ليس من حقي أن أسأل أو أن أعرف، عليَّ أن آخذ ديني دون معرفة ودون تعلم، مع العلم أني عرفت فيما بعد أنني لست أول شخص يتساءل عن هذه الأمور، فقد علمت من أحد القساوسة في بني سويف يسمى بطرس الرحباني، بعد أن تزوجت من إليصابات، أنه كان هناك أسقف ليبي يدعى آريوس عاش في الإسكندرية، أخذ ينادي بأن الله إله واحد غير مولود أزلي، أما الابن فهو ليس أزليًا وغير مولود من الأب، وأن هذا الابن خرج من العدم مثل كل الخلائق حسب مشيئة الله، قال لي بطرس قديمًا: كان هناك اختلاف كبير بين القساوسة؛ فمنهم من قال إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية وهناك من قال إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، وهي مقالة سابليوس، وآخرون يعتقدون أن مريم لم تحبل به تسعة أشهر، وإنما مرَّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، وهناك من كان يومن أن المسيح إنسان مخلوق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وأن الابن من مريم، ويرون أن الله جوهرٌ قديمٌ واحدٌ وأقنوم واحد، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بالروح القدس، وهي مقالة بولس الشمشاطي بطريرك أنطاكية، ومنهم من قال إنهم ثلاثة

آلهة لم تزل صالح، وطالح، وعدل بينهما، وهي مقالة مرقيون وأصحابه ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهي مقالة بولس ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، بل لقد أخبرني أن فكرة لاهوت المسيح أصبحت قانونية بالتصويت وبفارق ضئيل أثناء مجمع نيقية الأول، المهم أنني في النهاية صمتُّ وابتلعتُ لساني في حلقي، لكن الدنيا لم تتركني أبدًا على حالي، دائمًا المصاعب والهم والغم كانوا يطاردونني في حياتي، كأن لم يكن هناك غيري، كنت أرى غيري يحقق أحلامي ويعيشها كما تمنيت أن أعيشها أنا في حياتي، لكنَّ الله أَبَى أن يعاملني كأي شخص له الحق في الحياة أو تذوق النجاح حتى ولو لمرة واحدة، ومع تقدمي في العمر كنت أتعرض دائمًا للتخبط ولكثير من الفشل في حياتي، لم أجد أي نجاح في أي شيء حاولت فيه، لا أدخل عملًا إلا باء بالفشل، لا أقترب حتى من محاولة جديدة، إلا وأحاطتني كل عوامل الفشل، كان ينتابني الكثير والكثير من الغضب في كل مرة، حتى الحب كنت دائمًا أرى البنات والنساء من حولي ينفرون ويبتعدون عني رغم أني لما أكن بهذه الدرجة من القبح، كنت كمن كان مكتوبًا على جبينه، ابتعدوا عني، لا تقربوني، لم يقبلني بيتٌ للمصاهرة والزواج من ابنته، دائمًا قُبلت بالرفض دون إبداء أي أسباب، حتى لما بدأت عملًا خاصًّا بي، فشلت فشلًا ذريعًا، لم يفشله أحدٌ من قبلي، خسرت كل أموالي وبضاعتي، والمال الذي كنت اقترضته من أبي والذي أعطانيه إياها على مضض، يومها لم أتحمل، لم أعد قادرًا على كبت ما بداخلي، كان وقت الانفجار قد حان، وقفت وسط الطريق غاضبًا والناس ملتفين من حولي يمصمصون شفاههم، شعرت بكرهي لنفسي وللحياة ولكل من حولي، لكل من أراهم ينجحون ويتقدمون، حتى مَن لا يحاول أن يفعل شيئًا ينجح في حياته،

كان النجاح والمال يأتيان إليه على عتبة بابه، صرخت لمّاذا أنا؟! لماااذا؟ صرخت وأنا أرفع رأسي للسماء، أنت ظالم.. أنت إله ظالم، لا تعدل بين الناس، تعطي كل الناس كل النجاح أو حتى بعضًا منه، ولا تبليني إلا بكل الفشل، تختصني أنا بالفشل وحدي دون غيري، لماذا أنا؟ ماذا فعلتُ لكَ كي تفعل بي كل هذا، حتى أهلي مهما حاولت إرضاءهم، مهما حاولت أن أظل مطيعًا لهم وتحت قدميهم، يتهموني بأني أنا الابن العاق من بين بقيه إخوتي، الذين تزوجوا وابتعدوا عنهم ولا يزوروهم إلا كل شهر أو حتى كل بضعة أشهر، وأني سأكون من سكنة جهنم في الآخرة، أخلقتني لتبث على زبانية الجحيم تفترسني على الأرض وفي الآخرة؟ جعلتني مُسخة ضائعة بين أهلي وأقراني، لم يعد أحد يريد الاقتراب مني، الكل ينفر ويبتعد عني، وأنت السبب، أنت من خلقتني، وأنت من قدرت لي حياتي وجعلتني أعيشها مرغمًا، ارحمني من هذه الدنيا الملعونة، لا أريد أن أحيا حياة لم أخترها، لم أختر فيها حتى اسمي، أو أهلي، أخلقتني لأعبدك؟ أم خلقتني لتفعل بي كل ما تشاء لتبعدني عنك وتنفرني منك؟ أم خلقتني لتعذبني في الدنيا والآخرة؟ أنت إله ظالم، ظالم، ظاااااالم.

ثم اعتدل في جلسته وبدا على ملامحه شيء من العصبية وهو يُكمل:

هل خلقنا الله ليذيقنا مرارة الحياة؟! هل خلقنا ليعبث بحياتنا ويشاهدنا نتعثر ونتعذب في الأرض حتى نكفر به فيقبضنا ويعذبنا في الآخرة؟! هل خلقنا ليلهو بنا..؟! لماذا قطع اتصاله بنا؟! قطع وحيه وقطع رُسله وتركنا في عزلة نُقطِّع ونأكل بعضنا البعض بسكين بارد، لا نرى معجزاته ولا فضائله، لم نعد نرى إلا

لعناته التي يصبها علينا.. أي إله هذا! أشعر بالغضب كثيرًا حين أرى ما وصلنا إليه، وفيما وصل إليه حالي، لقد تركني تائهًا ضائعًا لا أجد أملًا في هذه الحياة الملعونة.. لم أدعه مرة وأجابني إلا بما فيه فشلٌ لي، وضياعٌ أكثر لحالي، حتى شعرت مراتٍ أني أكرهه.. قال لي أحدهم إن الله يعرف مصلحتك فيجيب لك الدعاء الذي ينفعك.. ولا يجيب ما يمكن أن يضرك، صرخت فيه.. هكذا وصل إليه حالي وهو يعرف صالحي.. فماذا لو كان لا يعرف ما هو في صالحي..؟! ما كان سيئول إليه حالي بأكثر من هذا سوءًا وضياعًا وفشلًا.. كيف كنت أصبح أسوأ مما أنا فيه؟!.. سنوات من الفشل والضياع والوحدة والمرار.. الكل كرهني.. أبتعد عن المشاكل وأبتعد عن الناس .. والناس تتربص بي وتخلق معي المشاكل.. كأني المغضوب عليه في هذه الأرض لا أرى إلا ما يُضيِّق صدري بها أكثر، رغبت في ترك الدنيا والحياة... تمنيت لو أن في قلبي ذرة من شجاعة لأقضي على ما بقي من حياتي وأكف عن التنفس.. لكني جبان لم أقدر.. لم أقدر إلا على ترك البلد والابتعاد.

ظلت ملامح السيد محمود جامدة لا يبدو عليها أي انفعال، أو غضب أو أي شيء، ربما هذا من الأشياء الحسنة فيه، فهو يتقبل الناس ومَن حوله كما هم، بحالتهم السيئة أو الحميدة، لا يفرق معه دين الرجل أو عرقه، يتعامل مع البشر على قدر إنسانيتهم، ربما هذا ما دفع السيد إبراهيم مرقص للحكي من البداية، فقد عرف أن السيد محمود لن تتغير معاملته أو نظرته له بعد ذلك، سأل السيد محمود:

- أنت ملحد غير مؤمن بالله؟

رد السيد إبراهيم وهو يقلب كوب الشاي الذي أتى به أحد صبيانه:

- لا، أنا لست ملحدًا أو مشركًا أنا أعلم أن الله موجودٌ، فلم يأت هذا الكون أو يُخلق من تلقاء نفسه، لا بدَّ له من صانع، لكن أنا غاضب منه، أحيانًا أشعر بأني أكرهه، أشعر أنه خلقني ليعذبني ويكرِّهنِي في حياتي فقط، ثم يعذبني في الآخرة...، النتيجة أن أبي وأهلي قد اعتبروني غير مؤمنٍ وخارجًا عن ملَّتِهم، وطردوني خارج بلدتنا وحرموني حتى من وداع أمي، التي ماتت دون أن أراها أو أدفنها، ومن يومها إلى الآن لم أعد إلى هناك مرة أخرى.. تنقلت بين البلدان حتى اسْتَقَرْتُ ببني سويف لم أخبرهم بما حدث أو بما يدور في عقلي وبين ضلوعي، كنت قد قررت أن أدع أفكاري وغضبي ملكًا لي وحدي، هناك رأيت إليصابات لأول مرة، أحببتها، ظللت عدة أشهر أحاول التقرب إليها، فلما عجزت ذهبت لأهلها وطلبتها للزواج فقبلت بي ولم تمانع، أخبرتهم أني يتيم وليس لي أهل فلم يتشككوا، ورغم أن إليصابات امرأة متدينة ومن أسرة مسيحية متدينة، إلا أنها بعد الزواج لما حكيت لها عني وعمَّا حدث معي من قبل، تقبلتني ولم تنفر مني، رغم أني كنت في قمة رعبي من أن أفقدها، لكن لم أكن أريد أن أخدعها، قالت إنها لن تفرض علي أو تطلب مني تأدية العبادات المسيحية، لكن أهلها مع الوقت سيطلبون أن أفعل، ثم سيتشككون من ذلك إن لم أفعل، ولن يرضوا بغير ذلك بديلًا، فقررنا الانتقال للمحروسة لنبتعد عن أهل إليصابات أيضًا، لكن القدر لم يرحمني ويتركني فقد كان كل طفل تلده إليصابات يموت وهو ابن بضعة أشهر، حتى أتى أبانوب الذي سميته كما

أرادت أمه دائمًا ما يمرض، وأنا أستيقظ كل يوم في خوف أن أسمع خبر موته في أي لحظة لأي سبب.

رد محمود في سرعة بصوت مخنوق متأثرًا بكلام السيد إبراهيم:

- لا تقل هذا، ربنا يخليه لك، تفاءلوا بالخير تجدوه.

ثم شبك أصابعه وسند بهما رأسه من الخلف وهو يقول في تردد:

- أحيانًا أفكر وأشعر بما تقول، لكن لا أجرؤ على البوح به لأحد، أو حتى لنفسي بصوت عال، أعتقد أن لا أحد يفهم الله أو يدري مشيئته، يخطر ببالي أحيانًا أفكار أشعر أنها ستؤدي بي للكفر فأنفضها عن عقلي وألجم أفكاري وأتناساها.

ثم ربت محمود على ركبة إبراهيم مواسيًا إياه:

- دع ما حدث للماضي، لا تفكر كثيرًا

هز السيد إبراهيم رأسه:

- لقد تعبت من كثرة التفكير، وفقدت أي أمل في صلاح الدنيا معي، ابتعدت عن أهلي وبلدي، وأحاول ألا أختلط كثيرًا بالناس هنا، المسيحيون أو حتى المسلمين على حدٍّ سواء، هنا ما دمت لا أعلن عمَّا في داخلي وأجهر به فأنا في أمان.

ابتسم السيد محمود وهو يقول مداعبًا:

- لقد فعلت الآن، ألا تخشى أن أفشي سرك؟

بادله ابتسامته وهو يقول:

- بل أعلم أنه الآن في بئر سحيق.

وبينما هما جالسان، سمعا صوت رجل يصرخ في الشارع كمن يشكو حاله، ولما اقترب منهما، اتضح أنه أحد أصدقائهم ومعارفهم، السيد عبد الحميد القماش تاجر المانيفاتورة، فنهضا يجذباه ناحيتهما محاولين تهدئته، وهو يصرخ وقد ألقى عِمَّته على الأرض من غضبه وضيقته.

أجلسه السيد إبراهيم وهو يربت على كتفيه بعد ما أحضر عِمة الرجل، نفضها ووضعها على رأسه من جديد وناوله كوب الماء الذي كان أمامه:

- اهدأ يا رجل، ما بك؟ ما الذي حدث لكل هذا؟

رد يد الرجل بكوب الماء ونطق غاضبًا بصوت عالٍ وهو يشد ملابسه من على صدره يحاول أن يمزقها، والسيد محمود يحاول تهدئته وأمسك بيديه:

- بنت الكلب التي على ذمتي منذ سنتين، مطلعة عيني، ولم أر منها يومًا حلوًا، كل أيامها نكد وغم وقرف، زهقتني من حياتي ومن دنيتي، الله يأخذها ويحرقها، أقسم برب العزة لولا العيل الصغير لكنت طلقتها ورميتها لأهلها أو في الشارع.

قال السيد محمود:

- لما كل هذا؟ ماذا فعلت؟

نطق منفعلًا:

- ولية نكدية ملعونة بنت كلب، مكشرة في وجههى دائمًا، لا تبتسم مهما حاولت مداعباتها أو تلطيف الأجواء بيننا كأني قتلت أحدًا من أهلها، تحدثني والقيء يكاد يخرج من بين شدقيها.. وأراها مع الأخريات من جيرانها تتحدث فاغرة فاها

بابتسامة تكاد تصل بين شحمتي أذنيها، حتى حين أنام معها تظل تحتي كالجسد الميت، حتى أنتهي منها ثم تنهض تستحم وتعود لتنام كأن شيئًا لم يكن، ومنذ أسبوع مات عم والدها الذي بلغ من العمر الثمانين على الأقل، فحولت بيتي إلى مناحة ومندبة، لا تنقطع عن البكاء والنحيب والعويل ليل نهار، ما ذنبي أنا فليمت أو يُحرق بجاز حتى، لقد رأى الدنيا وشبع منها وعاشها وجَابَها طولًا وعرضًا، فليلعنه الله وليلعنها هي معه وأهلها أجمعين، ما جريمتي لأعيش مع هذة المرأة النكدية اللعينة.

ثم نهض واقفًا ورفع يده اليمنى لأعلى وأصابعه مضمومة وسبابته مفرودة لأعلى:

- أقسم برب العزة لأتزوج عليها هذا الأسبوع وآتي بها لتعيشَ معها في نفس الدار، والله لأُريها أسود أيام حياتها بنت الكلاب النكدية هذه، ولو نطقت بكلمة لأخذت ابني وألقيت بها في الشارع، لتندب وتولول كما تشاء.

ضحك إبراهيم ومحمود وبعض الرجال الذين التفوا حولهم في فضول، وقال أحدهم:

- صلِّ على النبي يا رجل، ستحل الأمور، إنهن ناقصات عقل ودين ألا تعرف؟

تحدث آخر قائلًا:

- إنهن شياطين خلقن ليذيقونا عذاب الدنيا ويكفروا عنا سيئاتنا.

فتح الجمع طريقًا بينهم لما لمحوا الشيخ الفسطاطي أحد شيوخ الأزهر بعمته وجلبابه المميزَين يقترب منهم، حتى وصل جوار الجالسين فأحضروا له كرسيًّا وجلس بينهم وربت على ساق السيد عبد الحميد قائلًا:

- صلِّ على من سيشفع فيك يوم القيامة يا رجل.

تمتم عبد الحميد والجمع كله بالصلاة على النبي، ثم تابع الشيخ الفسطاطي الحديث:

- النساء غير متشابهات، منهن أنواع وكل امرأة لها شخصية تختلف عن الأخرى، وربما هي مريضة أو مضطربة أو بها شيء يجعلها هكذا..

قاطعه عبد الحميد:

- وما ذنبي أنا؟!! لقد تحملت عامين معها فوق ما يحمل البشر.

تابع الشيخ الفسطاطي:

- عاملها على قدر عقلها، وانتظر، إن تحسنت، فشيء جميل، وإن لم تفعل فلن يلومك أحد إذا تزوجت بأخرى، لكن دون أن تلقي بالأولى في الشارع كما سمعتك تقول وأنا قادم، بل تعدل بينهما حتى وإن ظلَّت تسيئ لك، وأما عمَّن قال بأنهن ناقصات عقل، فالمعنى واضح إلا لمن عُميت عليهم، فناقصات العقل أي إن عاطفتهن أغلب على عقلهن وليس لأنهن أقل ذكاء عن الرجال أو قدرة على التفكير واتخاذ القرار، كلنا سواسية أمام الله.

نطق عبد الحميد في زهق واضح:

- يا عم الشيخ أنت تتكلم في موضوع آخر، اتركني أفعل ما أراه يناسبني وإن احتجنا لفتواك سنأتي نطلبها منك.

همهم بعض الرجال حولهم في اعتراض على طريقة مخاطبة شيخهم الأزهري، وشعر الشيخ الفسطاطي ببعض الحرج

فاستأذن الجالسون ونهض محاولًا الانصراف، وقف السيد محمود وربت على كتف الشيخ ملطفًا الأجواء وهو يقول:

- أُعذره يا شيخ فهو في غضب تملكه.

رد مبتسمًا:

- لا عليك يا ولدي، لقد قدمت النصيحة لوجه الله، ولا أبغي شكرانًا.

انصرف في هدوء، وسط معاتبة الناس لعبد الحميد، الذي نهض واقفًا وهو يقول صارخًا في غضب بعد أن لامه الناس وعاتبوه على قوله:

- الشيوخ لم يعد لديهم ما يفعلوه سوى الكلام ليداروا به ما وصل به حالهم بعد أن تعروا أمام الناس، أنسيتم حين كانوا يجتمعون مع الفرنساوية ويدعون أنهم يتفاوضون لمصلحتنا، ولما فرض الفرنساوية الضرائب على الناس وبالغوا فيه، لم يفرض عليهم أي ضرائب، وحتى لما قامت هوجة أهالي المحروسة الغاضبة على الفرنساوية حاولوا تهدئتهم لمحاباة أسيادهم الفرنسيين، لكن الناس طردتهم من الميادين ومن بينهم شر طردة، ثم حاولوا أن يصبغوا كلامهم بالدين كعادتهم، فقالوا إن هذه المتاريس تمنعهم من دخول الأزهر وساحته، وتمنعهم عن الصلاة، ومن البداية قبلوا من الفرنساوية وشاح دولتهم الفرنسية، رمز الدولة التي أتت علينا بالخراب والدمار، ومن جبنهم كانوا يرتدونه وهم ذاهبون لمقابلتهم في مقراتهم، وحين يخرجون يخلعونه، ويخبئونه تحت عباءتهم، حتى لا يراهم الناس، بل ويقولون في العلن إنهم لن يلبسوا هذا الطيلسان أبدًا، {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ

وَهُوَ مَعَهُمْ}، والشيوخ الذين رتبوا المكيدة للرجل الوطني الشريف السيد عمر مكرم وغدروه به، وطلبوا الأموال وطلبوا إعفاءهم من الضرائب، إنهم شيوخ مُدعون، فليعافينا الله منهم، ومن مُدعي المشيخة والتدين.

رد قائلًا:

- يا رجل ليس كلهم فعلوا هذا، وليس كل شيوخ الأزهر سيئون، اتق الله، فمنهم من كان يقف كتفه بكتف أهالي المحروسة، بأجسادهم وأرواحهم قبل أموالهم.

رد عبد الحميد:

- لكن هؤلاء الأفاقين كانوا هم الأغلبية الظاهرة للأعين.

ثم انصرف وما زال على غضبه يرغي ويزبد، ولا ينوي التراجع عما في رأسه.

نفس الهراء، والأيام مختلفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٢٧ -

كان عيد الأضحى قد انقضى ومرت أيام كثيرة بعده، قصر فيها النهار من جديد، وبدأ الليل يطول مع دخولهم في فصل الشتاء، انخفضت الحرارة التي عانوا منها في صيامهم، وبدأت لسعة البرد تظهر، جلس السيد محمود ظهرًا أمام ورشته ينظر إلى السماء يتابع الغيوم التي بدأت تتجمع فيها من الأمس، وأرسلت مقدمات من أمطار خفيفة في الصباح، لما هو آت، رفع فنجان قهوته على شفتيه يرتشف منها في بطء، ظهر شبح ابتسامة خفيفة على شفتيه لما طاف بخياله ذكرى والده وهو في نفس جلسته يشرب القهوة ويسمعه يقول:

- القهوة لها طعم الزمن.. ورائحة الذكريات.. ومرارة الحياة.

لمح طفلًا صغيرًا يقترب منه وهو يمسك بكف رجل بدا أنه كان يسأل على ورشة السيد محمود الورداني، وأشار إليه وقال:

- هذا هو السيد محمود.

ثم تركه وجرى عائدًا من حيث أتى، رحَّب السيد محمود بالرجل وعلم منه أنه يحمل رسالة مكتوبة له من المنصورة، تعجب من أمر الرسالة، فلم يصله رسالة من أحد أقاربه من المنصورة من قبل، خصوصًا أن عمته توفيت قبل والده، وعمه توفي بعد أبيه ببضع سنين، وأمه وحيدة فلا خال ولا خالة له، إلا أن هذا لم يمنعه من استقبال حامل الرسالة في ترحاب، ودعاه للغداء، إلا أنه رفض لأمور مهمة تشغله، ورحل بعد أن ودعه السيد محمود وشكره على إيصال الرسالة، فض الرسالة ونظر إلى مُوقِّعها، فوجد الاسم مكتوب «محمد مصطفى الورداني»، لم يسمع بالاسم من قبل، لكنه واضح أنه في أغلب الظن ابن عم

والده أو أحد أقاربه، قرأ الرسالة في اهتمام، وجد الرسالة بالفعل من ابن عم والده يدعوه فيها إلى المنصورة؛ لأن له إرثًا في بيت العائلة القديم، وفي قطعة أرض واسعة من الفدادين الزراعية، أوضح له في الرسالة أن البيت والأرض كانوا ملكًا لجد والده، وأنه له حق بالوصية الواجبة، ورجاه في آخر الرسالة أن يحضر في أقرب فرصة، حتى يشاهد بنفسه عملية البيع وتقسيم الأموال والتركة، حتى لا يُظلم أو يشك أن له حق لم ينله، وختم رسالته بقوله الله تعالى.: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، ووقع باسمه «محمد مصطفى الورداني».

طوى الرسالة، ووضعها في جيبه الداخلي، وأكمل يوم عمله في ورشته حتى اقترب المغرب، فأمر صبيانه، بالاكتفاء هذا اليوم وغلق الورشة، هواء الشتاء الباردة زاد عليهم، بعد أن انتهت حرارة هذا الصيف التي كانت شديدة، وتبعه خريف لم يكتمل وحلت برودة الشتاء مبكرًا، غامت الشمس من بعد أذان الظهر بقليل، ولم تظهر طيلة اليوم إلا دقائق معدودات على استحياء، وبعد العصر تجمعت سحب رمادية، نزلت منها قطرات صغيرة، تنذر بمطر قادم، رفع السيد محمود رأسه للسماء الملبدة بالغيوم وقال وهو يضم عليه عباءته من الهواء البارد الذي بدا يزداد:

- يبدو أن نوة المكنسة ستبدأ.

رد عليه طاهر العامل بورشته:

- ربنا يسترها، هذة نوة أمطارها شديدة.

أخذ السيد محمود المفاتيح وعاد مسرعَ الخطى، حتى يصل قبل أن تمطر، لكن السماء لم تمهله، فتحت أبوابها وهطلت الأمطارُ

في عنف، وأَضيئت السماء بالبرق ورددت أركانها هزيم الرعد، امتلأت الشوارع بالماء والطين في دقائق قليلة، وبينما هو يسير على جانب الطريق، تزحلقت قدمه في الوحل وسقط على ظهره، وتوسخت ملابسه بالطين، سقطت عمامته عن رأسه، ساعده بعض المارة على النهوض، وعرض عليه أحدهم أن يوصله لبيته، فشكرهم جميعًا، وعاد يسير في طريقه متسندًا على جدران البيوت وهو يفكر، هل كبر في السن للدرجة التي يعرض عليه أحدهم أن يساعده ويوصله للبيت؟! هل شاخ قبل الأوان؟! أم أن آوان شيخوخته حان ولم ينتبه؟ كادت أن تسيل من عينيه دمعة، وهو يردد بصوت خفيض:

- لقد هرم ولدك يا أمي وصار يتعكز على الجدران.

وصل إلى البيت ودق الباب، هرولت السيدة مريم تفتح له الباب، لطمت على صدرها لما رأته غارقًا في الطين، من رأسه حتى نعليه، دعته للدخول في سرعة، والأمطار تهطل وتزداد مع صوت الرعد في الخارج، وضعت إناءًا كبيرًا مملوءًا بالماء على النار، وفي الحمام ساعدته على خلع ملابسه المتسخة، مسحت عن وجهه آثار الطين، وعادت تحضر الماء الذي أصبح فاترًا، جلس على كرسي الحمام الصغير عاريًا، وهي تحممه كطفل صغير، تسكب الماء على شعره، وتزيل بقايا الطين عن وجهه وعنقه، نشَّفت جسده بفُوطَةٍ من القطن، ثم لفت على جسده مئزرًا، حتى أحضرت ثيابًا نظيفة، ساعدته في لبسها، لحظتها فقط شعر بألم خفيف في ساقه من أثر السقطة، تسنَّد على مريم وصعدا معًا إلى الدور العلوي، كان أولاده متجمعين أمام المشربية المغلقة يتابعون من خلفها هطول الأمطار، جرت هند

في سرعة ناحية أبيها حين رأته، وقفزت على صدره يحملها كما تعودت منه، حملها متأوهًا هذه المرة، فسألته في خوف:

- هل أنت مريض يا أبي؟

قبلها على خدها وهو يرد في عطف:

- لا يا عين أبيكي، أنا فقط متعب من العمل.

أقبل علي وحسن يقبِّلان كفَّ أبيهما، الذي دعاهما للجلوس جواره على الطبلية التي أحضرتها مريم للدور العلوي، ووضعت عليها الطعام، بعد أن أشعلت بعض قطع من الأخشاب وقلاوح الذرة في قصعة صغيرة، بعثت الدفء في أوصالهم، وأضاءت المكان بشمعة وضعتها على طرف السلم، وأشعلت القنديل المعلق في السقف، تراقصت الظلال على الجدران وهم يتناولون الطعام، والسيد محمود يدور بنظراته بين أولاده وزوجته،.. لقد كبرت في السن وبلغت من الكبر مبلغًا، لم تعد ساقي تحملاني كسابق عهدهما، خانوني اليوم وسقطت في الوحل والطين، ربما يخونوني مرة أخرى، لم أتجاوز الخمسين بعد، من أين حلَّ علي هذا العجز المفاجئ، هل هي لحظات ضعف تأتي وتمر؟! أم لأن أرى الفرحة في عيني هند والصبيان، فأشعر بأني لم تعد ل نفس القدرة على الإحساس والاستمتاع بالأشياء كذي قبل.

أنهَى طعامه، وجلس على الأريكة، نهضت مريم، وأحضرت له الوعاء الذي يغسل فيه يديه، قالت وهي تصب على يديه الماء:

- أحضرت لي الست إليصابات بعض القرفة اليوم معها من عند عوض العطار، سأحضر لك القليل، ستدفئ صدرك، وتطرد منك التعب.

هز رأسه أن نعم، دون أن ينطق، أنهى الأطفال طعامهم وغسلوا أيديهم، وجلسوا حوله، بينما هند تسلقت الأريكة وصعدت تجلس على ساقي والدها المفرودة، وصوت الأمطار يعلو من الخارج، وأضواء البرق تسطع بين الحين والآخر مع صوت الرعد، عادت مريم بالقرفة يتصاعد منها البخار، رؤيتها فقط تبث الدفء في العروق، ناولته الكوب، وحاولت أن تجذب هند لتنزل عن ساقي أبيها، ليتمكن من شرب القرفة، إلا أنها تمنعت ورفضت، فأشار إليها السيد محمود أن تتركها كما تريد، فقالت مبتسمة وهي تجمع أواني الطعام من على الطبلية وتمسحها:

- أنت تدلل هذه الفتاة أكثر من اللازم.

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه وهو يقول:

- دعيها تتدلل في حياة أبيها.

ردت عليه مريم في سرعة:

- ربنا يعطيك طيلة العمر لتزوجها، وتزوج أبناءها.

تذكر فجأة الرسالة، وطلب من مريم أن تخرجها من ملابسه، فردت مبتسمة:

- أخرجتُ كل ما في جيبك، وأزلتُ عنه ما به من طين ووضعته جانبًا يجف.

لم يجد ما يقوله، سوى أن يبتسم لها شاكرًا، ذهبت بالأواني إلى المطبخ وعادت بعد قليل تحمل صينية عليها أكواب من القرفة، وزعتها على أبنائها، وتناولت الأخيرة في يدها وجلست على الكرسي المجاور للأريكة التي يتكئ عليها السيد محمود، سألته عن الرسالة، فأخبرها عما فيها، فسألته:

- وهل تنوي السفر إلى المنصورة؟

أجاب في هدوء وهو يضع كوبه الفارغ على الصينية:

- إن شاء الله حين تنتهي هذة النوة سأرتب لسفري إلى المنصورة، لا أعلم كم سيكون حجم إرثي أو كم يقدر بالأموال، لكن أي مال نتركه لأولادنا سيكون نافعًا لهم في مستقبلهم.

وضعت كوبها قبل أن تنهيه، وهي تقول متلهفة:

- خذنا معك إلى المنصورة لم نزرها من قبل، وأنت أصلك منها، وما زال لك فيها أقارب وأهل وناس، وهي فرصة حتى يتعرف أولادك بأقارب أبيهم وجدهم الذي لم يروه.

صمت لحظات يفكر فيما قالت وأعجب بفكرتها وقولها، لكنه تردد من رحلة السفر الشاقة ومتاعبها، فقال:

- دعيني أفكر وأرتب أموري وسأخبرك بما نفعل.

ارتفع صوت أذان العشاء من الخارج ضعيفًا، من بين صوت الأمطار المرتفعة التي لم تكف منذ بدأت، فقال متندمًا:

- لقد نسيت من تعبي أن أصلي المغرب بعد عودتي.

نهض توضأ وصلَّى، وقبَّل أولاده، وأمرهم بالذهاب للفراش، فامتثلوا، وجرت هند على غرفة والديها وقفزت تحت الغطاء كالعادة وهي تقول:

- لن أنام في الغرفة الأخرى بمفردي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٢٨ -

تحركت العربة التي يجرها الحمار، وعجلاتها تتزحلق غير متزنة، من الطين الذي لم يجف بعد في الطرقات، بسبب أمطار أنواء المكنسة الغزيرة، وعليها متاع السيد محمود وأسرته، وما يحتاجونه في سفرهم إلى المنصورة، سألت هند وهم يجمعون متاعهم، ويربطونها:

- هل سنسافر إلى المنصورة على الحمار.

ضحك السيد محمود وهو يجيب:

- لا يا صغيرتي سنركب مركبًا كبيرًا من شاطئ بولاق إلى المنصورة.

مرت عليهم أيام متعبة وشاقة في رحلتهم النهرية، حتى وصلوا إلى شاطئ المنصورة في صباح يومهم، وهناك اتخذوا عربة أخرى وضعوا عليها متاعهم بعد أن ساعدهم المراكبي وبعض الناس في إنزالها من المركب، بعد أن سألوا على بيت السيد محمد مصطفى الورداني، أكرى السيد محمود حميرًا للركوب، وصممت هند أن تركب أمامه على نفس الحمار، كان في نية السيد محمود البقاء في المنصورة لمدة عشرة أيام أو أسبوعين على أقصى تقدير؛ لذلك عهد الورشة لطاهر، وأوصاه بها حتى يعود.

المنصورة بلدة صغيرة يعرف أهلها بعضهم البعض، العمران فيها كان مقصورًا على الرقعة المحصورة ما بين نهر النيل والمدافن، والغريب يبدو فيها ظاهرًا لأي عين، كانت العيون تطاردهم في طريقهم، والألسن تتهامس فيما بينها متسائلة عن كون هؤلاء الغرباء؟! ولمن أتوا؟!

السيد محمد مصطفى الورداني يسكن على مقربة من المقابر، جوار مقام صغير لأحد الصالحين يسمى الشيخ المصري وهذا المقام جزءٌ من المقابر، الطريق كان غير ممهد، والعربة تسير متأرجحة على الطريق الترابي، رقعة الأراضي الخضراء تبدو للعين متسعة تبدأ من خلف البيوت التي تختلف في بنايتها وأشكالها عن بيوت المحروسة، نزل السيد محمود من على حماره ودخل يسأل عن ابن عم والده، ناداه أحد الأولاد الصغار الذي بدا عليه أنه من أحفاده، حضر السيد محمد الورداني، شعره يبدو من تحته عمامته ناصع البياض، ولحيته بيضاء أيضًا وطويلة، يرتدي جلبابًا أبيض اللون ويمسك في يديه مسبحة، جال في خاطر السيد محمود أن الرجل في هيئته هذه كما يصفون الرجال الصالحين في الأحلام، لا ينقصه إلا عباءة خضراء على كتفيه، أو فرس يطير به، استقبله السيد محمد الورداني بالتهليل والترحاب واحتضنه كما يحتضن الأب ولده وهو يقول:

- مرحبًا بالغالي ابن الغالي، كأني أرى فيك والدك رحمه الله.

ثم قبَّل علي وحسن وقبَّل يد هند ثم حملها على ذراعيه، ودعا السيدة مريم للدخول إلى داخل البيت، وأشار لبعض الخدم أن يحملوا حاجيات الرجل وأسرته للداخل.

بيت السيد محمد الورداني يبدو إلى حد ما قديمًا، له طابع مملوكي، واجهة البيت بسيطة بها نوافذ عالية بعيدة عن أعين المارة، النوافذ عليها مشربيات مصنوعة من الخشب الخرط موضوع عليها القُلل، المدخل مصمم بطريقة تجعل من يجلس في فناء البيت محجوبًا عن أعين الداخلين إليه.

الغرف مبنية حول فناء مكشوف بوسطه نافورة، وهناك قاعة كبيرة في وسطها «دُرقاعة» عبارة عن مساحة مربعة تفصل بين إيواني القاعة، في سقف القاعة فوق الدرقاعة قبة من الخشب تسمى شخشيخة بها فتحات صغيرة تسمح بدخول الهواء البارد، في الغرف الداخلية حول الفناء كانت النوافذ والفتحات واسعة لتحريك الهواء وتبريده داخل البيت.

الطابق الأرضي واضح أنه مخصص للرجال - السلاملك - كما كان يسمونه في بيوت المماليك، وهو معد لاستقبال الزوار، والقسم الثاني في الطابق العلوي خاص بنساء البيت - الحرملك، لنساء البيت مداخلُ ثانوية لا يستخدمها الرجال تؤدي إلى الطابق العلوي، الدور الأرضي مبني من الأحجار، بينما الدور العلوي بالطوب والأسقف من عروق الخشب.

نادى على أهل البيت ليعرفهم على السيد محمود وأسرته، عنده من البنين ثلاث وابنة واحدة، مصطفى أكبرهم، يليه إسماعيل ثم فاطمة التي تعيش مع زوجها فتحي في بيت أبيها، وأصغر أبنائه على نفس اسمه محمد، كلهم متزوجون ولديهم بنون وبنات، احتار فيهم السيد محمود فلم يعرف مَن ابن مَن، أو مَن ابنة مَن، أنزلهم في غرفة مخصصة للضيوف، رحبة، متسعة، وجعل الولدين في غرفة أخرى أصغر جوار غرف أحفاده.

بعد الغذاء العامر الذي شهد مذبحة لبعض الطيور والأرانب، وخروف صغير على سبيل الترحيب بالضيوف، اجتمع الرجال معًا في مقعدة بالدور الأول تواجه الشمال تشبه إلى حدٍّ كبير ما يعرف في القصور الإيطالية باسم لوجيا عبارة عن شرفة كبيرة مكشوفة.

تحدث السيد محمد الورداني، أو الشيخ محمد الورداني كما يناديه أبناؤه وأهل المنصورة، عن الإرث، قال في هدوء وأمامهم صينية عليها أكواب الشاي الساخن:

- الأرض عبارة عن عشرين فدانًا، كانت ملكًا لجدي، وهناك بيت آخر جوار مسجد الملك الصالح قبالة الأرض، جدي كان له أربعة ذكور وبنتان، إحدى البنات ماتت في حياة أبيها قبل أن تتزوج، وأحد الذكور عمي عبد الهادي رحمه الله، مات أيضًا في حياة أبيه بعد إصابته بداء في بطنه، لكنه كان متزوجًا وله أولاد، والآخران أبي وأبو أبوك أي جدك وعمي صالح الذي توفي منذ عدة أعوام وله أولاد وزوجة، أنت سترث نصيب والدك كله؛ لأنه ليس لك إخوة، وسترث نصيب أمك التي ورثته عن أبيك أيضًا، ونصيب زوجة أبيك ستأخذه لتعطيه للمستحقين من أهلها، نصيبك في الأرض سيكون أربعة أفدنة ونصف إلا قليلًا، ولك نفس النسبة في البيت، وأنا نويت أن اشتري منك إن لم تمانع، ولك أن تسأل إن كان السعر الذي سأعرضه عليك مناسبًا أم لا، ولك أن ترفض وتحتفظ بالأفدنة ونصيبك في البيت كما تشاء.

رد السيد محمود مبتسمًا:

- وهل أستطيع أن أعقب بعد قولك، أنا لا أعرف عن الأراضي والفلاحة شيئًا ولا أنوي الإقامة هنا، ففي المحروسة حياتي وعملي ومسكني، ولم آتي هنا أبدًا من قبل مع والدي أو بدونه، ولولا خوفك من الله، ما كنتَ أرسلتَ لي أو أخبرتني أن لي إرثًا عندك، فلك ما شئت أن تشتري وبالسعر الذي ستعرضه عليَّ، لن أجادلك فيه ولن أسأل، فأنا على يقين أنك لن تظلمني أو تجور على حقي.

رد الشيخ محمد الورداني وهو يرفع يده اليمنى التي تمسك المسبحة:

- والله على ما أقول شهيد.

رد مصطفى الابن الأكبر:

- على بركة الله، اليوم ترتاح من تعب السفر، فقد كان سفرك شاقًّا، وغدًا تخرج معي لترى الأرض والبيت.

عقَّب السيد محمود:

- إن شاء الله.

فرفع الشيخ مصطفى يديه وهو يقول:

- فلنقرأ الفاتحة على ما اتفقنا، حتى يبارك لنا الله.. الفاتحة.

أمنوا بعد أن تمتم كلٌّ منهم بالفاتحة في سره، ثم قال الشيخ محمد:

- لقد لاحظت أنك لم تحضر متاعًا كبيرًا معك، يبدو أنك لم تنو أن تقيم معنا فترة.

هم السيد محمود أن يقول شيئًا، إلا أن الشيخ محمد أشار إليه مقاطعًا:

- قبل أن تقول شيئًا، ليكن في معلومك أنك ستمضي الشهر كاملًا معنا في ضيافتي، ولن أقبل بأي رفض.

ابتسم السيد محمود وأعلن موافقته، راضخًا لدعوة الشيخ محمد وإصراره، تبادلوا أحاديث التعارف فيما بينهم، وسألوه عن ورشته، وأخبار المحروسة، وبالطبع طلبوا أن يقص عليهم عن رحلته إلى جزيرة العرب بعد أن عرفوا منه أنه سافر في الحرب

ضد الوهابيين، أخبروه أن تمَّ أخذُ الكثير من الشباب من بيوتهم عنوة، وجندوهم إجباريًّا بالضبط كما حكى له عبدالله من قبل، ولولا قوة كلمة الشيخ مصطفى عند أولي الأمر، لأخذوا الأبناء الثلاثة للجهادية.

أما السيدة مريم فقد ارتبطت على الفور في صداقة مع فاطمة بنت الشيخ محمد، التي لم تنفك تحكي لها عن زوجات أخواتها وعن ثقل دمهن، وأنها أحيانًا كثيرة تتشاجر معهن، وأنها لا تطيقهن أغلب الوقت، لكنها مع ذلك تحبهن كأخواتها، كان يتخلل كلامها الكثير من الأمثلة الشعبية، تؤيد بها كلامها أو تتماشى مع موقف يحدث، رغم أن أغلب أمثلتها لا يعرفها أحد، رحبت بها وعرفتها بزوجتيْ أخويها وأولادهما، دعتها للجلوس جوارها وقالت:

- نحن أقارب معًا، زيتنا في دقيقنا يعني.

ثم تابعت:

- أنا لم أرَ السيد علي الورداني، لكن يبدو أن زوجك السيد محمود فيه منه شبه كبير، ففيه ملامح من أبي أيضًا، صدق من قال من خلف ما مات.

حضرت زوجة أخيها الأصغر مرحبة بمريم، فلم تكن حاضرة في لحظة التعارف، بدت من ملامحها وشكلها أنها ما زالت فتاة صغيرة، ربما لم تكمل عامها الثامن عشر، حيَّت السيدة مريم وقبلتها في وجنتيها كعادة النساء، مصمصت فاطمة بشفتيها متهكمة وهي تميل على مريم هامسة:

- بخرا وتزاحم على البوس.

ثم رفعت صوتها موجهة كلامها لزوجة أخيها:

- أين كنتي من حينها، لما لم تأتِ حينِ وصلت السيدة مريم؟ أم كان لا بد من الزينة حتى تقول لكِ جميلة، قال إيه فوطة بحواشي وماتحتهاشي، كل امرأة متعلقة من عرقوبها يا ستي.

كتمت الفتاة غيظها في صدرها، ولم تنطق برد رغم حرجها أمام الضيفة الحاضرة، ولأنها صغرى نساء الدار، وربما أجملهن، كانت أحيانًا تحاول أن تغيظ فاطمة، فبعد أن سمعت كلام يوجع البطن، مشت أمامها، متمايلة، واضعة يديها في وسطها وتميل بمؤخرتها يمينًا ويسارًا عن قصد، تغيظ أخت زوجها، كونها أجمل منها فوجدتها تقول:

- بدال مشيك بقبابك، شيلي شراميطك من أكعابك.

وكزتها مريم وهي تقول معاتبة:

- لا داع لهذا القول هي لم تفعل شيئًا، يبدو عليها ما زالت صغيرة.

أشارت فاطمة إلى زوجات أخيها، اللائي جلسن أمامهن:

- زعيط ومعيط ونطاط الحيط، كده اكتملن، اتلم المتعوس على خائب الرجا.

فاطمة هي سيدة الدار منذ أن توفيت أمها، تدير شئونه وتتصرف فيه كما يحلو لها، زوجات أخواتها يعيشون معها تحت سقف واحد وينصاعون لأوامرها في البيت، ليس فقط لأنها أخت أزواجهن، أو سيدة الدار المسئولة عن كل كبيرة وصغيرة فيه، لكن لأنها سريعة الرد، لسانها لا يرحم، ترمي الكلام ولا تهتم إن تضايقت إحداهن أو حتى اشتكت لزوجها منها، فهي رغم أنها ليست الكبيرة إلا أن لها صوتًا نافذًا في البيت وتُطاع من بعد والدها، مع ذلك هي طيبة القلب، لا تحمل سوءًا لأحد في قلبها،

ربما تجاذبها وتناحرها مع زوجات أخيها، بسبب اجتماعهن المتواصل ليل نهار، يقمن بأعمال البيت معًا، ويحضِّرن الطعام معًا، وكل هذا تحت قيادة وأوامر فاطمة، التي تعمل معهن يدًا بيد، كل أطفال البيت سواء عندها، لا تفرق بين أطفالها وأطفال أخواتها، رغم بعض الضيق الذي تحمله نساء الدار منها، إلا أنهن حَبَبْنَها؛ لأنها تدافع عنهن أغلب الوقت إذا تشاجرت إحداهن مع زوجها، وتمنع عنهم آذاهم، فلا تسمح لأحد منهم أن يضرب زوجته مهما حدث منها، حتى الأمثال التي لا تكف عن إطلاقها بداعٍ أو بغير داع، كان الكل يعتبرها أمرًا مضحكًا، فلا أحد يعرف هذه الأمثال أو سمع بأغلبها من قبل، ولا يعرفون حتى من أين تعلمت هي كل هذه الأمثال أو كيف عرفتها.

في المساء جلست مع فاطمة وعرفت منها أن أخاها الأصغر كان قد تزوج بفتاة أخرى من قبل، لكن يدها على حسب قول فاطمة «طويلة»، تأخذ أشياء لا قيمة لها وتخبئها في غرفتها بين ملابسها، أو في سحاراتها، حاول أن ينصحها كثيرًا، وهي أيضًا حاولت معها وأخبرتها كما يقول المثل: «اللص العيار ما يسرق من حارته شيئًا»، لكنها لم تكف ولم ترتجع، فطلقها، وأعادها لأهلها، حزن فترة، لكنها صممت على أن تزوجه بأخرى وطلبت منه أن يحمد الله أنه لم يرزقه منها بأطفال، فيكبرون ويصبحون سارقين مثلها، ذهبت إلى زوجته المطلقة وأعطتها مؤخرها وحقوقها الشرعية؛ لأنها مثل أبيها وأخواتها، لا يحبون أن يظلموا أحدًا، لكنها قابلتها بالردح والسباب، فتركتها وانصرفت بعد أن تركت ما معها من مال لأبيها، تنهدت قائلة:

- بعد ما آكل واتكا قال دا ريحة عيشكم مستكة، ناس قليلة الأصل، لا يثمر فيهم شيء، أبو هذه الفتاة فقير يعمل عند أبي،

وحالتهم غير ميسورة، ورغم ذلك لا تكف زوجته عن الإنجاب، كل عام أو عامين تنجب طفلًا، عندها ما يقرب من عشرة أبناء الآن أو أكثر لم أعد أذكر، حبلة ومرضعة وقدامها أربعة.

لم تتمالك السيدة مريم نفسها وضحكت، ظلت تضحك حتى دمعت عيناها، وسألتها:

- من أين تأتين بكل هذه الأمثال، أنتِ امرأة غريبة.

هزت كتفيها:

- لا أعرف.. !! من الدنيا.

في الصباح بعد أن اجتمعوا وتناولوا الإفطار، طلب علي وحسن وهند أن يصحبهم أبوهم معه، ليتفرجوا على الأرض الزراعية، ويركبون الحمير، أحضر الشيخ محمد الورداني كارتة يجرها فرس ناصع البياض، ودعا محمود وأولاده أن يركبوها، نادى على إسماعيل كي يذهب معهم، ليريهم الأرض التي ورثوها والبيت.

ساروا على نفس الطريق الذي أتوا عليه، حتى وصلوا إلى منزل كبير، أخبرهم إسماعيل أنه دار بن لقمان، الذي حُبس فيه أحد قادة الفرنساوية الصليبين قديمًا، قال السيد محمود لأبنائه:

- لقد كان جدكم الكبير لأمي، مشاركًا في هذه المعركة.

نمت منهم آه تعجب وهند صفقت بيديها سعيدة بما ترى وبما تسمع، وقفوا جوار مسجد علموا من إسماعيل أنه مسجد الملك الصالح أيوب ويطلقون عليه مسجد المحمودية، المسجد كان تحفة معمارية وبه استراحة للزوار كان يقيم فيها المماليك الزائرون قديمًا، هتف علي:

- إنه قريب الشبه من المساجد في شارع المعز لدين الله.

رد عليه السيد محمود:

- المساجد في بر مصر كلها أغلبها مبنية على طرازات قريبة من بعضها.

أشار إسماعيل على زمام الأرض الزراعية، وهو يقول:

- الأرض من خلف مسجد المحمودية، مرورًا بمسجد ريحان الذي يظهر هناك، وحتى بداية أرض الشيخ عبد القادر جارنا هي كل الأرض التي ستوزع في الميراث، ولك فيها النصيب الذي أخبرك به أبي الشيخ محمد، والبيت هو البيت القائم جوار مسجد ريحان.

رفع محمود يده فوق عينيه ليحجب الشمس كي يستطيع أن يرى جيدًا:

- إنه مسجد قديم.

رد إسماعيل:

- لم يجدده أحد من أيام عبدالرحمن كتخدا، أي منذ أكثر من مائة عام.

الفلاحون في الأرض بدا عليهم أن حياتهم مليئة بالبؤس والشقاء، النساء يعملن جوار الرجال الذين تشققت أيديهم كأرض ظمأنة لم تروَ منذ سنوات، ضامرات عجفوات في ملابسهن المتشحة بالسواد، حدادًا على حياتهن ودنياهن المزرية، ربما نسين كونهن إناث، جلابيب الرجال مربطوة على خصرهم بحبال، لا أحد يدري إن كانت مشدودة لتمسك الجلباب، أم لتربط على بطونهم وتقلل إحساسهم بالجوع، أصحاب الأرض من الفلاحين الفقراء هنا عانوا سنواتٍ، ولم

يدركوا أن القصبة تغيرت وقل طولها للاحتيال عليهم، فقد كان يقتطع منها بوصة كل سنتين أو ثلاث ولم يدركوا هذا، إلا أنهم اكتشفوا بعد سنوات طويلة أن القصبة المستعملة أصبحت ثلاثة أرباع ما كانت تستخدم منذ سنوات تحت حكم المماليك، بالرغم من أن الفدان الذي يدفعون عنه الضرائب ما زال يحتوي على نفس عدد القصبات، رائحة البرسيم كست الجو ولونه الأخضر فرش الأرض بمنظر مريح للأعين، وأحد الزارعين فرد ظهره واقفًا يتابع الزوار الغرباء وشعرات شاربه واقفة مثل أشواك القنفذ، فتهيبت هند من منظره.

نزل الأطفال الثلاثة يجرون في الأرض الزراعية، بعد أن وقف أبيهم مع إسماعيل تحت شجرة توت قريبة من طرف الأرض، جرت هند في خفة تحاول أن تسبق أخويها، وهي تتلفت لتلوح لأبيها كل بضعة خطوات، ثم تعود تنظر أمامها تحاول أن تتجنب السقوط وتطارد علي وحسن الذي سقط منكفئًا على وجهه، ضحك عليه علي، ونادى هند ليخبرها، فضحكت لما رأت حسن ينهض وقد اتسخت ملابسه طينًا، وعلى أرنبة أنفه أثر الطين الذي انغمس وجهه فيه، رأت كلبًا صغيرًا، طاردته حتى عادت إلى التوتة التي يقف تحتها والدها، أمسكها السيد محمود وقال:

- اتركي الكلب الصغير يعود لأمه، لا تضايقيه.

ردت وهي تتملص من بين يديه لتنزل:

- كنت سألعب معه قليلًا.

نزلت ودارت للناحية الأخرى من شجرة التوت، ورأت الكلب قد ابتعد هاربًا منها بين البرسيم، سمع والدها وإسماعيل صراخها:

- فاااار..

لحق بها أبوها وحملها مرة أخرى بين ذراعيه، مهدئًا إياها ومربتًا على ظهرها:

- لا تخافي إنه مجرد فأر.

أشارت للفأر وهي تصرخ:

- انظر يا أبي إنه يرقص!!

صوب السيد محمود نظره للفأر، وأدار إسماعيل رأسه ناحيته، في نفس الوقت الذي وصل فيه الولدان علي وحسن، ليشاهدوا معًا فأرًا كبيرًا ابتلت فروته، يجري بضعف تشتبك قدماه مع بعضهما، فيسقط على جانبه كلما حاول النهوض والجري، ثم دار على نفسه وسقط على ظهره وتشنج جسده عدة مرات وهو ينزف دمًا، قبل أن يهدأ ميتًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢٩-

بعد الظهر بقليل تجمع الرجال ملتفين حول الغداء، حكى إسماعيل ما رأوه قبل الظهر جوار شجرة التوت، وأخبر والده الشيخ محمد أنه رأى عدة فئران يتصرفن بنفس الطريقة، كما شاهد فأرًا ميتًا جوار بيتهم، وآخرَين في مناطق متفرقة في طريقه إلى البيت في الأيام السابقة، خرجت الكلمات بطيئة من فم الشيخ محمد الذي جلس واجمًا:

- فليرحمنا الله، وليرأف بنا ويخيب ظني.

سأل محمود وقد خامره الشك أيضًا:

- وما هو ظنك؟!!

رد بصوت مبحوح:

- الطاعون.. أشعر به يدق على الأبواب.

سرى التوتر بينهم، وسأل علي والده، فهمس أنه سيخبره فيما بعد.

جلس الشيخ محمد واجمًا بعد أن أنهوا طعامهم، وبعد فترة من صمت بدأ يحكي لهم عن الأعداد الكبيرة من الناس التي لقت حتفها بسبب هذا المرض اللعين، بعد انتشاره عام ١٧٩١ و١٧٩٢ في أنحاء مختلفة من بر مصر، وكان من ضحاياه زميل دراسته وصديقه الشيخ مرتضى الزبيدي، ثم أتى مرة أخرى طاعون عام ١٨٠٠ أيام الحملة الفرنسية، قال إن الأخبار كانت تصلهم مع وصول المراكب النهرية، فعرف أن الطاعون فتك بمناطق الصعيد خاصة أسيوط، وأن الفرنساوية انزعجوا في شدة وخافوا واضطربوا من ذلك، فجردوا مجالسهم من الفرش،

وكنسوها وغسلوها، وشرعوا في عمل كرنتيلات، وأمروا بحرق الثياب التي على أجساد الموتى من الوباء، ومع كل تدابيرهم كانت مستشفياتهم تغص بالمرضى حيث كانت الحمى الوبيلة تحصدهم حصدًا، وفي أماكن كان الفرنسيون يعطون جنودهم شرابًا يعجل بموتهم من شدة آلامهم ومعاناتهم من المرض، فتك المرض بالكثير وقال البعض إنه استوطن في المنيا وأسيوط ولن يخرج منها.

ثم أردف:

- لقد وصل هنا منذ سنوات عدة بعضٌ ممن تخرجوا من القصر العيني، وفتحوا عيادة قروية هنا بناءً على أوامر الباشا الوالي وكلوت بك، فليساعدهم الله على ما هو آت، وليرحمنا أجمعين.

بعد العصر خرج الرجال لحضور عرس أحد الفلاحين يدعى عبد الرحمن، يعمل في أرض الشيخ محمد، خرج معهم السيد محمود واصطحب معه علي وحسن، وبالطبع هند لم تتركه يغادر البيت إلا وهو يحملها، مروا تحت أعلام من الحرير الأخضر والأحمر متدلية من حبل ممدود عبر الطريق بين بيت العريس وبيت مقابل له، وفوقهم عُلقت نجفات عدة من مصابيح ملونة، ومُدت ظلات من قماش الخيام بلونين أبيض وأخضر من أسطح المنازل، فأعطت ظلًّا وارفًا، مر موكب العروس المغطاة بشال كشميري أحمر اللون تحت ظلة وردية، محفوفة بجمع غفير وهناك فتاة تُهوي لها بمروحة.

اندهش السيد محمود عندما علم أن هذا هو التقليد المتبع وأنه ليس هناك بذخ، بل إن الفلاح يشتري للعروس خروفين ومائتين مكيال من الدقيق، وما يتناسب مع هذه الكمية من الزبد، هذا

غير فاكهة الموسم، حتى لو اقترض المال من أجل هذا، وكل الأهالي يُحضرون الهدايا معهم للعريس وهم ذاهبون للعرس.

بعد أيام وصلتهم أخبار من دمياط والإسكندرية أن أوامر محمد علي باشا أقرت فرض كردونا صحيًّا على الموانئ هناك، حتى لا يدخل الطاعون عبر الموانئ المصرية الواقعة على البحر المتوسط، قامت الشرطة والجيش هناك بحبس ضحايا الطاعون في مستشفيات الأمراض المعدية وحرق متعلقاتهم الشخصية، السفن القادمة من موانئ البحر المتوسط المشتبه في وجود الوباء على سطحها كانت تخضع لإجراءات عزل صحي أيضًا، فأُرسلت إلى السفن أوامر تخبرها أنها سترسو مجبرة فترة لا تقل عن أربعين يومًا في البحر بعيدًا عن الشاطئ قبل أن يُسمح لها بالدخول، كان أمرًا صعب التنفيذ لكن الصرامة والحزم التي اتبعهما محمد علي باشا لم تكن تسمح بالتهاون، فقد كان يخشى تفشي الطاعون أكثر في البلاد، فيفقد قدرته على السيطرة عليه وتحجيمه، ولم يكن أول من نفذ هذه التعليمات، فمدينة البندقية قد سبقته بنفس الأوامر لما منعوا السفن من الرسو على شاطئها بعد أن اكتشفوا أن الفئران التي تحملها السفن أحد أسباب انتشار الطاعون لديهم.

بعد أسبوع بالضبط وصلت قوات إلى مديرية الغربية، وهناك قابل ثلاثمائة شيخ من شيوخ القرى قائد القوات المسئول عن زمام المديرية، وأكدوا له أن فلاحيهم التابعين لهم لا توجد بينهم إصابات بالطاعون، اقتنع بكلامهم وصدقهم، لكنه علم بكذبهم بعد بضعة أيام لما وصلته الأخبار أن ستمائة وخمسون شخصًا، وهو تقريبًا نصف سكان إحدى القرى ماتوا بسبب الطاعون.

وفي قرية أخرى مجاورة اكتسح الطاعون أهلها فمات منهم الكثير، وفي لحظات امتزج حزنهم مع غضبهم مع القسوة التي عانوا منها مع أهلهم وذويهم من القوات والعساكر، قتل بعض الناجين من الوباء الجنود الذين أرسلهم محمد علي باشا ومنعوا القوات التي قدمت فيما بعد من استرداد جثث زملائهم، فأُرسلت الأوامر بتشديد وفرض تدابير أخرى ضد الطاعون في غاية القسوة، ففي كل القرى المحيطة المشتبه فيها، تم الفصل بين الضحايا الأحياء وأفراد الأسرة الأصحاء، وضع المصابون في مراكزَ للعزل على أطراف القرى، والقرية التي يوجد بها إصابات تحاط بأكملها بكردون صحي يحرسه جنود تلقوا أوامرَ مشددة بإطلاق النار عند الضرورة، على كل مَن يحاول الخروج خارج الكردون، دون حتى أن يتحققوا إن كان مريضًا أو مصابًا أم لا، فالأوامر كانت صارمة، والتنفيذ كان حازمًا.

انتشر الخوف والفزع بين أهالي القرى القريبة والمدن الصغيرة، خوفًا من تسعُّر المرض، بعد أن ظهرت حالات ليست قليلة في المنصورة، كان أولها عبدالرحمن العريس الذي حضروا عُرسه من أيام مضت، بدأ يومه يشكو من تعب حل عليه، عَزَتْهُ عروسه أنه ربما أتخم نفسه في عشاء الليلة السابقة فأصابه سوء هضم، ارتفعت درجة حرارته، وفي المساء ظهرت بعض الأورام والخراريج تحت إبطه وأعلى فخذته، وبرزت بثور وراء أذنه، علت وجهه صفرة كصفرة الموت، وفي الليل ضاق نفسه ووجد صعوبة في التنفس، فكان نفسه يخرج ويدخل بصعوبة كأنه يعاني من تنفسه الهواء فبدا وكأنه يُصيح كالديكة، في صباح اليوم التالي ظهر خراج كبير في باطن فخذة العروس التي لم يكتمل أسبوعٌ على فرحها وشعرت بنفس التعب والهبوط الذي صاحب

عريسها في اليوم السابق، في العصر استيقظ عبدالرحمن على غثيان استمر حتى بصق دمًا يميل إلى الاصفرار، مات في خلال يومين بعد معاناة دامت ساعات من التشنجات العضلية، ولحقت به عروسه بعد يومين، بعدها ظهرت حالات عدة في ديار متفرقة لم تكن حتى قريبة من بعضها، كانت آثار العدوى والمرض تظهر على المريض فتقضي عليه ويلقى حتفه في خلال يومين على الأكثر، وكثيرًا ما كانت العدوى تنتقل إلى بقية أهل المريض فيلحقون به إلى الدار الآخرة في نفس الليلة أو في الليلة التي تليها.

وقف الخطباء على المنابر يحذرون الناس والفلاحين من الطاعون، وأنه لم يحصد مرض عددًا من البشر مثل الطاعون، فهو الذي قوض دولًا بكاملها، وأفنى شعوبًا بأسرها، وقال أحد الخطباء إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر الطاعون فقال:

- أتاني جبريل بالحمى والطاعون، فأمسكت الحمى بالمدينة، وأرسلت الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم، ورجس على الكافرين، ووخز أعدائكم من الجن، غدة كغدة الإبل تخرج في الآباط والمراق، من مات فيه مات شهيدًا، ومن أقام فيه كان كالمرابط في سبيل الله، ومن فرَّ منه كان كالفار من الزحف.

وقال خطيب آخر في خطبته:

- عن عائشة رضي الله عنها: الطاعون كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، وإن الله جعله رحمة للمؤمنين، فليس من أحد يقع له الطاعون فيمكث في بلده صابرًا محتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد.

كانوا يحاولون على المنابر الشد من عزيمة الناس وحثهم على النظافة والاحتماء بالبيت والجلوس فيه.

في صبيحة أحد الأيام، استيقظ الأهالي على نسمة دافئة في الأجواء وسماء زرقاء رطبة، ورائحة الندى والزرع تغزو الصدور، ووصول بعض الأطباء من غير المصريين إلى المنصورة، كان معهم من يترجم لهم، أخبرهم المترجم أن هؤلاء الأطباء أتوا من البلاد التي تقع على حدود الدولة العثمانية، واسمها روسيا، ملامحهم غريبة بالنسبه لأهالي المنصورة، فأغلبهم كان أشقر الشعر بأعين زرقاء كلجة ماء، لم يروا كهؤلاء بشر من قبل، لكنهم سمعوا عنهم في حكايات الحملات الصليبية التي أتت على البلاد، الأطباء الروس لم يكن في نيتهم الخفية عن الأهالي علاجهم من الطاعون، بل استخدامهم لدراسة المرض، فطلبوا من بعض الناس الذين اختاروهم أن يرتدوا ملابس من أصيبوا وماتوا بمرض الطاعون، على أنهم سيدفعون لكل واحد منهم خمسة قروش لليوم الواحد، لم يصدق الأهالي خصوصًا الفقراء منهم، في ظل الظروف الضنك التي يعيشوها هذا المبلغ مقابل عمل لا شيء، فبعض الفقراء منهم يعتبر أن نصف قرش في اليوم يكفيهم لسد حاجته ليوم كامل، أما خمسة قروش، أي شلن كاملٍ، فمعناه أنه سيكفيه وأهله لمعيشة رغدة حسنة، وربماً يدخر منه أيضًا، مع انبهارهم أمام العرض الروسي السخي، تجمع الفقراء وتدفقوا بأعداد كبيرة يعرضون نفسهم، لم يخطر في بالهم الخطر الذي يمكن أن يصيبهم، من تعرضهم وإصابتهم بمرض الطاعون، كان لسان حالهم، أحيني وأطعمني اليوم، وأمتني غدًا، حتى إن أحد الرجال كان يلح قائلًا:

- في عرضك يا خواجة، أنا رجل فقير عجوز ولي أسرة معلقة في رقبتي، أرجوكم لا تقولوا لي لا وتردوني لأهلي خائبًا، ودعوني أرتدى الجلباب، أبوس إيدك يا خواجة.

حتى النساء تزاحمت حول البيت الذي يقيم فيه الأطباء الروس، يشجعون رجالاتهم، ويدعون من الله أن يعمل الرجال الذين يعولونهن ويرتدون الجلباب.

وقع الروس في حيرة واستغراب شديدين، فلم يمت أحد من لابسي الجلباب، رغم أنهم لجأوا بعد أيام لتسخين الجلاليب، ومع هذا ظل الفلاحون المساكون المحتاجون أحياءً رغم حماقتهم التي ألقت بهم في مستنقع جلاليب الطاعون، ظلوا أيامًا يأكلون الطعام المعد الوافر لهم، ولم يمت سوى أحد الأطباء الروس، ولم يعرف الأطباء الروس حتى كيف وصلت إليه العدوى رغم كل احتياطاتهم، لكن الأهالي اطمأنوا مما رأوا أن المرض غير معدٍ، لكن الفئران الموبوءة بدأت تخرج من جحورها مُجترئة على الناس في الشوارع والبيوت خصوصًا ناحية شط الترعة الكبيرة المعروفة بالبحر الصغير، مطلقة على الحياة براغيثها المُنغِّصة وروائح الموت الأسود الكريهة.

جنود الوالي وصلوا إلى المنصورة في تلك الآونة، في الفجر استيقظ السيد محمود على صهيل خيول كثيرة حول البيت نظر من شرفة غرفته فرأى كثيرًا من الجنود يتخذون مواقعهم لمحاصرة البلد، كتائب الجنود وصلوا مصاحبين لأطباء مكافحة الطاعون لتنفيذ ما ينبغي تنفيذه للصالح العام، في الصباح عرف من الشيخ محمد أنهم أقاموا كردونًا صحيًّا حول المنصورة كلها، يمنع أي شخص من مغادرة البلد، أو حتى دخولها، يحرسه جنود لديهم أوامر بإطلاق النار على كل المخالفين مهما كانوا.

تجمعت السحب وهطلت الأمطار، كأن الأمطار كانت دموع السماء حزنًا على ما آلت إليه أحوال البلاد والعباد، ظهر الأطباء الغربيون وسط الأطباء المصريين قليلي العدد، الأطباء الإيطاليين منهم كانوا يرتدون على وجههم قناعًا مخيفًا، ذا أنف معقوف أشبه بمنقار طويل بارز باللون الأبيض، كان غايته حماية الأطباء الذين يتعاملون مع مرضى الطاعون من انتقال العدوى؛ حيث كان الإيطاليون ربما نتيجة تاريخهم السابق وصراعهم مع الطاعون، يعتقدون أنه مرض ينتشر عبر الهواء الفاسد والأجواء الضارة، فاخترعوا هذا القناع بمنقاره الطويل، وكانوا يعطرونه بالروائح الجميلة مثل الورد المجفف، والأعشاب، والبهارات.

رغم تهافت الأهالي في البداية للتعاون من أجل الشلن اليومي مع الأطباء الروس، إلا أنهم قاوموا أوامر الأطباء هذه المرة بعد أن أشاع البعض بينهم أنهم يأمرون الأطباء المسلمين بفعل أشياء تتنافى مع الشريعة الإسلامية، لكن تطبيق النظام والأوامر بالنسبة للجنود لم يكن أمرًا يُسمح فيه بالنقاش، تم فرض الأوامر بشمولية ودون تهاون، رغم أنهم أخذوا الحالات الاجتماعية في الاعتبار، فأهالي المنصورة من الطبقة المتوسطة أو العليا الذين يشتبه في مرض أحد أفراد أسرهم كان يتم ترحيلهم مع عزل أهل البيت، وفي المقابل كان يتم تجميع أسر الطبقات الفقيرة بالكامل المشتبه في إصابة أحد أفرادها بالطاعون ليلًا ونقلهما إلى مراكز الحجر الصحي على حافة المدينة، الفصل بين الضحايا الأحياء الذين يوضعون في العزل وبين أفراد عائلاتهم من الفلاحين الأصحاء يتم بحسم، سواء في المنصورة أو في القرى المجاورة فكانت القرية الموبوءة تحاط بأكملها.

داخل حدود الكردون الصحي كانت ملابس ومتعلقات المتوفى بالطاعون يتم حرقها جميعًا، تم ترحيل جميع الفلاحين الآخرين، وفصلهم حسب الجنس ووُضِعُوا في حمامات عامة لتنظيفهم وتطهيرهم، تحميم الرجال كان فرضًا لم يُسمح فيه بالتهاون أو التجاوز عنه، مهما كانت منزلة هذا الشخص، الممرضات المدرَّبات قُمن بتحميم النساء إجباريًّا، احتضنت مريم هند بعد أن قامت الممرضات بتحميمهن بغلظة، رغم أن بطنها ممتدة أمامها لتُعلم الضرير بحملها، ربما بسبب ضيقهن من الأعداد ومن بعض المشاجرات التي أحدثتها بعض النساء معهن، فالنساء من الطبقة الغنية كأمثال السيدة فاطمة بنت الشيخ محمد الورداني تعودت على إعطاء الأوامر وكان يكفيها إشارة من أحد أصابعها لتطاع وينصاع إليها الجميع، فتجاذبت العراك مع الممرضات اللائي يأمرنها ويوجهنها للطريق التي تسلكها أو الطريقة التي سيحممونها بها، جال في خاطر مريم الفرق الشاسع بين هذا الاستحمام والاستحمام الذي استمتعت به آخر أيام رمضان، في الناحية الأخرى للرجال اكتشف الأطباء أن الابن البكرى لإسماعيل ابن الشيخ محمد، لديه بعض البثور خلف أذنه، فقرروا احتجازه، فحاول أبوه أن يأخذه منهم، تدخل الجنود وتجمع اثنان حوله يمنعانه، وضربه آخرُ ودفعه ليسقط على الأرض، حتى ترك الطفل ذا الأربعة عشر سنة، كاد أن يتدخل أخواه وبعضُ أصدقائه، فخاف السيد محمود أن يتطور الأمر أكثر، فأمسك به يمنعه ونهره الشيخ محمد وأشار للباقيين أن يكفوا عمَّا ينوونه ورفع صوته محتدًا:

- لا تسلك مسلك الجهلاء، إن كان مريضًا سينشر بين بقية إخوته وأهله المرض، اتركه هم أعلم بصالحه، وليرحمه وليرحمنا

الله.

ظهر أحد الضباط على صهوة جواده، يصرخ في الجنود أن يتراجعوا، بعد أن أعطوا الصبي للأطباء ليحجزوه، تعرف عليه محمود من صوته، فصرخ مناديًا:

- عبدالله.. عبدالله..

لمحه عبدالله الذي اشتعل في رأسه الشيب، ونمت لحيته البيضاء وطالت، نزل عن صهوة جواده مهللًا ومرحبًا بالصديق الذي غاب عنه سنوات، نظر محمود إلى التشوه في وجه عبدالله الذي أخفى جزءًا من ملامحه فلم يتعرف عليه إلا من صوته، حاول ألا يحدق في الأثر على وجه عبدالله الذي استقبله بين ذراعيه محتضنًا إياه في شوق، ووعده أنه سيأتي ليجلس معه بعد أن تهدأ الأجواء التي هم فيها ويحكي له ما حدث بعد أن لاحظ نظرة التعاطف في ملامح محمود.

بعد الانتهاء من الحمام قُدَّمت لهم ملابسُ نظيفة خالية من البراغيث ووُضعوا لبضعة أيام تحت المراقبة الطبية، طُهِّرَت المساكن وتم تبخيرها بالكافور والصندل والمسك والعنبر، وفي كل وقت يمكن فيه التبخير دون الالتزام بجدول معين، أعطوا الفلاحين أوامر باستخدام ماء الورد والخلة لدهن أجسادهم وخلف آذانهم وتحت إبطهم وصدورهم، وأحيانًا ما كانوا يستخدمون طيب الصندل، كما كانوا يبخرون أبدانهم بالعود أو العنبر أو المستكة، أو قشر الرمان؛ حيث كانوا يضعون قشر الرمان على النار ويرش عليه الخل.

كان من التدابير الوقائية التي أعطوها للناس أيضًا الإقامة في الظل وفي الأماكن الجافة البعيدة عن التيارات الهوائية الباردة،

والإقلال من الحركة الشديدة، فمُنع الناس من التجول في الطرقات دون سبب مقنع، وأمروهم بوضع الملح في الماء قبل الشرب وعدم الاستحمام بالماء الساخن رغم برودة الجو، والالتزام بأكل النواشف فقط والبصل النيئ، والحوامض كالخل وماء الحصرم، أو الرمان، أو السماق، ومنعت اللحوم منعًا مطلقًا.

أطلق الجنود الرصاص دون تردد على أرباب الأسر الذين لم يقوموا بالإبلاغ عن مرض أحد أفراد أسرته بالطاعون، وأشعلو النيران في بعض البيوت التي ظنوا أنها تحتوي على أحد مسببات انتشار الطاعون، حتى لو كان فأرًا صغيرًا، كثيرٌ من الأهالي اعترض سبيل الجنود الذين يقومون بتجميع ضحايا الطاعون وأسرهم؛ حيث كانوا يأخذون الناس تحت جنح الظلام بالقوة الجبرية، والنتيجة كانت قتل بعض الأفراد رميًا بالرصاص، رُوِّع أهالي المنصورة والقرى المجاورة وعاشوا أيامًا مريرة، مليئة بموت أهليهم وأصحابهم، وتم منع الأهالي من تغسيل موتاهم ودفنهم في مقابر ذويهم، فالدفن الصحي للمتوفين كان في مقابر خاصة تُطمر بالجير الحي.

الأهالي لم تتعاون معهم نتيجة لتلك الإجراءات القاسية حتى بعد موت ذويهم، بدأ البعض منهم بحفر مقابر لموتاهم في ساحات دورهم، رغم صعوبة تجهيز الميت في بيته من أجل الدفن فلا يوجد النعش ولا المغسل ولا من يحمل الميت إلا بعد المشقة الشديدة، حتى الأكفان صارت عزيزة غير متاحة، البعض الآخر ممن كان يُخفي مرض أحد أفراد أسرته يترك الجثة في أحد الشوارع البعيدة عن بيته، بحيث لا يمكن التعرف إلى أي

أسرة أو أي بيت تخص، وبذلك يجنبون أسرته العقاب أو التعذيب.

غيمت السماء غيمًا شديدًا، وسقطت الأمطار غزيرة كأفواه القرب مع صوت رعد شديد يهز جنبات السماء، مع برق متتابع في سرعة، متصل قوي اللمعان، يخطف الأبصار استمر طول الليل.

وفي الصباح أصبحت السماء صافية والشمس مشرقة، كأنها ما باتت في غيم وشتاء، انتبه السيد محمود على صوت أحد الجنود ينادي باسمه من الخارج، اضطربوا، وانزعجت السيدة مريم ولطمت على صدرها، لكنهم اطمأنوا لما أخبرهم الجندي أن الميرلاي عبدالله يدعوه لخيمته بعد الظهر.

دخل محمود على عبدالله في الخيمة المغطاة بالشمع التي يقيم فيها رغم البرد والأمطار والقريبة من مراكز الحجر الصحي والعزل الذي يحتجزون فيها المرضى المصابين، اعتذر له عن عدم قدرته على زيارته في الأيام السابقة متعللًا بالأجواء المضطربة من حوله، علم منه السيد محمود أن الوفيات لم تتراجع وأن الطاعون ما زال ينهش في الأجساد، وأن القليلين فقط من استطاعوا المقاومة وعادوا لحالتهم الطبيعية بعد أن تجاوزوا هجمة الطاعون عليهم، سأله عن حاله، فأخبره أنه بعد أن تركه وغادر الجزيرة العربية، انضم للحملة التي أتت تحت لواء إبراهيم باشا، اشترك في كل المعارك معه من حصار الرَّس واحتلال بُريدة ثم فتح الشقراء ومن بعدها الدرعية، بعد أن حاصروها شهرين والمدينة مُستعصية عليهم رغم خُطط الحصار التي وضعها إبراهيم باشا بمعاونة الضابط الفرنسي المسيو فيسير، والتي لم يعملوا فيها حسابًا للعاصفة التي هبت

على معسكرهم وأطارت نارًا كانت موقدة وسط مجموعة من الجنود، فأحرقت بعض الخيام وامتدت النيران لمستودع الذخيرة فانفجر، ونسف الانفجار ما يقرب من نصف ذخيرة الجيش من قنابل ورصاص، وأصيب يومها بهذه الحروق في وجهه فشوهت ملامحه، حتى أن أبواه لم يتعرَّفا عليه حين زارهم بعد عودته من الحرب، بعد الانفجار أصاب الذعر الجنود واضطربوا، لولا إبراهيم باشا الذي ألقى فيهم شجاعته وجَلَدَه، وشدَّ من عزيمتهم وأخبرهم أنه حتى لو لم يبق معهم إلا شجاعتهم فسيهاجمون العدو بالسلاح الأبيض، ثم أرسل يطلب الذخيرة من المواقع الأخرى التي يحتلها الجيش المصري، لكن الوهابيين علموا بما حدث لهم من فقد للذخيرة، فهجموا عليهم، لكن الجنود المصريين نجحوا في ردهم على أعقابهم، واستمروا سجالًا في الحرب، حتى وصلت الذخيرة، وقرر إبراهيم باشا أن يضرب ضربته قبل أن يأتي المدد الذي أرسله الوالي على هيئة ثلاثة آلاف من المقاتلين تحت قيادة خليل باشا، كي لا يشاركه أحد في النصر على الوهابيين، وهجم على الوهابيين حتى لم يعد في مقدور الأمير عبدالله بن سعود المقاومة، فأرسل يطلب وقف القتال حتى يتم الصلح وأتى بنفسه إلى معسكر إبراهيم باشا، فقابله في خيمته بحفاوة وكرم، وتم الاتفاق على التسليم وإرسال الأمير عبدالله بن سعود، ورئيس وزرائه، والزعيم الروحي للحركة الوهابية إلى المحروسة، ومن هناك أُرسِلَوا إلى الأستانة، حيث أمر السلطان بعقد المجلس في القصر القديم في العاصمة، دخل الأسرى الثلاثة إلى القصر مقيدين بسلاسل ثقيلة، محاطين بجمهور من المتفرجين، وبعد المراسيم أمر السلطان بإعدامهم، قُطعت رقبة الزعيم أمام الباب الرئيسي لمسجد آيا صوفيا، وقطعت رقبة الوزير أمام

مدخل السرايّ وقطعت رقبة الثالث في أحد الأسواق الرئيسية في العاصمة، وعرضت جثثهم ورؤوسها موضوعة تحت الإبط على الناس طوال ثلاثة أيام ثم ألقوا بها إلى البحر بعد ذلك، قبل عودتهم أتتهم الأوامر بهدم الدرعية وحصونها وأسوارها، وتخريب منازلها، فنفذوا، دمروها وأشعلوا فيها النيران، فأصبحت أثرًا بعد عين، ثم ارتحلوا إلى مواضع عدة، وغزوا بعض المناطق، وتابعوا السير، حتى وصلوا القصيم، أخذوا معهم أميرها، حجيلان بن حمد، قاصدين المدينة المنورة، ثم عاد إلى القاهرة مع القوات في الحادي عشر من ديسمبر ١٨١٩، بعد أن استكملت القوات إخضاع المدن النجدية بعد أكثر من تسعة أشهر من تدميرهم الدرعية.

عاد للمحروسة ثم سافر مع الجيش من جديد ليشارك في حرب سيوة وفتح السودان، وظل هناك حتى عاد بعد تولي خورشيد باشا حكم السودان، وانضم إلى حاميات الوالي، وأصبح ميرلاي في الجيش، حتى أتته التعليمات بمصاحبة الأطباء في حملاتهم لمقاومة مرض الطاعون.

في القاهرة كانت الأخبار تتجمع وترسل إلى الوالي لمتابعة أحوال ومدى انتشار الطاعون في البلاد، فعلم أن مساجدَ بلبيس وفنادقها وحوانيتها وحتى جوامعها امتلأت بالموتى، وتعطلت بساتين دمياط وأسواقها، وجفت أشجارها، لكثرة موت أهلها ودوابهم، في البحيرة تعطل الصيد بموت الصيادين في مراكبهم حتى السمك الذي يصطادونه كان يخرج في الشبكة ميتًا، وكان يوجد فيه الخراريج التي يصنعها الطاعون ونفقت أعداد كثيرة من الأبقار والجاموس بعد أن وُجد فيها أيضًا الخراريج، وصلت الأنباء للباشا الوالي أن الأعداد التي تموت في مصر ما بين العشرة

آلاف إلى الخمسة عشر ألف نفس في اليوم الواحد، والأدوية لم تكن تُستعمل إلا قليلًا لسرعة موت المصاب بالطاعون، لجأ الناس إلى الورع والتقوى بعد أن أيقنوا باقتراب أجلهم، حتى إن البعض كان يحمل أوراقًا تحتوي على أسمائهم ومحل سكنهم حتى إذا ما صادفهم الموت في الطريق يتعرفوا على جثته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٣٠ -

عاد محمود قبيل المغرب فقابلته زوجته مريم وعلى وجهها مرسوم علامات فزع ورعب، أخبرته أن حفصة ابنة مصطفى الورداني أصابتها الحمى من ليلة أمس، لكن أمها أخفت عنهم الأمر، واليوم ظهرت بضعة خراريج تحت إبطها، توجه إلى الشيخ محمد على الفور، ونصحه أن يرسل الفتاة إلى الأطباء، أخبره أن الميرلاي عبدالله قال له إن البعض تعافى من المرض، كان الوجوم مرسوم على الوجوه، والحزن منقوش في الصدور، لم يدر أن الموت يرفرف بجناحيه في جنبات الدار، قال مصطفى من بين دموعه:

- لا داع المسكينة لم تحتمل ورحلت منذ دقائق.

شعر محمود بقبضة باردة تعتصر قلبه، ولم يجد لسانه ما ينطق به، خرَّ جالسًا على الكرسي المجاور وقلبه يهمس:

- يا إلهي.. ارحمنا يا الله.

نطق الشيخ محمد من بين الدموع المكتومة في عينيه:

- شدد على أهل بيتك يا مصطفى، لا أريد أن أسمع صوتًا أو صرخة واحدة، سندفن حفصة خلف الدار، لن نذهب بها للقبور.

في كنف الليل وعتمته، كفنها جدها في عباءة من عنده، وحملها بين ذراعيه، وتسللوا في الظلام، دون أن يضيئوا أي قنديلَ أو حتى مشعلًاواحدًا، مكتفين بضوء القمر الباهت الذي تسلل من بين السحب، حفروا القبر ووضعوها فيه بعد أن صلوا عليها،

بكى الجد أكثر مما بكى الأب، فقد كانت حفصة من أقرب أحفادِه إلى قلبه.

عادوا للدار وأمر الشيخ محمد كل نساء البيت بدهن جسد أبنائهم بماء الورد والخلة كما أخبرهم الأطباء، بعد أن يحمموا جميع الأبناء بماء بارد، حتى لو صرخوا من شدة البرد، ثم قام بنفسه بإشعال البخور في بهو البيت، وقام بتبخير كل أركان البيت بالكافور والصندل والمسك والعنبر، في الليل احتضن السيد محمود هند التي نامت بعد أن ارتعش جسدها من الماء البارد التي تحممت به في هذا البرد القارس، ظلت عينه مفتوحة يجافيه النوم، يفكر في القدر الذي ألقاه ليلقى الطاعون في بلد غريبة عنه، وسط أهل أول مرة يلقاهم في حياته، وتساءل كيف الحال في المحروسة وحال أصدقائه؟ وكيف يعانون؟ ومن منهم رحل عن الدنيا؟! ومن منهم ما زال يقاوم المرض؟! أسئلة تدور في عقله يحار فيها ولا يعلمها إلا من يكشف الغيب ولا تمنعه المسافات عن المعرفة، انتبه على صرير الباب، فاعتدل من نومته فوجد عليًّا يتحسس خطواته في الظلام، فناداه وسأله:

- لماذا لم تنم حتى الآن؟ وما الذي أخرجك من تحت الغطاء في هذا البرد؟

استيقظت مريم مفزوعة تسأل ماذا هناك، فأجاب علي أن حسن يسعل في شدة ويرتعش تحت الغطاء، هرول السيد محمود وزوجته إلى الغرفة الثانية، تحسس جبهة حسن، فوجدها ملتهبة كجمر الفرن، كشف عنه الغطاء، وتحسس تحت إبطه وفخذتيه، فلم يجد شيئًا، دثره بالملابس وزاد عليه الغطاء، وجعل مريم تذهب لتحضر بعض الليمون، وتحضر بعضِ الكمادات الباردة، داعيًا الله أن تكون حمى من البرد فقط،

ظلّا جواره حتى طلعت الشمس، عاد بعدها محمود إلى سريره جوار هند، بعد أن هدأت الحرارة قليلًا، وفي الصباح استيقظ على دخول مريم الفراش، فسألها كيف الحال، فأجابت وعيونها ثقيلة من أثر سهرها الليلة السابقة، أن الحمد لله قد هدأت الحرارة وأفاق حسن، وأنها تركته لفاطمة التي استيقظت.

جذبت الغطاء على كتفها وهي تتحسس جبين هند المتعرق، فقالت لزوجها:

- يبدو أن هند محمومة هي الأخرى، لم يكن هناك داع من تحميم الأطفال في هذا البرْدِ القَارِسِ بماء بارد.

ضمتها إلى صدرها وغلبها النوم سريعًا، استيقظ محمود على صوت نحيب هند التي استيقظت باكية، اعتدل جالسًا، وحملها على ركبتيه، وتحسس جبينها، فوجد حرارتها قد زادت، أيقظ مريم وأخبرها أن تُعد كمادات لهند لأن حرارتها قد زادت، عادت مريم وفاطمة معها ووضعت الأخيرة كمادة على جبينها، فنهض محمود يتوضأ ويصلي الصبح الذي لم يقو على صلاته في ميعاده، وبينما هو في جلسة التشهد الأخير، جاءه خاطر يرن في عقله، لماذا لم يشك في سخونة هند وفحصها كما فعل مع حسن، ألقى السلام على اليمين وعلى اليسار، ونهض من جلسة التشهد مفزوعًا من الخاطر الذي طاف بعقله، هرول ناحية السرير يتخبط في كل ما هو أمامه، جذب هند يحتضنها، وهو يخشى أن يكشف عنها ملابسها، فيجد ما لا يتمناه، سألته مريم وفاطمة عمَّا به، فلم يجب.

بدأ في جذب ملابسها عن ساقيها، يبسمل ويدعو بشفتيه ويديه ترتعش وهي تمسك ملابسَ هند، لم يجد في بطن فخذتيها

شيء، فحمد الله، فهمت المرأتان حينها لم أتى مفزوعًا وماذا يفعل، كشف عن صدرها وسحب الملابس عن ذراعيها كاشفًا عن إبطها، فوجد ما كان يخشاه خراجان صغيران ظاهران جليان رغم صغرهما.

وقع في قلبه الخوف والرعب، ضم هند إلى صدره، ودموعه تسيل من عينيه، صرخ في قوة رجت البيت ومن فيه:

- رحمتك يا اللاااااااه.

لطمت المرأتان على صدريهما، وصرخت مريم فزعة:

- يا خرابي.. يا خرابي.. ليه يارب .. ليييه؟

وجرت تحتضنها وهي بين ذراعي محمود، الذي علا نحيبه كطفل صغير.

تجمع كل مَن في الدار، على الصويت والصريخ والعويل، وقف الجميع على باب الغرفة، وجرى علي وحسن الذي أفاق قليلًا وجريا ناحية أختهما يبكيان ويرتميان بين أبيهما وأمهما يحاولان احتضان هند، ارتفع صوت الشيخ محمد من الخارج صارخًا:

- على ماذا تتفرجون، ابتعدوا من هنا.. اخرجوا.

ضرب بعصاته التي يتوكأ عليها أقرب الواقفين إليه، فابتعد الباقون كبيرهم وصغيرهم مهرولين، دخل الغرفة، وأمر فاطمة بأن تأخد علي وحسن ومريم وتخرج بهما، صرخت مريم أنها لن تترك ابنتها، وأشارت لعلي وحسن:

- اخرجا مع عمتكما ولا تقتربا من هنا.

قال الشيخ محمد في قوة:

- وأنت معاهم يا مريم وجودك لن يشفيها.

نهض محمود حاملًا هند بين ذراعيه وهو يقول:

- سأذهب بها للأطباء.. سيعالجونها وستشفى.

ربت عليه الشيخ محمد وهو يقول من بين دموع ترقرقت في عينيه:

- سآتي معك يا ولدي، إنها حفيدتي هي الأخرى.

صرخت مريم باسم هند ومحمود يحملها ليخرج بها من الدار مع الشيخ محمد، وفاطمة وبقية نساء البيت يمسكون بها ليمنعوها من الخروج خلفهم، ظلت تصرخ وتصرخ حتى سقطت مغشيًّا عليها من شدة الإرهاق، انطلقت الكارتة بهم، تنهب الأرض نهبًا حتى وصلوا لمقر الأطباء ومراكز الحجر الصحي وأماكن الحجز والعزل، قابلته إحدى الممرضات أخذتها من بين ذراعيه، وهي تخبره أنه لا يستطيع الدخول معها، صرخ وصمم على الدخول معها، فتجمع بعض الجنود، وصرخ فيه أحدهم أنه سيطلق عليه النار إن لم يرتجع، جذبه الشيخ محمد محاولًا تهدئته، لكنه اقتحم صف الجنود فقابلوه بكعوب بنادقهم حتى سقط على الأرض والدماء تسيل على جبينه، مد يده وهو على الأرض وسحب سيفًا معلقًا في جراب أحد الضباط وهب واقفًا من جديد، رفع أحد الجنود بندقيته ليطلق على محمود النار، فعاجله بضربة من طرف السيف على يده فطاشت الطلقة في الهواء، اقترب منه يمسك البندقية وهي تسقط من يده، ولكمه في فكه، أدار البندقية بين يديه ليضرب بها آخر حاول أن يضربه من جديد بكعب بندقيته، وخطفها منه، وأطلق منها طلقة على أقرب المهاجمين عليه، ثم طوح بها في وجه آخر، حاول الشيخ محمد أن يلقي بجسده بين الجنود وبين محمود ليمنعهم من

الاستمرار في الضرب فسقط على الأرض واقعًا، بدأ الجنود في التجمع على أصوات الصريخ والشجار، وصوت الطلقات التي دوت، في نفس اللحظة خرج الميرلاي عبدالله من خيمته على صوت الشجار الواقع، فلما لمح محمود يصرخ، وهو يصارع ويصرع الجنود هتف بصوت كالرعد:

- تراجع أيها الجندي.. تراجعوا أيها الحمقى.

سحب كرباجه وهوى به على الجنود الذين يهاجمون محمود، فأصاب أقربهم إليه، تراجع الباقون مفزوعين، من ثورة قائدهم غير المتوقعة عليهم، ترك عبدالله كرباجه يسقط جواره، ومد يده يساعد صديقه على النهوض، ومحمود يصرخ من بين ألمه ودموعه ودمائه:

- هند يا عبدالله.. هند أخذوها مني بالداخل.

احتضنه في قوة محاولًا تهدئته:

- اهدأ يا محمود اهدأ.. ستشفى بإذن الله.

ساعد الشيخ محمدًا على الوقوف وأمر الجنود أن يدخله لخيمته ويمسحوا عنه التراب، وسند محمود على ذراعه وسار معه إلى داخل خيمة الحجر، ولم يتركه إلا وهو جالس جوار هند النائمة على السرير، أمسك بيدها الصغيرة بين يديه، قبلها، وخرَّ راكعًا جوارها على الأرض يبكي وهو يقول:

- إنها الزهرة التي أنبتت الحياة في قلبي.. طفلتي الوحيدة، كيف يريد أن يحرمني الله منها؟

اقتربت ممرضتان منه، جذبوا يد هند منه في هدوء، وقالت له إحداهما:

- ما دمت ستجلس معنا سنقوم بتطهيرك كما نفعل مع الممرضين.

ثم قاموا بنزع ملابس هند عنها، وحضر آخر يأخذها ويحرقها في الخارج بعيدًا عن مكانهم، مسحوا جسمها بالمطهرات، وقاموا بوضع بعض الدهانات على الخراريج أسفل إبطها، وغطوها بالشاش، وسكبوا بعض أشربة الدواء في فمها، حينها عاد السيد محمود وقد ارتدى ملابسَ أخرى نظيفة، بعد أن تحمم وقاموا بتطهيره كما فعلوا يوم الاستحمام الجماعي، جلس جوارها وأمسك بأصابعها الصغيرة وعاد يناجيها وهي تائهة من شدة سخونتها.

وفي المساء حضر أحد الأطباء الأجانب مع إحدى الممرضات، ووجهه مغطى بكمامة، وقاموا بنزع الشاش عن الخراريج، ثم قام بفتحها وتصريف الصديد المتجمع داخل الخراريج، ثم طهرها مرة أخرى وقام بدهنها بدهان آخر معه، وغطاها من جديد بالشاش، وكان يأتي من يناوله بعض الدواء بالفم كل بضعة ساعات.

بات ليلته جوارها ساهرًا، يغفو وهو جالس، ويستيقظ حين تسقط رأسه على صدره، يغفو فيرى هند تجري وتلعب وتعلو ضحكتها كعادتها، ثم يفيق ليراها ممددة أمامه، تهذي في سخونتها، فيتذكر ما أصاب طفلته ونبض روحه وأمله في الحياة، ويعتصر الخوف قلبه خشية أن يفقدها، وفي البيت لم يكن حال مريم أو حتى علي وحسن بأفضل من حالها، ظلت مريم ساهرة جوار المشربية الكبيرة التي ترى منها الطريق التي حملت هند إلى منطقة العزل التي أقامها الأطباء، تلمح أضواء نيرانها من بعيد، ودموعها تسيل على خدها وتغرق صدرها، لا

تستطيع أن تمنعها أو تكف منذ أن عاد الشيخ محمد الورداني وقص عليهم ما حدث، جوارها غفا علي وحسن بعد أن ظلَّا مستيقظَين لوقت متأخر جوارها، لم يبق مستيقظًا معها إلا فاطمة تحاول أن تواسيها، وتصبرها، وتطمئنها بأن هند ستشفى وتعود لحضنها من جديد.

في الصباح انتبه محمود على صوت سعال هند، بعد أن خانته قواه وسقطت رأسه جوارها على السرير بعد الفجر بقليل ونام، نادى على ممرضة كانت جالسة قريبة منه، بعد أن زادت حدة السعال، حتى أصبح يخرج من فمها ومن أنفها قطرات ورذاذ من الدم مع السعال، مسحت لها الممرضة الدم، وأمرته أن يتراجع للخلف قليلًا، كشفت الملابس عن جسد هند فلاحظت تخثّر الأوعية بشكلٍ كامل، وانتشار الحبوب الجلديَّة في جميع الجسم، بعضها ظهر على وجهها، أعادت الملابس عليها، وعادت تجلس مكانها، سألها محمود:

- ماذا هناك؟ ماذا وجدتِ؟

ردت عليه في هدوء كأن الأمر لا يعنيها أو يخصها:

- ادع لها الله ليرحمها.

جلس جوارها، حملها بين ذراعيه وأراحها على ركبتيه، وجعل خده يلامس خدها، شعر بأنفاسها تتسارع، تكاد تعاني منها، لم يفكر في احتمالية أن يصاب بالطاعون من أنفاسها القريبة منه، ولا من دموعه التي سالت كنهر جارف واختلطت بدمها الذي لوث صدرها من سعالها، كل ما جال في خاطره أن صغيرته تحتضر بين يديه، ربما تلفظ أنفاسها الأخيرة الآن بين ذراعيه، لا يملك ما يفعل، ولو كان بإرادته لبادل حياته وعمره ومستقبله

وأيامه كلها، بيوم تعيشه معه فيه من جديد، تذكر يوم ولادتها، وسبوعها، تذكر حين كانت تصر على أن يحملها على كتفيه وهي معه في الشارع، حين تستقبله على باب الدار، حين عودته، بالصياح والفرح والضحكات، السعادة التي ملأت بها حياته، تضيع الآن وتنفلت من بين أحضانه، زادت نوبة سعالها، وأحس بها تنتفض بين ذراعيه، وجسدها ينتفض كأنه ينقبض وينبسط، مرت الدقائق سريعة، ثم هدأت فجأة بين ذراعيه، أحس بالموت الذي خطف روحها وترك له جسدها هامدًا ليواريه التراب، شعر بطعنة القدر بسكينه البارد يخترق ضلوعه ويستقر في قلبه، نهض واقفًا وهو ما زال يحتضنها بين ذراعيه، وخده على خدها، تحرك في هدوء ودموعه تفيض من عينيه، لم يبال بنداء الممرضة عليه، ولا بقولها أنه لا يستطيع أن يأخذها ويرحل، خرج وكأن كل ما حوله فراغ لا يعنيه ولا شأن له به، نادت الممرضة على بعض الجنود الذي وقفوا أمامه مرتبكين لا يعرفون ما يفعلونه، أيمنعونه ويجازيهم الميرلاي عبدالله، أم يتركونه يرحل بجثة الفتاة، فيجازيهم أيضًا، اعترضه أحد الضباط وحاول أن يستوقفه وملامحه تبدو عليها الشفقة والتعاطف، إلا أن محمود تجاوزه ولم ينظر حتى إليه، همَّ الضابط بأمر الجنود لتوقيفه، إلا أن صوت الميرلاي عبدالله أنقذ الجنود من حيرتهم لما أمرهم بالتراجع، نادى على أحد الجنود ليحضر له فرسين، وأسرع لملاقاة محمود الذي ظل سائرًا في الطريق ولم يلتفت إلى الفرس الذي أحضره عبدالله ليركبه، ربت عبدالله على كتف محمود الأيمن وسار جواره دون أن ينطقا بكلمة واحدة طوال الطريق، هطلت الأمطار خفيفة تبلل الأرض بعد أن غيمت السماء كأنها تشاركهم الحزن، بللت الأمطار ملابس هند، سالت بعض القطرات على خده وسقطت على وجهها، فضمها أكثر

لحضنه ليحميها من ماء المطر، خرج بعض الرجال من بيوتهم لما رأوه يحمل ابنته، وساروا خلفهم، ازدادت الأعداد وتجمع الناس في مسيرة جنائزية مهيبة حتى اقتربوا من بيت الشيخ محمد، لمحتهم السيدة مريم من خلف المشربية، فهمت على الفور ماذا حدث، صرخت وارتفع صراخها وعويلها، نزلت مهرولة تتكفأ على وجهها على السلالم، وخلفها فاطمة ونساء الدار يحاولن أن يمنعنها، قابلت محمود واحتضنت هند وهي بين ذراعيه لم يفلتها، جلست في الشارع أمام الدار تصرخ وتنتحب، وتحمل التراب من الأرض وتضعه على رأسها، لحظتها خرج الشيخ محمد ونادى على فاطمة لتحمل مريم مع زوجات أخيها ويدخلنها الدار، قابل محمود واحتضنه وقبَّل جبين هند، لحظات عصيبة مر بها محمود وهو يرى طفلته التي لم تعطها الحياة أي فرصة للنجاة تُكفن أمام عينيه، رأى نور حياته ينطفئ، ويوضع في التراب ولا يقدر على منعهه، كانت تخشى أن تنام بمفردها في غرفتها، والآن سيتركها في ظلام القبر لحالها.

صلوا عليها وأمهم الشيخ محمد، دُفنت جوار حفصة، جلس جوار قبرها يبكي دون انقطاع، والسماء من حوله ما زالت تبكي ممطرة، حاول الشيخ محمد وأبناؤه ومعهم الميرلاي عبدالله الذي لم يترك محمود ويرحل وهو في هذا الموقف وعلى هذا الحال أن يثنوه عن جلسته هذه، لكن لم يقدر أحد على زحزحته من مكانه، ظل جالسًا في مكانه حتى انتصف الليل ودموع عينيه لم تنقطع، بقيت مريم في غرفتها تبكي وتنوح من لحظة أن أدخلوها عنوة محمولة إلى غرفتها داخل البيت، قبل منتصف الليل بدقائق بدأت تشعر بانقباضات شديدة تتسارع في بطنها،

ظلت تتجاهلها وتكتم ألمها، حتى صرخت متأوهة في شدة وفي ألم وهي تمسك بطنها، بعد أن شعرت بنزول الماء:

- إنني ألد..

أشارت فاطمة إلى إحدى زوجات أخيها لترسل أحد الرجال ليحضر القابلة الداية في سرعة، وفي دقائق كان محمد أصغر أبناء الشيخ محمد الورداني قد أحضر الداية، وصلت ومريم تصرخ وتنازع وتتأوه من آلام الوضع، حاولت فاطمة أن تساعدها على تجاوز لحظات الولادة ببعض الكلمات وهي تمسح العرق الذي تصبب على جبين مريم، جلست الداية بين ساقيها ترشدها وتدعوها للحزق لمساعدة طفلها القادم، حتى خرجت رأسه للنور من بين ظلمات الرحم، ارتفع صراخه الباكي قبل حتى أن يكتمل خروج باقي جسده، قصت الحبل السري الواصل بين الأم وطفلها، وناولته لأمه قبل أن تمسح عنه ماءه ودماءه، والطفل يصرخ باكيًا كأنه يعترض على خروجه من رحم أمه، ولم يهدأ حتى أخذته مريم بين ذراعيها تضمه إليها.

أسرعت فاطمة تخبر مَن بالخارج، وجرى علي وحسن ناحية أبيهم الجالس جوار قبر هند، ظلَّا يناديان عليه حتى اقتربا منه، نطق الاثنان معًا وأنفاسهما تتلاحق، فلم يفهم منهما شيئًا حتى هدأوا قليلًا ونطق علي:

- لقد ولدت أمي.

نهض متثاقلًا من جوار القبر، أمسك بولديه كلٍّ في يد، وسار معهما في بطء إلى الداخل، صعد إلى الدور العلوي حيث الغرفة التي ولدت فيها مريم، تقدم ناحية مريم والطفل الوليد، ودموعه

تختنق في مقلتيه، ناولته مريم الوليد وهي تقول باكية من وسط دموعها:

- إنها فتاة.

حملها بين كفيه، نظر إلى وجهها المستدير كالبدر، وعينيها الصغيرتين مغلقتين، وصوت بكائها ضعيف، رفعها لأعلى وهو يقول بصوت مخنوق بالدموع:

- هند..، هند محمود علي أحمد الورداني.

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

الكاتب في سطور

- من مواليد المنصورة ١٨٩١ .
- تخرج من كلية الصيدلة فى ٣٠٠٢.
- صدرت له رواية لا أحد يموت في هدوء.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

تم نفي السيد عمر مكرم مرة أخرى عام ١٨٢٢ بالرغم من شيخوخته، واستمراره في اعتكافه إلى طنطا، بعد أن هاج العامة ضد فرض ضريبة جديدة على منازل القاهرة بعد فرضها على منازل البنادر في الأقاليم، وتوفي في نفس العام